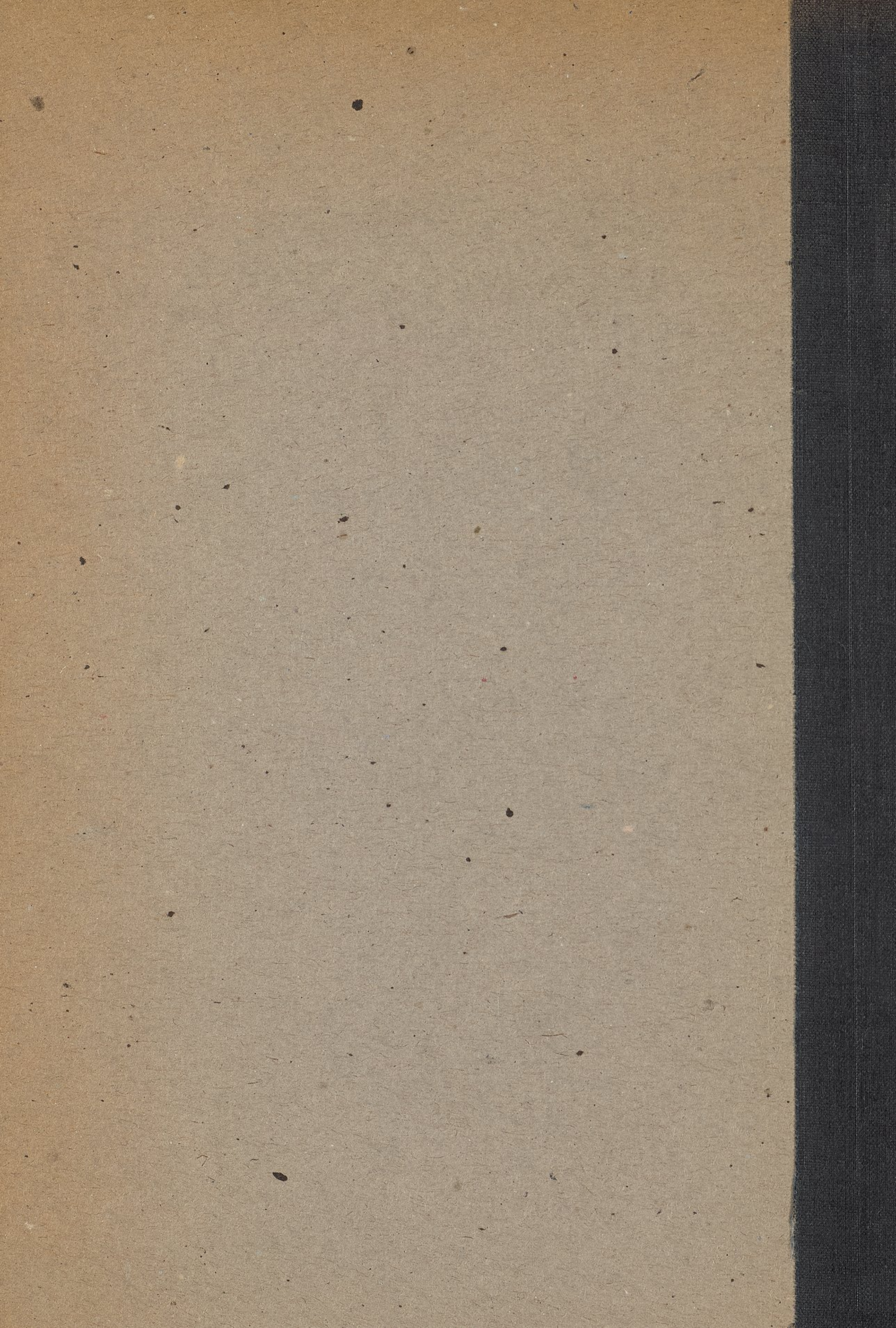
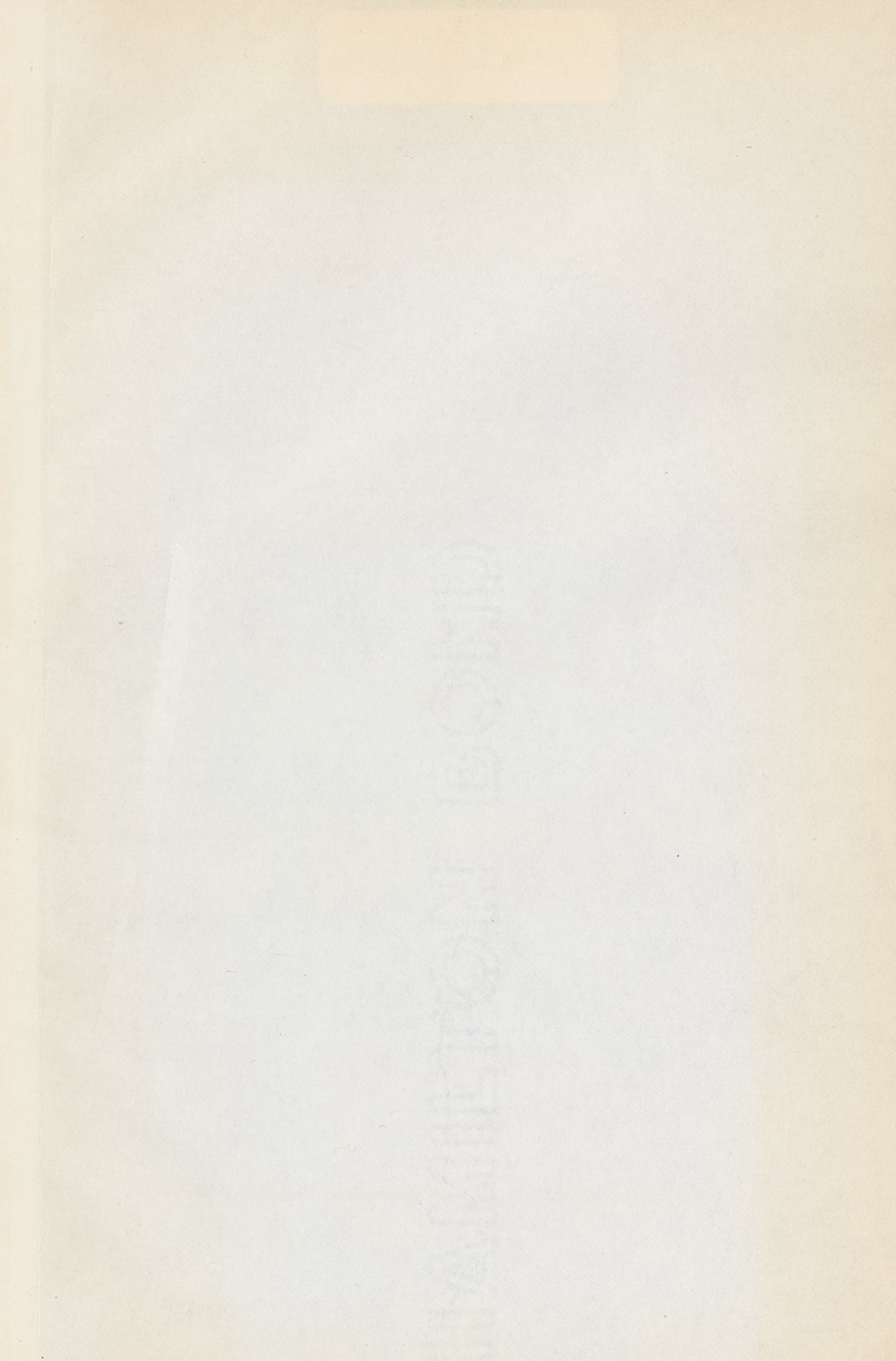


2274.87985.364
al-Siba'i
Min rawa'i hadaratina

| DATE | ISSUED TO |
|---|---|
| DEC 27 1960 | Bindery |
| | |
| | |


Princeton University Library
32101 072235706



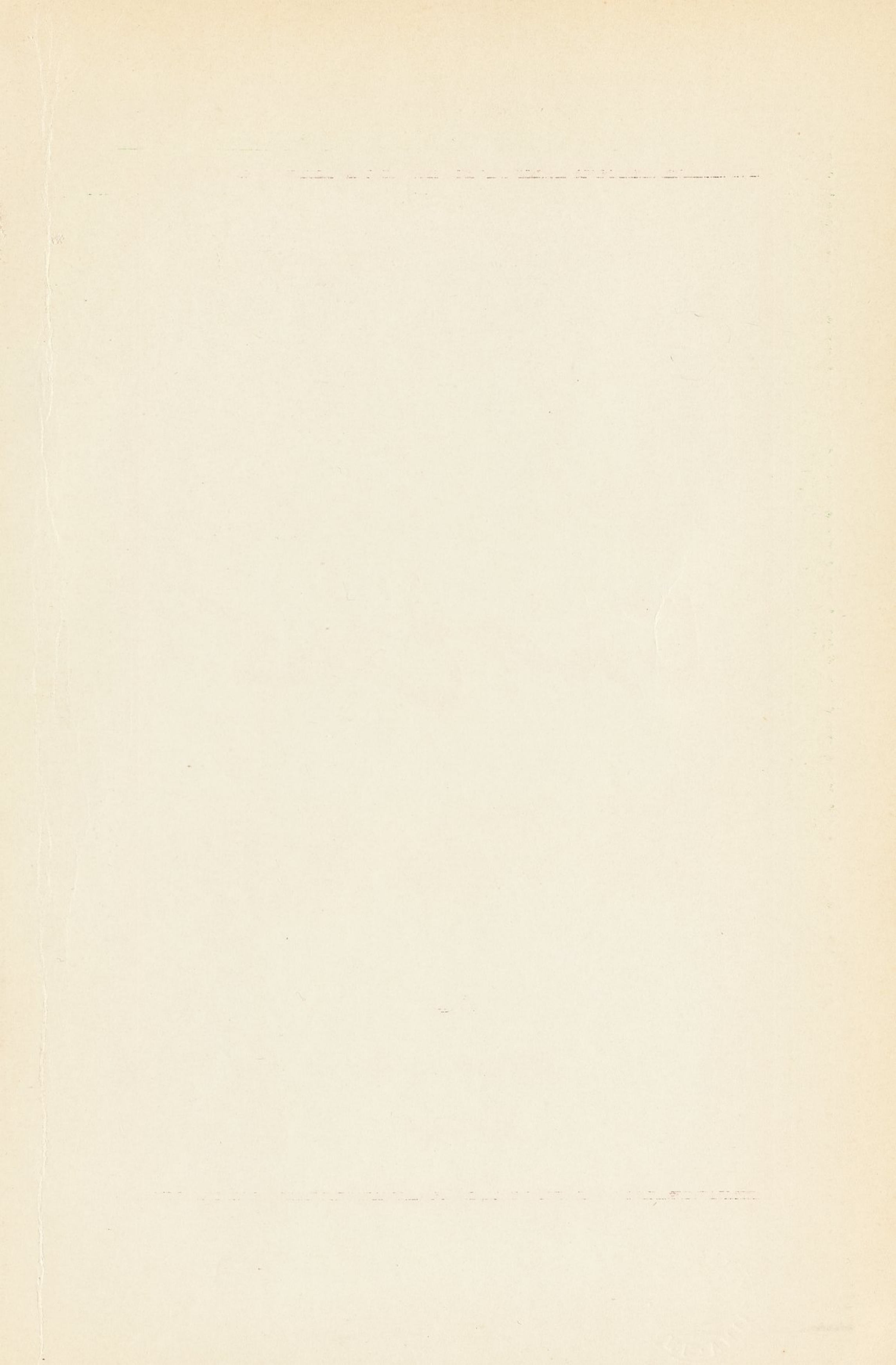
الدكتور مصطفى السباعي

# من روائع حضارتنا

الناشر

دار السلام بدمشق

ص.ب ٨١٢



# من روائع حضارتنا

بقلم

الدكتور مصطفى السباعي

استاذ الاحوال الشخصية في كليتي الشريعة والحقوق
ورئيس قسم الفقه الاسلامي ومذاهبه بجامعة دمشق

دار السلام بدمشق

ملتزم الطبع والنشر
دار السلام بدمشق
ص . ب ٨١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على باني أنبل حضارة عرفها التاريخ سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الذين بنوا صرح تلك الحضارة الشامخة بدمائهم وجهودهم فكان لهم الفضل على كل من نعم بخيراتها الى يوم الدين .

— ١ —

( وبعد ) ففي هذا العصر الذي فاق كل العصور السابقة في رقيه المادي واكتشافاته العلمية ، يقف علماء الاجتماع والنفس والطب في الغرب حيارى تجاه ازدياد المصابين بالامراض العصبية ازدياداً مزعجاً ، ويخيم على العالم كله جو من القلق والخوف يفقد فيه الناس — وخاصة في البلاد المتحضرة — لذة ما وصلت اليه الحضارة من تيسير لوسائل العيش والترف والرفاهية ، مما بدد الاحلام التي كانت قائمة في اخيلة العلماء والمفكرين في القرن التاسع عشر حول السعادة التي ستشمل الناس جميعا نتيجة للاكتشافات العلمية الرائعة .

ومن الملاحظ أن مظاهر القلق والاضطراب تتزايد كلما أصبحت وسائل الرفاهية ميسرة للانسان ، فنسبة الأمراض النفسية في البلاد التي يرتفع

فيها مستوى المعيشة أكثر مما في غيرها من البلاد المتأخرة ، والاحصائيات الاميركية في هذا الشأن واضحة الدلالة على هذا المعنى •

وليس القلق الذي يستولي على الناس ناشئاً من ترادف الحربين العالميتين الاولى والثانية وتوقع الثالثة بعدها فحسب ، بل هو ناشيء من الاجواء النفسية التي هيأتها الحضارة الحديثة لأبنائها ، وليس ناشئاً من وجود الاستعمار فحسب ، مع أن الاستعمار يشكل أكبر بواعث القلق الذي تعانيه الشعوب المستضعفة في ظله ، ذلك أن القلق يستحوذ الآن على شعوب غير مستعمرة ، وعلى الشعوب التي تتمتع بخيرات الاستعمار وثمراته ، بل إن هذا القلق تجده في كل مكان في ظل مختلف المذاهب الاجتماعية الحديثة ، فكما نجد هذا القلق في شعوب الشرق قاطبة نجده في شعوب الغرب ونجده في شعوب الاتحاد السوفياتي •

ومما له دلالته في هذا المقام كثرة حوادث الانتحار في الشعوب المتحضرة ، والاغرب وقوع ذلك في بلاد تعد من أرقى البلاد في المستوى المعاشي والحضاري كالبلاد السكندنافية ، وأغرب من ذلك أن القوم هناك ينتحرون « مللاً » من الحياة الرغيدة التي يحيونها !

ومن ذلك يبدو لنا أن هذا القلق والاضطراب والانحراف الخلقي الذي وصل الى درجة جزع منها الآباء والامهات في الغرب نفسه ، ناشيء من الحضارة الغربية الحديثة نفسها ، ومن الأسس التي قامت عليها الفلسفات التي سادت فيها •

— ٢ —

إن الحضارة الغربية نشأت ــ كما هو معلوم ــ من اتصال الغرب بالحضارة الاسلامية عن طريق المعاهد العربية في الاندلس والأقطار

الاسلامية الاخرى، وكانت الفلسفة اليونانية مما يعنى به مفكرو الاسلام وفلاسفته ، فنقل طلاب الغرب النابهون عن العرب فلسفة اليونان وكتبهم وأكبوا على دراستها رغم مطاردة الكنيسة لها مطاردة شديدة في أول الامر ، ثم تفتح الذهن الغربي وأخذت تبدو له الحقائق خلاف ما كانت تنادي به الكنيسة من علوم ومعارف ، واستمر الصراع طويلا بين الكنيسة والعلم ، حتى انتهى الامر بانتصاره عليها بعد مالقيه العلماء والفلاسفة من عذاب وسجن وتفكير ومطاردة ، واستوت النهضة الغربية الحديثة على قدميها وهي مطبوعة بطابعين واضحين : طابع الفلسفة اليونانية واتجاهها المادي الوثني، وطابع العداء للدين والحقد على رجاله وسلطاته، وبتأثير هذين العاملين كانت تصدر آراء المفكرين الغربيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وفي ظلهما نمت جميع المذاهب الفلسفية والاخلاقية التي سيطرت على عقول الغربيين حتى الآن •

فالأساس الذي قامت عليه الحضارة الغربية أساس مادي بعيد عن روحانية الدين وتأثيره في نفوس الافراد والجماهير ، وما زال الدين يفقد سلطانه على الغربيين شيئا فشيئا حتى وجد الغربيون أنفسهم في هذا المنحدر السحيق وهـذا القلق الشامل العميق • ويود مفكروهم وعقلاؤهم الآن استدراك مافاتهم من روحانية الدين ولكن أنى لهم ذاك وقد آتت الشجرة ثمارها واشتدت جذورها •

وإذا كان من مميزات الدين ــ أي دين سماوي كان ــ أن يوفر للناس قسطا من الطمأنينة النفسية والروحية تخفف عنهم أعباء الحياة وآلامها ، وتكبح فيهم جموح الغرائز وشهواتهـا كما فعل الاسلام في أوج الحضارة العربية وازدهارها واتساع رقعتها ، أدركنا أي مقدار من

الشقاء جلبته الحضارة الغربية على أبنائها حين أقصت الدين ـ في حدود رسالته الإلهية الصافية ـ عن التوجيه في الحياة العامة ، وفلّت من سلاحه الفعال في بعث الأمل والعزيمة والتضحية والرحمة في نفوس الافراد والجماهير .

## ـ ٣ ـ

ونحن لسنا الآن في موقف الحكم بين الحضارة الغربية وبين الدين الذي واجهته واصطرعت معه في بدء قيامها ، وانما يكفينا أن نشير الى سبب افلاس الحضارة الغربية في إسعاد الناس وبث الطمأنينة في نفوسهم ، فهي حين اضطرت الى السير بعيدا عن الدين الذي حاربها ظنت أنها تستطيع السير وحدها دون أن تفيء الى ظل دين آخر يمدها دائما بنسمات الروح المشرقة وبسمات الضمير الحي ، ونلمح اليوم رغبة صادقة من الكنيسة في التعاون مع الدولة ـ في كثير من الحكومات الغربية ـ على تخفيف ويلات الحضارة على أبنائها ، وقد لمسنا ذلك في كل البلاد الغربية التي زرناها ، ورأينا لذلك مظاهر متعددة ووسائل مختلفة .

إن الذي يزور سويسرا في هذه الآونة يجد من المظاهر المعتادة أن تطوف فرقة من ( جيش السلام ) ـ الديني الذي أنشأته الكنيسة ـ بموسيقاها أهم الميادين والمتنزهات في أيام الآحاد ، وهذه الفرقة تتألف من شباب وشيوخ وفتيات واطفال يرتلون التراتيل الكنسية مع الموسيقى فيجتمع حولها ويصغي اليها من يشاء من الحاضرين .

وفي لندن يشهد المرتاد لحديقة ( هايد بارك ) وخاصة في أيام الآحاد حلقات للخطابة الحرة ، ومن بين خطبائها وعاظ من الكنيسة يحاولون أن

يجتذبوا اليهم اكبر عدد من الجمهور بأبلغ أساليب التأثير ، كما يشاهد في المناطق المكتظة بدور السينما رجلاً يصعد منصة حديدية يحملها زميل له ، فيعظ الناس ويشرح لهم حقائق الدين ، وقد رأيت في احدى الليالي رجلا يقف على باب احدى دور السينما في منتصف الطريق يعظ الناس ويحذرهم من تلك الدور المغرية المضرة بالاخلاق ! يفعل ذلك بصوت عال يلفت الانظار وعلى مرأى ومسمع من البوليس فلا يعترضه أحد ويصغي اليه من يشاء ، ولكني لم أر من تأثر بكلامه فعدل عن دخول السينما !...

ومن الشائع الآن في اوروبا وأمريكا أن كل كنيسة لها ناد يجتمع فيه الشباب والفتيات على الرقص والسمر وفي الرحلات والاحتفالات ، وقد زرت أحد هذه النوادي في اوروبا وكان جزءً من بناء الكنيسة ، فرأيت أنه لا يزيد عن حلقات للسمر والرقص والغناء والاكل والشراب ، فسألت مديره وكان يشرح لي أحوال النادي وميزانيته واعماله : هل تقدمون نصائح أو مواعظ دينية لرواد النادي وأعضائه ؟ فأجاب بالنفي! فسألته : وماذا تستفيد الكنيسة من الانفاق على النادي مادام وضعه يشبه وضع الاندية التي لاعلاقة للكنيسة بها ؟ فأجاب : حسبها من الفائدة أن يمر الشباب والفتيات بفنائها في حضورهم الى النادي فيتذكروها !..

وفي بعض بلدان اوروبا يجد النازل في الفندق بجانب سريره نسخة من الكتاب مهداة من جمعية أصدقاء الكتاب المقدس ليقرأ منه قبل نومه أو عند استيقاظه ما يتذكر به دينه وعقيدته .

وفي أكثر جامعات اوروبا جمعيات باسم ( الطلاب المسيحيين ) لها

ندوة أسبوعية يخطب فيها أحد رجال الكنيسة ويشرح حقائق الدين ومبادئه ويشترك من شاء من الطلاب في مناقشته .

وفي المانيا الغربية تجبي الحكومة من الشعب الالماني ضريبة خاصة باسم الكنيسة لتساعد الكنيسة في القيام بمشروعاتها الرامية الى نشر الدين . وقد كنت في مستشفى جامعة ( كولون ) في المانيا وكان في صدر غرفتي تجاه السرير مباشرة صليب ضخم من البرونز مثبت في الحائط ، ووجدت مثل هذا في كل غرف المستشفى حتى غرف الادارة والاطباء . فسألت عن السر في ذلك فقيل لي : إنه من مظاهر نشاط الكنيسة لتذكير الناس بالدين ، هذا مع أن المستشفى تابع للجامعة ولا علاقة له مباشرة بالكنيسة .

ولا ننسى الافلام الدينية التي أخرجتها هوليود أخيرا بكثرة تستلفت الانظار .

وكثير منا قد سمع عن جمعية « التسلح الخلقي » المنتشرة في أوروبا ، وكانت لها زيارات لبعض بلدان الشرق الاوسط والاقصى ومنها القاهرة ، وقد زرت مقرها في سويسرا قرب (لوزان) وهي تدعو — في الظاهر — الى التخلق بالفضيلة والرحمة والعدالة وما أشبه هذا !...

تلك هي بعض مظاهر النشاط الديني والخلقي الجديد في بلاد الغرب، وهي تدل بجلاء على أن القوم بدؤا يفكرون في الاستفادة من الدين لتخفيف أضرار مدنيتهم ، وإنا لنجزم بأن الزمام قد أفلت من أيدي رجال الدين وعلماء الاخلاق والاجتماع عندهم ، وأن القطار قد فاتهم ، وأن الكارثة تستفحل يوما بعد يوم حتى تأتي النهاية الطبيعية لهذه الحضارة .

وقد يكون من بواعث العودة الى الدين في اوروبا كوسيلة لرفع المستوى الروحي للجماهير، هوجزعها من الشيوعية وخوفها من انتشارها. ولكن الدين بالشكل الذي صار اليه من الضعف ، وبما ناله من الشك نتيجة لانتشار فلسفات الحضارة الغربية نفسها ، أصبح عاجزا عن الوقوف في وجه التيار الشيوعي في الغرب ، فلابد من مقاومته بالتدابير الاجتماعية والاقتصادية ، فالعقلية المادية ـ كالعقلية الغربية ـ لا تفهم إلا المادة ولا ترضى إلا بها .

على أن الشيوعية نفسها ثمرة من ثمار هذه الحضارة وبنت من بناتها المنحرفات ! وهي مما زادت في أسواء الحضارة الغربية ونشرت من أخطارها .

جاءت فلسفة ماركس وانجلز في القرن الثامن عشر ، والأول يهودي الماني والثاني انجليزي ، فزادت الامور سوءً اذ باعدت مابين الانسان وبين الاستقرار النفسي والروحي بعداً شاسعاً ، فانتزعت منه عقيدة الايمان بالله واليوم الآخر ، وأفقدته الثقة بالقيم الاخلاقية التي ظلت منذ عرف تاريخ الانسان حتى الآن المعتصم الذي تلوذ به الجماعات لضمان أمنها الجماعي ، وقامت للشيوعية الحديثة أول دولة في العالم، واستطاعت أن تحسن معيشة أبنائها عما كانوا عليه من قبل ، ولكنها لم تستطيع ـ ولن تستطيع بفلسفتها المادية ـ أن تنقذ أبناءها من كل انواع القلق والمخاوف النفسية والاجتماعية ، وزادت على ذلك مخاوف أخرى بما فرضته على شعوبها من خوف على مصائرهم إن هم انتقدوا الحكم أو أساليبه، وإن الخوف الذي يملأ جوانب أعضاء الحزب الشيوعي أنفسهم ليفوق الخوف الذي يملأ نفس المواطن الشيوعي العادي ، إن على عضو

الحزب إما أن يكون متحمساً لآراء القيادة الشيوعية العليا ، مندفعا الى تأييدها اندفاعا أعمى وإما أن يلقى مصيره المحتوم .

فالفلسفة الشيوعية بانكارها الله والديانات قضت على آخر سلاح يعتصم به الانسان ضد الخوف والقلق والمصائب والاثرة والعدوان . والدولة الشيوعية ـ أينما كانت ـ بحكمها الاستبدادي وارهابها الدموي ، جعلت الجماهير الواقعة تحت حكمها قطيعا من الماشية البشرية مسلوب الارادة محروما من المثل العليا التي يتطلع اليها كل مجتمع كريم .

وهكذا تكون الحضارة الغربية بفرعيها الرأسمالي والشيوعي أفقدت الانسان اطمئنانه واستقراره ومثله الانسانية الرفيعة ، حين جعلت الرفاه المادي هو المثل الاعلى الذي تستحث الخطى نحوه ، فان لم يصل إليه طالبه عاش شقيّاً ، وإن وصل اليه عاش ملولاً لا ينتهي من مللـه إلا بالانتحار !..

— ٤ —

لقد بدأ الغربيون يدركون افلاس حضارتهم من الناحيتين الروحية والاخلاقية ، وأخذ كثير منهم يتجه نحو الشرق عله يجد في دياناته ما يسد فراغه الروحي ، ويرده الى انسانيته الكريمة ، فليس عجيبا ان ترى منهم ـ وخاصة في أمريكا ـ من يعتنق البوذية ، ومنهم من يعتنق البهائية ، والذين يعتنقون منهم الاسلام فريقان : فريق يُرضي بالاسلام قلبه وعقله ، وفريق يُرضي به روحه ووجدانه .

قال لي مرةً الاستاذ « أبو بكر [1] » المستشرق الانجليزي المسلم

(١) اني اكتب هذه المقدمة وانا بعيد عن مذكراتي وأوراقي الخاصة ومكتبتي ، ولذلك فاتني ذكر اسمه بالانجليزية ، وهو معروف لدى اساتذة جامعة القاهرة .

الذي كان استاذاً للّغة الانجليزية في جامعة فؤاد ( القاهرة حالياً ) وقد اعتنق الاسلام وهو في القاهرة ، ويشغل الآن وظيفة أمين القسم الشرقي في المكتبة الوطنية بلندن ، قال لي وهو يشرح أسباب اعتناقه للاسلام : إن هذه الحضارة الغربية تفقد الشرف والجمال ! فقلت له : أما فقدانها للشرف فلا أنازعك فيه ! .. وأما فقدانها للجمال فكيف ؟ والناس يرونها أروع حضارة عنيت بالجمال : جمال الطبيعة ، وجمال اللباس ، وجمال المدن ، وجمال البيت ، وجمال المرأة أيضا ! .. فقال : انها فقدت جمال الروح وجمال الذوق الفطري وجمال الخلـُق .

وفي صيف عام ١٩٥٦ ألقيت في مسجد باريس خطبة الجمعة ، وكان مما تحدثت عنه ـ بمناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف وقتئذ ـ أن ذكرت رسالة الاسلام الرحيمة العادلة ، وكيف تجلت في فتوحاته وحكمه للشعوب وعرّضت بالحرب الجزائرية وما يقع فيها من مآس دامية جعلتها أكبر مجزرة مستمرة في التاريخ . وبعد انتهاء الخطبة كان ممن تعرفت عليه من المصلين « مصطفى ڤالسان » وهو روماني الاصل ، كان قنصل رومانيا في باريس ثم اعتنق الاسلام وترك العمل الدبلوماسي ، وهو يتزعم الآن مجموعة من الشباب الفرنسيين الذين اعتنقوا الاسلام عن عقيدة وإخلاص فلا يشعر بهم أحد . ويجتمع بهم في بيته مرة واحدة في الاسبوع ، وهم يلبسون ثياباً شرقية بيضاء ، وبعضهم قد أطلق لحيته ـ على صغر سنة ـ بذوق وجمال ، يتلون آيات الذكر الحكيم ويتدارسون الاسلام فيما بينهم ، قال لي الشيخ مصطفى ڤالسان هذا : لقد سمعتك تتحدث عن الرحمة في الفتوحات الاسلامية ، ولعلك تريد بذلك أن تنفي ما يفتريه الغربيون على الاسلام من قسوته في حروبه

وفتوحاته ، فلا تتعب نفسك في هذا ، ان لكل أمة خلقا تعرف به ، ومن أبرز أخلاق الغربيين النفاق في ادعاء الرحمة ! ..

وكان بعض المسلمين العرب يتحدث الى لفيف من هؤلاء الشباب الفرنسيين المسلمين عن عظمة الاسلام ومسايرتـه للتطور والتقـدم ، واسترسل في هذا كأنه يتحدث في بلد عربي يتوق الى القوة والمجد ، فأخذ يؤكد أن الاسلام يدعو الى اتخاذ القوة وصنع الدبابات والطائرات و . و . الخ .. فقال له أحدهم : يا أخي نحن إنما هربنا من الحضارة الغربية الى الاسلام لأنها أتلفت أعصابنا بالحروب وأسلحتها وافقدتنا انسانيتنا حين أماتت أرواحنا وأحيت شهواتنا بماديتها ، فحـدثنا عن روحانية الاسلام الذي وجدنا فيه كرامتنا الانسانية واطمئناننا الروحي !

وقالت لنا فتاة سويسرية تسكن في باريس وتتخصص في تخطيط موجات الدماغ : إنني فتاة فقيرة يرسل اليّ أهلي مالا يكفيني لسد رمقي في هذه المدينة « التاجرة » وهي مع ذلك ـ كما ترون ـ مدينة « فاجرة » تجعل الانسان أشبه ما يكون بالحيوان الجائع الشره ! وقد رأيت أن أخدم احـدى العائلات لاستعين بذلك على تأمين معيشتي ، وتطلعت الى الخدمة عند عائلة شرقية عسى أن أجد عندها الجو الروحي الذي يحفظ لي كرامتي وانسانيتي ، واتفقت مع عائلة هندية (هندوسية) على الخدمة ساعات معينة في اليوم ، ويؤسفني أن أقول انني لم أجد فيهم ضالتي ، لقد وجدتهم ذوي أرواح ( صفراء !.. ) .

هذه أمثلة على بدء تطلع الغربيين الى حياة روحية يأنسون اليها بعد أن فجرت حضارتهم المادية في نفوسهم وحياتهم كل ينابيع الالم والحيرة

والاضطراب ، وتستطيع أن تلمس هذا من حديثك مع كل غربي ذي تفكير متزن واحساس روحي وخلقي .

— ٥ —

إن الحضارة الغربية تمثل أرقى ما وصل اليه الانسان من حياة مادية ، وليس هذا وحده هو الذي يسعد الناس كما رأيت ، بل لا بد من حضارة جديدة تتابع هذا الرقي المادي وتستمر فيه ، وتأخذ بالناس الى حياة روحية راقية بجانب ذلك الرقي المادي ، بحيث تحفظ التوازن دائما بين الحياتين المادية والروحية ولا تسمح بطغيان احداهما على الأخرى ، فهل يمكن أن توجد هذه الحضارة ؟ وهل هنالك أمة تستطيع القيام بهذا الدور ؟

إن العالم الغربي لا يمكن أن يقوم بالدور المرتقب ، فهو الآن في أوج حضارته وقوته المادية وافتتانه بها ، وحين ينهار فسيكون فاقداً كل المؤهلات التي تؤهله لقيادة العالم نحو الامن المنشود والحياة الكريمة المبتغاة .

والعالم الشيوعي لا يمكن — بالأحرى — أن يقوم بذلك لأنه أشد اغراقاً في المادية وحربا للروح والقيم الدينية والاخلاقية ، وسيساهم مع الغربيين في ازدياد شقاء العالم واضطرابه حتى تنهار هذه الحضارة فوق رؤوس أصحابها من غربيين وشرقيين .

والعالم الشرقي ذو الديانات الوثنية الروحية لا يمكن أن يقوم بهذا الدور ، لأن الحضارة تقوم على العلم والتفكير الصحيح والتجرد من الخرافات والأوهام ، والوثنية في حد ذاتها نقيض ذلك كله ، ولأن الروحانية التي يحتاج اليها العالم في حضارته المرتقبة هي الروحانية

الايجابية البناءة التي تساهم في رقي الانسان واطراد تقدمه ، والروحانية الشرقية الوثنية هي روحانية سلبية تفرُّ من الحياة ، وتنهزم من أداء الواجب ، وتعتبر رقي الانسان المادي رجساً يجب أن يتطهر منه وتشن الحرب عليه •

ليس هنالك من يستطيع القيام بالدور الحضاري المرتقب الا أمة واحدة هي أمتنا ، ولن يستطيع حمل اللواء لحضارة الغد غيرنا • • • وذلك للاسباب التالية :

**أولا** ـ إننا نحمل عقيدة من أرقى العقائد التي تساهم في بناء الحضارات فهي عقيدة توحيد من أصفى أنواع التوحيد وأكثره اشراقاً وسمواً وكمالاً ، وهي عقيدة علم تحترم العقل وتدفعه دفعا حثيثاً وراء المجهول ليصبح معلوماً ، وهي عقيدة خُلق انساني معتدل كريم يتجافى عن الافراط في الرحمة والتفريط في العدالة ، وعن الافراط في الحب ، والتفريط في الواجب • وهي عقيدة تشريع يهدف الى اليسر ، ويتوخى المصلحة : مصلحة الفرد ضمن مصلحة المجموع ، ومصلحة المجموع غير مفرط بمصلحة الفرد ، مصلحة الامة ضمن الاطار الانساني العام ، ومصلحة الانسانية كلها من غير محو لفضائل الشعوب وخصائص الأمم وقضاء على كرامتها •

**ثانيا** ـ إننا أصحاب روحانية ايجابية بناءة ، روحانية إلهية تلازم الجندي في حربه ، والعامل في مصنعه ، والعالم في درسه ، والفيلسوف في بحثه ، والقاضي في محكمته ، والموظف في وظيفته ، والرئيس في رئاسته ، تلازم كل انسان في جده وهزله ، وحركته وسكونه ، وليله ونهاره ، ويسره وعسره ، وصحته ومرضه ، لا تمنعه في حال عن حال ،

بل تنقله من كمال الى كمال ، وتذكره بالله الذي خلقه ، والارض التي درج عليها ، والناس الذين يعيش معهم ، والعالم الذي هو جزء منه في وحدته الكبرى وعبوديته لله رب العالمين .

**ثالثاً** – إننا أثبتنا في الماضي قدرتنا على انشاء مثل الحضارة المرتقبة، ومهما قيل عن حضارتنا من قبل الخصوم والجاحدين فان أحداً لا ينكر أنها كانت أكثر من الحضارة الغربية الحديثة رحمة بالناس ، وسمواً في الخلق ، وعدالة في الحكم ، واشراقاً في الروح ، واقتراباً من المثل الأعلى للانسان في مختلف عصوره واطواره . وما دمنا قد استطعنا ان نقيم تلك الحضارة الانسانية الرائعة في عصور التخلف العلمي والفكري ، فإننا أقدر على أن نقيم مثل تلك الحضارة في عصور التقدم العلمي وانكشاف المجهول من الكون شيئاً بعد شيء .

اننا حين نمسك بزمام الحضارة المرتقبة لن نتخذ من الوصول الى الفضاء دليلاً على انكار وجود الله ، ولن نتخذ من الصواريخ عابرة القارات ذريعة الى تهديد الامم والشعوب لتظل تحت دائرة نفوذنا ، ولن نتخذ من الاذاعة وسيلة للتضليل ، ولا من السينما آلة للاغراء ، ولا من المرأة متعة للجسم ، ولا من التقدم الحضاري أداة لاستغلال الشعوب المتخلفة واستثمار خيراتها واذلال كرامتها .

تلك هي الاسباب أو بعض الاسباب التي تجعلنا الامة الوحيدة التي تستحق حمل لواء الحضارة بعد الغربيين لانشاء حضارة جديدة تخفف من شقاء الانسان ، وتحقق له قسطاً أكبر من الامن والطمأنينة والحياة الانسانية المستقرة .

واذا رجعنا الى أصول عقيدتنا ، وجدنا كتابنا المنزل يشير بصراحة

الى انفرادنا من بين أمم العالم بجدارة القيام بالدور الحضاري الذي تتطلبه الانسانية في عصرنا الحاضر ، لا لامتيازنا عن غيرنا عرقياً أو جنسياً أو فكرياً – فتلك خرافة لم يؤمن بها الاسلام يوما ما – بل لما ذكرناه في السببين الاول والثاني مما تنفرد به عن غيرنا .

فالآية الكريمة التي تقول لنا : **« كنتم خير أمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »** (١) انما تشير بذلك الى خصائص عقيدتنا وأخلاقنا التي أهلتنا لان نكون خير أمة أخرجت للناس .

والآية الكريمة التي تقول عنا : **« الذين إن مكناهم في الأرض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر (٢) »** إنما تشير بذلك الى خصائص حضارتنا التي جعلتها خير حضارة أخرجت للناس .

والآية الكريمة التي تخاطبنا في كل وقت : **« وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً (٣) »** إنما تحمّلنا بذلك عبء حمل الرسالة ، رسالة قيادة الناس ودلالتهم الى طريق الحق والخير دائماً وأبداً ، لا في عصر دون عصر ، ولا في جيل دون جيل .

وإذا كنا قد استجبنا لنداء القدر فحملنا اللواء مرة واحدة ، وقدنا الانسانية الى مراتع الامن والهدى والنور ، ثم تركنا اللواء وتهربنا من أداء الرسالة ، فان هذه الآية الكريمة لتستحث اليوم خطانا لنحمل اللواء

---

(١) آل عمران : ١١٠ (٢) الحج : ٤١

(٣) البقرة : ١٤٣

مرة أخرى ونرفع المشعل من جديد ننقذ به الشعوب التي تتيه اليوم في ظلمات الخوف والقلق والشهوة والظلم واليأس المميت ، ثم لا تجد مخلصاً من ذلك إلا بالانتحار : انتحار الافراد بالاسلحة أو السموم القاتلة ، وانتحار الشعوب بالقنابل الذرية والهيدروجينية !..

— ٦ —

سيستخف بهذه الفكرة ـ فكرة قيامنا بدور حضاري جديد ـ فريقان من الناس :

**الفريق الأول** ـ أولئك الذين استعبدتهم الحضارة الغربية، وسلبتهم الثقة بأمتهم من أن تقف من الغربيين موقف الند من الند ، فضلا عن موقف القيادة . وهؤلاء قد عانت أمتنا منهم كثيراً من المتاعب والنتائج الفكرية السيئة ، ونحمد الله على أن هؤلاء أخذوا « يتقلصون » شيئاً فشيئاً ، بتأثير حماقات هذه الحضارة وجرائمها على أصحابها وعلى الشعوب المستضعفة ، وبنمو الوعي الفكري والسياسي في أمتنا نمواً يبشر بأحسن النتائج. واذا كانت التبعية «السياسية» للغرب «المستعمر» قد انقضى أمرها وذهب معها ذلك الطراز القديم من قادتنا السياسيين الذين كانوا يرون ذلك ضربا من المستحيل ، فان التبعية « الحضارية » للغرب « المتحضر » سينقضي أمرها ، وسنتخلص من ذلك الطراز القديم من أدعياء قيادة الفكر الحر الذين لم يكونوا في حقيقة الواقع الا مظهراً ذليلاً من مظاهر الجهل والعبودية والغباوة !.

لقد كان تأميم قنال السويس « منعطفاً » في تاريخنا القومي والسياسي بدأنا به تاريخاً جديداً ، وبدأنا معه حياة سياسية جديدة تختلف في مظاهرها عن كثير من مظاهر حياتنا السياسية القديمة يوم

كان يوجهها أولئك السياسيون القدماء الذين قد يكون لدى بعضهم رصيد طيب من الجهاد الوطني والرغبة المخلصة في انقاذ وطنهم وأمتهم من الاستعمار ، ولكنهم جميعاً كانوا يملكون رصيداً ضخماً من «تعظيم» الغرب و « استضعاف » أمتهم عن أن تستطيع الوقوف في وجهه .
ونحن لا نشك في أن هذا « المنعطف » السياسي الخطير الذي بدأ في تأميم قنال السويس سيتبعه « منعطف » فكري واجتماعي سيكون له أبلغ الأثر في تاريخنا الاجتماعي والحضاري ، وسيزول كل أولئك المثقفين الذين يملكون أيضاً رصيداً ضخماً من « العبودية » الفكرية للغرب و « التأله » على تاريخ أمتهم وتراثها وفضائلها وعقائدها .

**الفريق الثاني** ـ أولئك الذين يؤمنون بقرب انهيار الحضارة الغربية بعد أن كثرت شرورها ولكنهم لا يتفاءلون مثل تفاؤلنا بإمكان قيامنا بدور حضاري جديد ونحن على ما نحن عليه من بون شاسع بين واقعنا وواقع أمم الحضارة ، ويرون أن الحديث الآن عن تسلمنا لقيادة الحضارة ضرب من الخيال وجري وراء العاطفة !

ونحن حين نتحدث عن هذا الموضوع لا نزعم أن انهيار الحضارة الغربية وانتقال مركز القيادة الحضارية الينا سيتم في عشر سنين أو عشرين أو نصف قرن مثلاً ، فلقيام الحضارات وانهيارها سنن طبيعية لا تتخلف ، واذا بدأ الخلل في قاعدة قلعة حصينة فقد يبدو للعيان أمداً طويلاً أنها في ذروة قوتها ، وهي مع هذا آخذة في الانهيار وستصبح ركاماً .

لقد مررنا منذ بدء نهضتنا بمراحل يقفو بعضها إثر بعض اقتفاءً طبيعياً ، فقد استيقظنا على واقع مؤلم واستعمار جاثم ، فطردنا الاستعمار

في بعض أقطارنا ونحن نوشك على طرده من أقطارنا الاخرى ، وبدأنا تتعلم وننظم حياتنا وفق الحياة التي تفرضها الحضارة الحديثة ، وهي الحضارة الغالبة على مقدراتنا الفاتحة لبلادنا ، ثم بدأنا نسير في طريق القوة واستغلال ثروات بلادنا والاستغناء بقدر ما نستطيع عن «المنتجات» الحضارية المصنوعة في الغرب ، والهدف الذي نسعى اليه الآن هو اللحاق بركب الامم المتحضرة حتى تقاربها في القوة ومستوى المعيشة ، وفي هذه المرحلة ينبغي أن نصنع لانفسنا « مقياساً » حضارياً نستمده من مقاييسنا الحضارية على ضوء مشكلات الحضارة الحديثة وحاجياتنا وظروفنا ، كما يجب علينا أن نحدد خطوتنا المقبلة بعد الانتهاء من هذه المرحلة ، أهي أن نظل في فلك الحضارة الحديثة ، ونجري وراء الذين سبقونا بمئات السنين يأخذنا الاعياء من كل جانب ويكون كل همنا أن نلحق بهم ونكون مثلهم ؟ أم أن نرسم لانفسنا طريقاً آخر يقفز بنا الى المقدمة من غير أن ينالنا نصب هذه الامم المتحضرة وإعياؤها وآلامها وانهيارها ؟

نحن بحكم الواقع لا نستطيع أن نصل — في بضع السنوات القادمة — الى مستوى القوة المادية التي وصل اليها الغربيون ، فليس من السهل أن تكون لنا خلال هذه المدة أقمارنا الصناعية وصواريخنا عابرة القارات ، وهب أنا وصلنا الى ذلك في بضع سنين ، فان الغرب يكون قد سبقنا أشواطاً أخرى في هذه الميادين .

فالطريق الصحيح هو أن نستمر في استكمال قوتنا الى غاية ما نستطيع ، مع وضع « مقياس » حضاري جديد لنا وللانسانية كلها ، ونحن نملك كل امكانيات « الاستقلال » في تخير الطريق الصحيح

للحضارة ، ومعنا الوقت الكافي لدراسة مقاتلها ومشاكلها لا لننجو منها في مرحلتنا الحاضرة ، فهذا مالا سبيل اليه ، بل لننجو منها ونخرج عن دائرة سيرها في مرحلتنا المقبلة ، وهذا ما نجد السبيل اليه ممهداً لو آمنا بما عندنا وبمقاييسنا التي أثبتت التجارب صحتها ، وبمن يتألف منهم ركبنا الحضاري ، أي بشعبنا العظيم الذي لم تمت فيه جذوة الطموح ، ولم تخب عنده نار النضال، ولم يستسلم للغزاة رغم شدة الضربات وتكرر الغزوات وتعدد الخيانات ! ..

إننا اذافعلنا ذلك نكون قد أوجدنا أكبر « منعطف » لتـاريخ الانسانية في عصرها الحديث ، وحسبنا أننا نسيطر بذلك على قارتينا الكبيرتين آسيا وأفريقيا سيطرة روحية وأخلاقية تجعلهما أسعد من باقي القارات وأكثرها أمنا واطمئناناً ، ويومئذ لابد من أن يلتفت إلينا العالم الغربي المنهوك القوى التائه الطريق ، ويأخذ عنا ما يخفف من شقائه وآلامه ، يومئذ تنتقل الينا قيادة الحضارة وتوجيه التاريخ قبل أن يقرر نهاية الانسانية بعض « المجانين » ! ..

قد أكون مع هـذا لا أزال مسترسلاً وراء الخيـال ، فحوادث التاريخ لا تسير سيراً رتيباً كما يقوم في أذهان الكاتبين ، ومن يدري ماذا سيكون غداً ؟ فهذا العالم مليء بالمفاجآت ، وقد تقع حادثـة في أقصى الارض فتؤثر على من في الارض في الطرف الآخر ، بيد أن هذا لا يمنع من أن نطالب بالتفكير في مستقبلنا تفكيراً مستقلاً ، وحوادث التاريخ تصنعها يد الله بآراء المفكرين وصيحات الانبياء والمصلحين .

— ٧ —

وبعد فموضوع هذا الكتاب هو « احاديث » أذعتها من محطة

اذاعة دمشق في الفترة الواقعة بين ٢٠ من المحرم ١٣٧٥ الموافق ٨ من ايلول ( سبتمبر ) ١٩٥٥ وبين ٢٣ من ربيع الثاني ١٣٧٥ الموافق ١٥ من كانون الاول ( ديسمبر ) ١٩٥٥ عرضت فيها نماذج من الجوانب الرائعة في حضارتنا ، وهي جوانب لا تزال تأخذ بألباب كل باحث منصف ، ولم أتقص كل مظاهر الروعة في حضارتنا ولا قصدت تحليلها علمياً ؛ لأنني كنت أتحدث الى جماهير المستمعين ممن يتفاوتون في المستوى الفكري والثقافي ، وكان يهمني أن يصغي اليها أولئك الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، من صفوة شبابنا ورجال الفكر المؤمن بكرامتنا على الله وعلى التاريخ ، ولم يتسع لي الوقت لمتابعة هذه الاحاديث ، إذ كنت أستعد للسفر في رحلة علمية الى ديار الغرب تمت عام ١٩٥٦ وقد كنت أود أن أتحدث عن روائع كثيرة ، منها تلك النماذج الانسانية للروحانية الايجابية في تاريخ حضارتنا ، ممن كانوا على قدر كبير من الايمان بالله ، والاتباع للحق ، والسمو في النفس ، والاشراق في الروح ، والجمال في الخلق ، والرحمة للناس ، والعدل في الحكم ، هذا مع مساهمتهم في صميم الحضارة ووجودهم في صميم الحياة ، سواء كانوا ملوكاً أم علماء ، أم زهاداً ، أم فلاسفة ، أم قواداً ، أم حكاماً ، أم تجاراً ، أم عمالاً ، رجالاً ونساءً ، شيوخاً وشباباً ، أغنياء وفقراء ، انها نماذج للكمال الانساني الذي لم يكن يعيش في خيال الفلاسفة والحكماء ، بل كان يعيش على ظهر الارض مع أهل الارض .

هذه الروحانية الايجابية بأمثلتها الرائعة هي مما تفردت به حضارتنا عن سائر الحضارات قديمها وحديثها ، فلقد عرف التاريخ رجالاً روحانيين في الأمم المختلفة وخاصة في أمم الشرق الأقصى ، ويعيش اليوم

أناس تغلب عليهم النزعة الروحية الصافية ، ولكن هؤلاء وأولئك كانوا سلبيين مع الحضارة ، مترفعين عن المساهمة فيها ، يعيشون في الأديرة ورؤوس الجبال أو في المغاور والصحارى ، أما نماذجنا الروحية في تاريخ حضارتنا فقد كانوا يخوضون معركة بناء الحياة بكل ما تتطلبه المعركة من عمل وجهد وتضحية وفداء ، وهذا هو سر الروعة في هذه النماذج الروحية العجيبة في تاريخ الحضارات .

والقصد اليوم من نشر هذه الاحاديث أن نلفت الأنظار الى هذه الروائع كدليل على استطاعتنا بناء حضارة أكمل وأسمى من هذه الحضارة، وأن نذكر الجيل الجديد من أبناء أمتنا بواجبهم في بناء حضارة انسانية كريمة كما بنى آباؤهم أمثالها ، وهذا أنسب الاوقات لمثل هذا التذكير ، فأمتنا تدخل الآن باب التاريخ من جديد دخولاً كريماً فيه كل تحفز وانطلاق لبناء مستقبل أفضل وأكمل ، وفي أمتنا بقايا من سجايا الآباء والأجداد فاذا سمعت حديث أمجادهم وآثارهم وحضارتهم هزها ذلك هزاً عنيفاً ، ودفعها الى العمل دفعاً حثيثاً .

فلا تسمعوه ما أقـول فانه      شجاع متى يذكر له الطعن يشتق

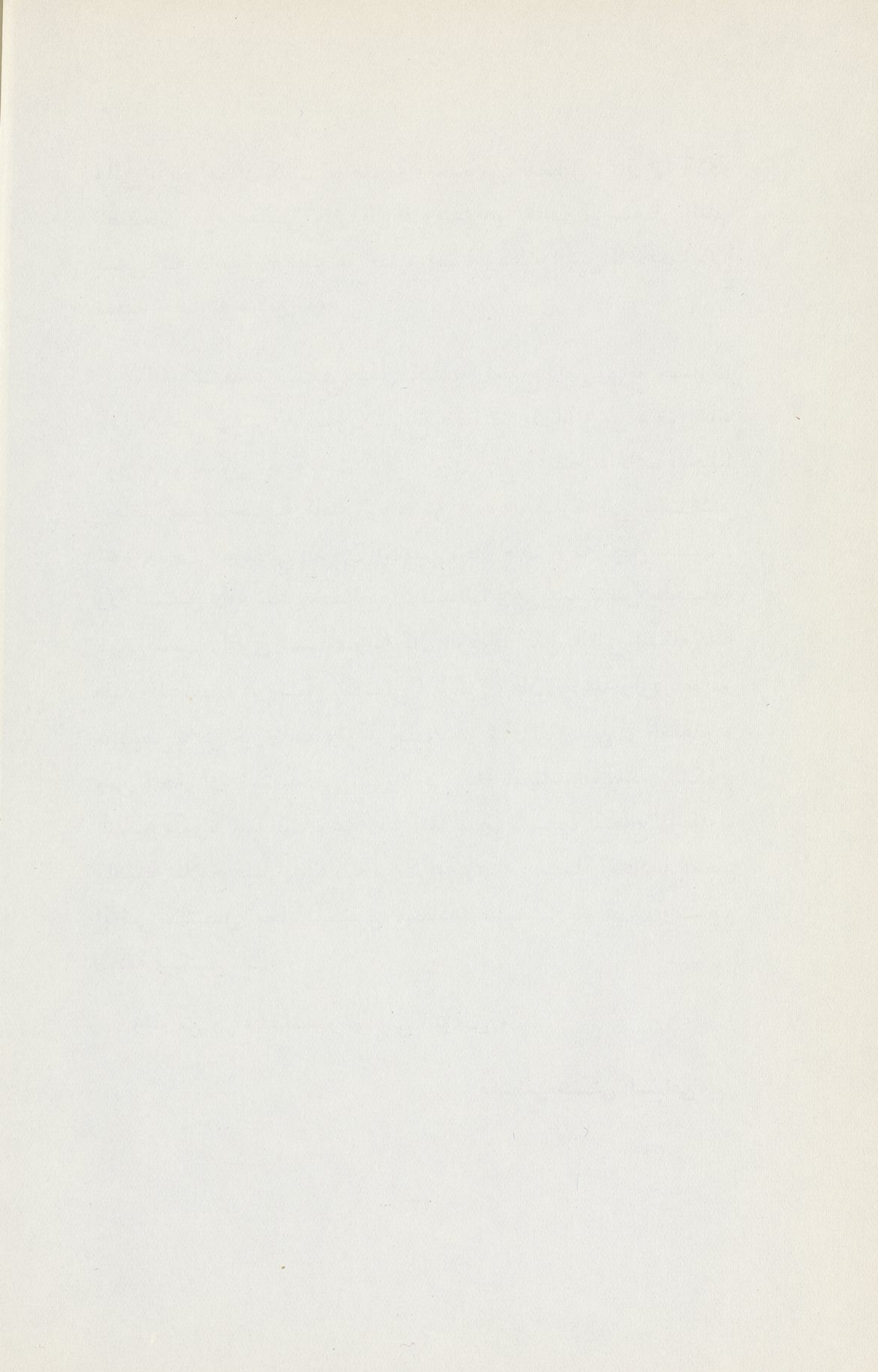
ولسنا نقصد من عرض هذه الروائع الادعاء بأن كل ما في حضارتنا جميل ومشرق ، فليس في التاريخ حضارة ليست لها هفوات ، وانما القصد أيضاً أن نثبت أن الجوانب الانسانية الخالدة في حضارتنا أقوى وأجمل ، وأن نرد بذلك على افتراء الذين يزعمون لحضارتنا كل عيب ونقيصة ، ويتعمدون أن يحذفوها من قائمة الحضارات الاصلية ، وأن نحبط بذلك كيد الذين يعملون على أن يصرفوا أنظار جيلنا الحديث عن روائع آثارنا الحضارية ، ليجذبوهم الى حضارة تكشفت مقاتلها للناس،

والى تاريخ أمم إن كانت لها صفحة واحدة من الفضائل ، فان لها آلاف الصفحات من النقائص والرذائل ، وهذا هو هدف الاستعمار الذي يسعى اليه جاهداً ، وذلك هو صنيع أذنابه ودعاته الذين ما برحوا على تمجيد حضارته عاكفين ...

واذا كنت قد عرضت في هذا الكتاب « نماذج » من روائع حضارتنا فاني لأرجو أن يتم الدارسون لتاريخ حضارتنا ما بدأته من عرض هذه الروائع ، بشكل أتم وبحث أوفى وبيان أبلغ وأنصع ، لاعطاء جيلنا الحاضر صورة حقيقية كاملة الروعة عن هذه الحضارة التي كانت تشع النور وتبعث الحياة في القرون الوسطى ، فلا حاضر لأمة تجهل ماضيها ، ولا مستقبل لأمة تنكر خصائصها وفضائلها وهي مما تتصل بالحضارة بأوفى سبب وأقوى نسب ، واذا كان الوقوف على الماضي للبكاء عليه عليه والنحيب ، هو شغل الكسالى العاطلين ، فان تجاهله وازدراءه مع ما يفيض به من خير واسع ونور رحيب ، هو شأن الحاقدين أو الجاهلين. ومن الخير أن نستفيد من كنوزنا في بناء نهضتنا العتيدة ، لتكون النهضة مأمونة العواقب ، غنية بما يمد لها من أسباب النجاح والبقاء ، واضحة الملامح فيما تهدف اليه من كرامة وهناء ، متصلة أمجادها بأمجاد الماضي ، لتتصل أمجاد المستقبل بأمجادها ، فيستمر الموكب ، وتنسجم الحلقة ويكتمل البناء .

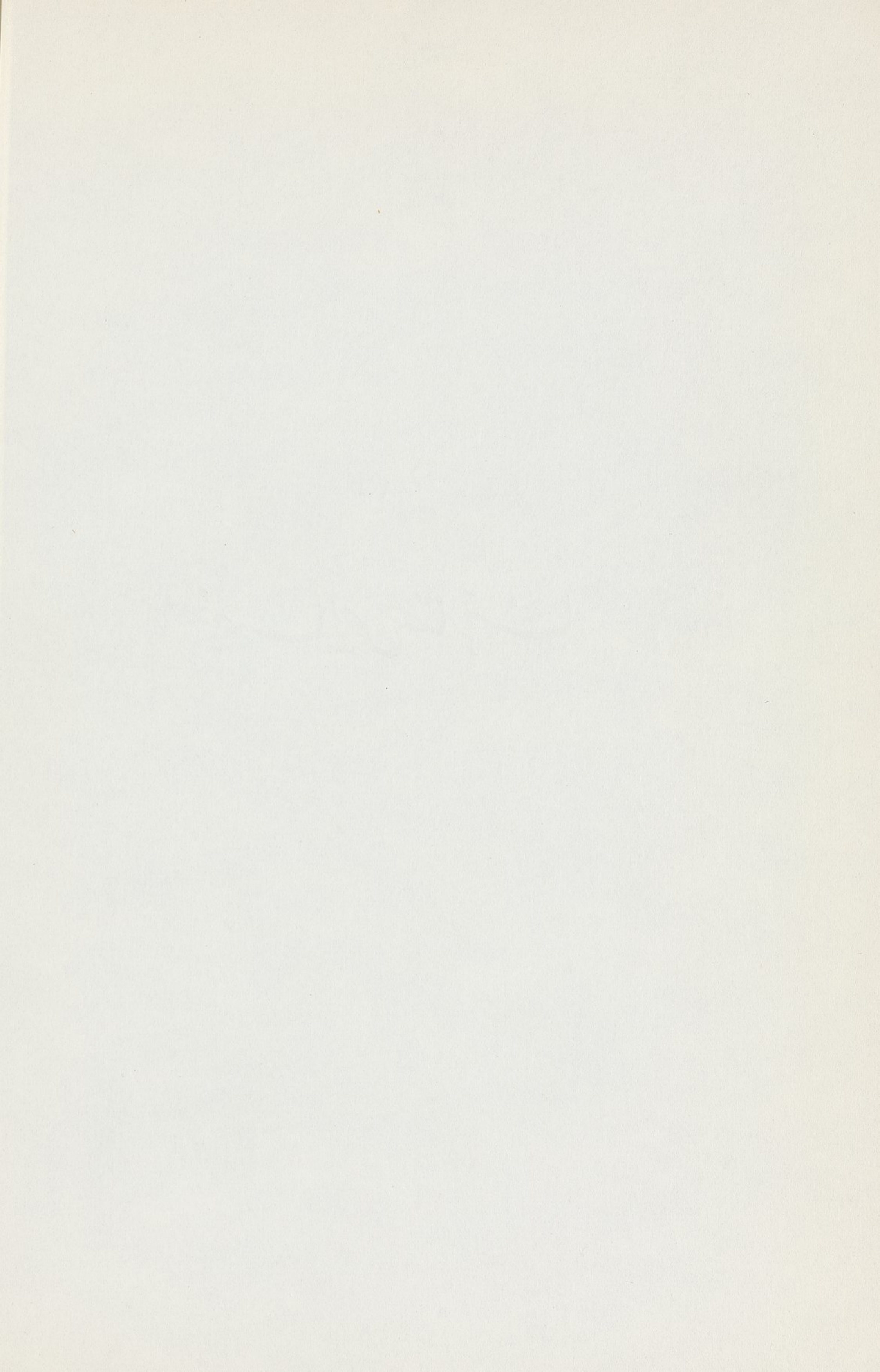
والله من وراء القصد وهو ولي التوفيق .

**مصطفى حسني السباعي**



-١-

# خصائص حضارتنا



يعرّف الحضارة بعض الكاتبين في تاريخها بأنها «نظام اجتماعي يعين الانسان على الزيادة من انتاجه الثقافي» وتتألف الحضارة من العناصر الأربعة الرئيسية : الموارد الاقتصادية ، والنظم السياسية ، والتقاليد الخلقية ، ومتابعة العلوم والفنون • ولاطراد الحضارة وتقدمها عوامل متعددة من جغرافيةواقتصادية ونفسيةكالدين واللغة والتربية ، ولانهيارها عوامل هي عكس تلك العوامل التي تؤدي الى قيامها وتطورها ، ومن أهمها الانحلال الخلقي والفكري ، واضطراب القوانين والانظمة ، وشيوع الظلم والفقر ، وانتشار التشاؤم أو اللامبالاة ، وفقدان الموجهين الاكفاء والزعماء المخلصين ••• وقصة الحضارة تبدأ منذ عرف الانسان معنى الاستقرار والطمأنينة في الارض ، وهي حلقة متصلة تسلمها الامة المتحضرة الى من بعدها ، ولا تختص بأرض ولا عرق ، وانما تنشأ من العوامل السابقة التي ذكرناها • وتكاد لا تخلو امة من تسجيل بعض الصفحات في تاريخ الحضارة ، غير أن ما تمتاز به حضارة عن حضارة انما هو قوة الاسس التي تقوم عليها ، والتأثير الكبير الذي يكون لها ، والخير العميم الذي يصيب الانسانية من قيامها ، وكلما كانت الحضارة عالمية في رسالتها ، انسانية في نزعتها ، خلقية في اتجاهاتها ، واقعية في مبادئها ، كانت أخلد في التاريخ ، وأبقى على الزمن ، وأجدر بالتكريم •

وحضارتنا حلقة من سلسلة الحضارات الانسانية، سبقتها حضارات، وستتبعها حضارات • وقد كان لقيام حضارتنا عوامل ، ولانهيارها

أسباب ، ليست هي مما تعنيه هذه السلسلة من احاديثنا ، وانما نريد قبل ان نبدأ الحديث عن روائع هذه الحضارة ، ان نتحدث عن دورها الخطير في تاريخ التقدم الانساني ، ومدى ما قدمته في ميدان العقيدة والعلم والخلق والحكم والفن والادب من أياد خالدة على الانسانية في مختلف شعوبها وأقطارها .

ان أبرز ما يلفت نظر الدارس لحضارتنا انها تميزت بالخصائص التالية :

١ — انها قامت على اساس الوحدانية المطلقة في العقيدة ، فهي أول حضارة تنادي بالإله الواحد الذي لا شريك له في حكمه وملكه ، هو وحده الذي يعبد ، وهو وحده الذي يقصد « **اياك نعبد واياك نستعين** » وهو الذي يعز ويذل ويعطي ويمنح ، وما من شيىء في السموات والارض الا وهو تحت قدرته وفي متناول قبضته .

هذا السمو في فهم الوحدانية كان له أثر كبير في رفع مستوى الانسان وتحرير الجماهير من طغيان الملوك والاشراف والاقوياء ورجال الدين ، وتصحيح العلاقة بين الحاكمين والمحكومين ، وتوجيه الانظار الى الله وحده وهو خالق الخلق ورب العالمين .. كما كان لهذه العقيدة أثر كبير في الحضارة الاسلامية تكاد تتميز به عن كل الحضارات السابقة واللاحقة ، وهي خلوها من كل مظاهر الوثنية وآدابها وفلسفتها في العقيدة والحكم والفن والشعر والادب ، وهذا هو سر إعراض الحضارة الاسلامية عن ترجمة الالياذة وروائع الادب اليوناني الوثني ، وهو سر تقصير الحضارة الاسلامية في فنون النحت والتصوير مع تبريزها في فنون النقش والحفر وزخرفة البناء . ان الاسلام الذي أعلن الحرب

العوان على الوثنية ومظاهرها لم يسمح لحضارته أن تقوم فيها مظاهر الوثنية وبقاياها المستمرة من اقدم عصور التاريخ ، كتماثيل العظماء والصالحين والانبياء والفاتحين . وقد كانت التماثيل من ابرز مظاهر الحضارات القديمة والحضارة الحديثة لأن واحدة منها لم تذهب في عقيدة الوحدانية الى المدى الذي وصلت اليه الحضارة الاسلامية .

وهذه الوحدة في العقيدة تطبع كل الاسس والنظم التي جاءت بها حضارتنا ، فهنالك الوحدة في الرسالة ، والوحدة في التشريع، والوحدة في الاهداف العامة ، والوحدة في الكيان الانساني العام ، والوحدة في وسائل المعيشة وطراز التفكير ، حتى ان الباحثين في الفنون الاسلامية قد لحظوا وحدة الاسلوب والذوق في انواعها المختلفة ، فقطعه من العاج الاندلسي ، واخرى من النسيج المصري ، وثالثة من الخزف الشامي، ورابعة من المعادن الايرانية، تبدو رغم تنوع اشكالها وزخرفتها ذات اسلوب واحد وطابع واحد .

٢ — وثاني خصائص حضارتنا انها انسانية النزعة والهدف ، عالمية الافق والرسالة ، فالقرآن الذي اعلن وحدة النوع الانساني رغم تنوع اعراقه ومنابته ومواطنه ، في قوله تعالى (( **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله اتقاكم** (١) )) ان القرآن حين أعلن هذه الوحدة الانسانية العالمية على صعيد الحق والخير والكرامة جعل حضارته عقدا تنتظم فيه جميع العبقريات للشعوب والامم التي خفقت فوقها راية الفتوحات الاسلامية، ولذلك كانت كل حضارة تستطيع ان تفاخر بالعباقرة من ابناء جنس

(١) الحجرات : ١٣

واحد وامة واحدة ، الا الحضارة الاسلامية فانها تفاخر بالعباقرة الذين اقاموا صرحها من جميع الامم والشعوب ، فأبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والخليل وسيبويه والكندي والغزالي والفارابي وابن رشد وأمثالهم ممن أختلفت اصولهم وتباينت اوطانهم ، ليسوا الا عباقرة قدمت فيهم الحضارة الاسلامية الى الانسانية اروع نتاج الفكر الانساني السليم .

٣ — وثالث خصائص حضارتنا انها جعلت للمبادىء الاخلاقية المحل الاول في كل نظمها ومختلف ميادين نشاطها ، وهي لم تتخل عن هذه المبادىء قط ، ولم تجعلها وسيلة لمنفعة دولة او جماعة او افراد .. ففي الحكم ، وفي العلم ، وفي التشريع ، وفي الحرب ، وفي السلم ، وفي الاقتصاد ، وفي الاسرة .. روعيت المبادىء الاخلاقية تشريعا وتطبيقا ، وبلغت في ذلك شأوا ساميا بعيدا لم تبلغه حضارة في القديم والحديث ، ولقد تركت الحضارة الاسلامية في ذلك آثارا تستحق الاعجاب وتجعلها وحدها من بين الحضارات التي كفلت سعادة الانسانية سعادة خالصة لا يشوبها شقاء ..

٤ — ورابع هذه الخصائص أنها تؤمن بالعلم في اصدق اصوله ، وترتكز على العقيدة في اصفى مبادئها ، فهي خاطبت العقل والقلب معا ، وأثارت العاطفة والفكر في وقت واحد . وهي ميزة لم تشاركها فيها حضارة في التاريخ . وسر العجب في هذه الخاصة من خصائص حضارتنا انها استطاعت ان تنشىء نظاما للدولة قائما على مبادىء الحق والعدالة ، مرتكزا الى الدين والعقيدة دون أن يقيم الدين عائقا ما دون رقي الدولة واطراد الحضارة ، بل كان الدين من اكبر عوامل الرقي فيها ، فمن بين

جدران المساجد في بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وغرناطة انطلقت اشعة العلم الى انحاء الدنيا قاطبة . ان الحضارة الاسلامية هي الوحيدة التي لم يفصل فيها الدين عن الدولة مع نجاتهـا من كل مآسي المزج بينهما كما عرفته اوروبا في القرون الوسطى . لقد كان رئيس الدولة خليفة وأميرا للمؤمنين ، لكن الحكم عنده للحق ، والتشريع للمختصين فيه ، ولكل فئة من العلماء اختصاصهم والجميع يتساوون أمام القانون، والتفاضل بالتقوى والخدمة العامة للناس « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها[1] » « الخلق كلهم عيال الله فأحبهم اليه أنفعهم لعياله [2] » هذا هو الدين الذي قامت عليه حضارتنا ، ليس فيه امتياز لرئيس ولالرجل دين ولا لشريف ولا لغني.. « **قل انما انا بشر مثلكم** [3]

٥ — وآخر ما نذكره من خصائص حضارتنا هذا التسامح الديني العجيب الذي لم تعرفـه حضارة مثلها قامت على الـدين . ان الذي لا يؤمن بدين ولا بإله ، لا يبدو عجيبا اذا نظر الى الاديان كلها على حد سواء ، واذا عامل اتباعها بالقسطاس المستقيم ، ولكن صاحب الدين الذي يؤمن بأن دينه حق وأن عقيدته أقوم العقائد وأصحها ، ثم يتاح له أن يحمل السيف ، ويفتح المدن ، ويستولي على الحكم ، ويجلس على منصة القضاء ، ثم لا يحمله ايمانه بدينه ، واعتزازه بعقيدته ، على ان يجور في الحكم ، أو ينحرف عن سنن العدالة ، أو يحمل الناس على اتباع دينه .. ان رجلا مثل هذا لعجيب ان يكون في التاريخ، فكيف اذا وجد في التاريخ حضارة قامت على الدين وشادت قواعدها على مبادئه

---

(١) رواه البخاري ومسلم (٢) رواه البزار

(٣) سورة الكهف ١١٠

ثم هي من أشد ما عرف التاريخ تسامحا وعدالة ورحمة وانسانية ! ..
هذا ما صنعته حضارتنا وسنجد له عشرات الامثلة فيما نذكره في احاديثنا المقبلة . وحسبنا ان نعرف ان حضارتنا تنفرد في التاريـخ بأن الذي اقامها دين واحد ولكنها كانت للاديان جميعا .

هذه هي بعض خصائص حضارتنا وميزاتها في تاريخ الحضارات ، ولقد كانت بذلك محل اعجاب العالم ، ومهوى افئدة الاحرار والاذكياء من كل جنس ودين .. يوم كانت قوية تحكم وتوجه وتهذب وتعلم .. فلما انهارت وقامت من بعدها حضارة أخرى ، اختلفت الانظار في تقدير قيمة حضارتنا ، فمن مزر بها ومن معجب ، ومن متحدث عن فضائلها ، ومن مبالغ في الانتقاص منها ، هكذا تختلف انظار البـاحثين الغربيين اليوم في حضارتنا ، وما كانوا ليفعلوا ذلك لولا انهم وهم الذين بيدهم مقاييس الحكم وعنهم تؤخذ الآراء ، هم الاقوياء الذين يمسكون بدفة الحضارة اليوم ، وان الذين يحكم عليهم وعلى حضارتهم هم الضعفاء الذين تتطلع أبصار الاقوياء الى استلاب خيراتهم وحكم بلادهم بشره وجشع ، ولعله هو موقف القوي من الضعيف يزري به وينتقص قدره.. كذلك فعل الاقوياء في كل عصور التاريخ ، الا نحن يوم كنا اقوياء ، فقد انصفنا الناس قويهم وضعيفهم ، وعرفنـا الفضل لأهلـه شرقيهم وغربيهم ، ومن مثلنا في التاريخ : عدالة حكم ، ونزاهة قصد ، واستقامة ضمير ؟ ..

ومن المؤسف اننا لم نتنبه تماماً لعصبية الاقوياء ضدنا وجورهم في الحكم على حضارتنا ، وكثير منهم اما متعصب لدين اعمت العصبية بصره عن رؤية الحق ، او متعصب لقومية ، حمله كبرياء القومية على

ان لا يعترف لغير امته بالفضل ، ولكن ما عذرنا نحن في تأثرنا بآرائهم في حضارتنا ؟ فيم يزري بعض الناس من ابناء امتنا بهذه الحضارة التي ركعت الدنيا امام قدميها بضعة قرون ؟ ..

لعل حجة المستخفين من قومنا بقيمة حضارتنا انها ليست شيئا اذا قيست بروائع هذه الحضارة الحديثة واختراعاتها وفتوحاتها في آفاق العلم الحديث . وهذا لو صح لا يبرر الاستخفاف بحضارتنا لسببين :

**الاول** — ان كل حضارة فيها عنصران : عنصر روحي اخلاقي ، وعنصر مادي ،

أما العنصر المادي فلا شك في ان كل حضارة متأخرة تفوق ماسبقها، تلك هي سنة الله في تطور الحياة ووسائلها ، ومن العبث ان تطالب الحضارة السابقة بما وصلت اليه الحضارة اللاحقة ، ولو جاز هذا لجاز لنا ان نزري بكل الحضارات التي سبقت حضارتنا ، لما ابتدعته حضارتنا من وسائل الحياة ومظاهر الحضارة مالم تعرفه الحضارات السابقة قط ، فالعنصر المادي في الحضارات ليس هو اساس التفاضل بينها دائما وأبدا.

وأما العنصر الاخلاقي والروحي فهو الذي تخلد به الحضارات ، وتؤدي به رسالتها من اسعاد الانسانية وابعادها عن المخاوف والآلام ، ولقد سبقت حضارتنا كل الحضارات السابقة واللاحقة في هذا الميدان ، وبلغت فيه شأواً لا نظير له في أي عصر من عصور التاريخ ، وحسب حضارتنا بهذا خلودا .

ان الغاية من هذه الحضارة هي ان تقرب الانسان من ذروة السعادة، وقد عملت لذلك حضارتنا ما لم تعمله حضارة في الشرق والغرب .

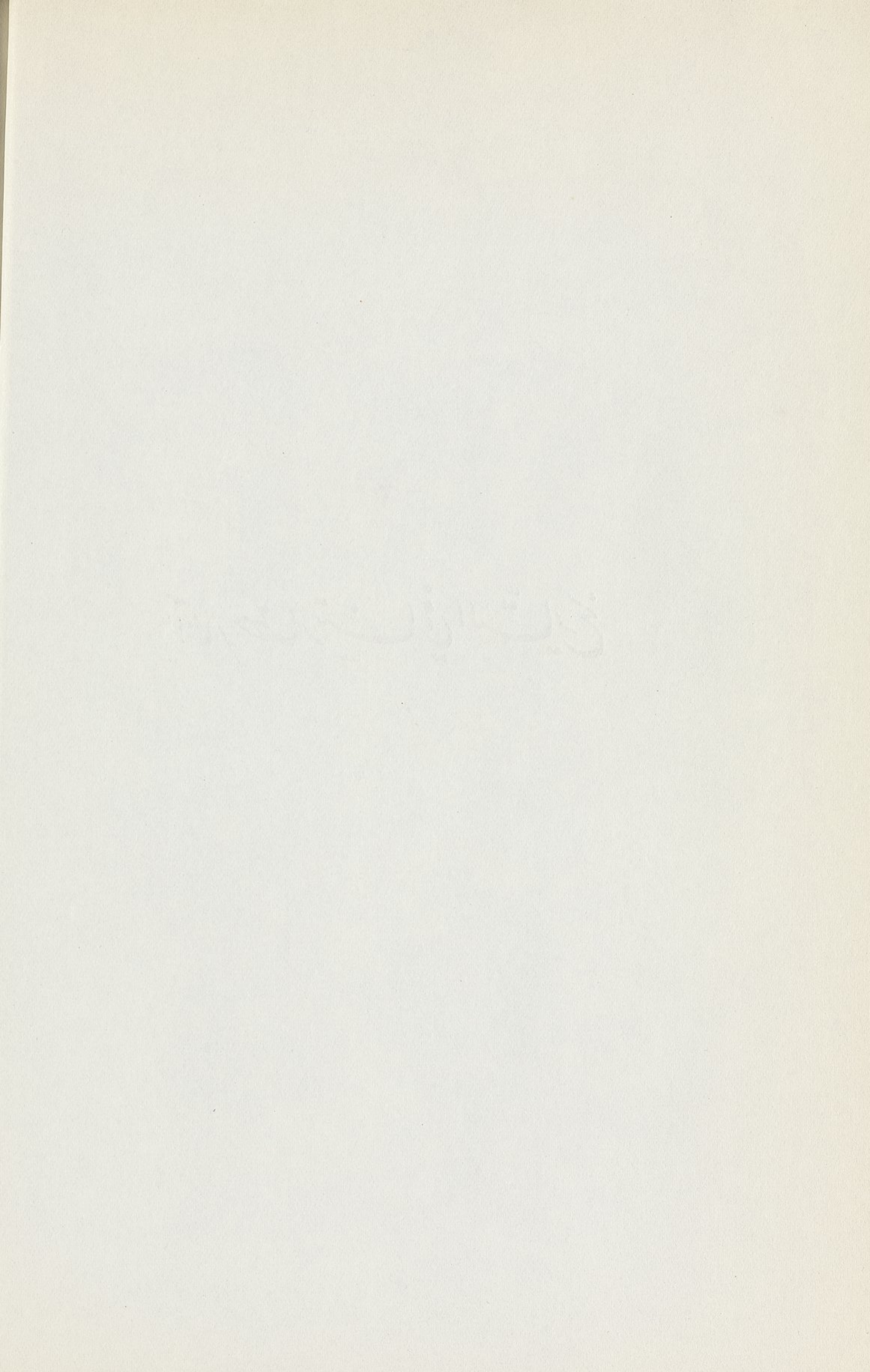
**الثاني** ـــ ان الحضارات لا يقارن بينها بالمقياس المادي ، ولا بالكمية في الاعداد والمساحات ، ولا بالترف المادي في المعيشة والمأكل والملبس، وانما يقارن بينها بالآثار التي تتركها في تاريخ الانسانيـة ، شأنها في ذلك شأن المعارك والممالك ، فهي لا تقارن بينها بسعة الرقعة ولا بحساب العدد ، والمعارك الفاصلة في التاريخ القديم والوسيط لو قيست بمعارك الحرب العالمية الثانية من حيث اعداد الجيوش ووسائل القتال لكانت شيئا تافها ، ولكنها لا تزال تعتبر معارك لها قيمتها البالغة في التاريخ لما كان لها من الآثار البعيدة • ان معركة « كاني » التي هزم فيها القائد القرطاجي الشهير « هنيبال » الرومانيين هزيمة منكرة لا تزال من المعارك التي تدرس في المدارس العسكرية في اوروبا حتى الآن • وان معارك خالد بن الوليد في فتوح العراق والشام لا تزال محل دراسة العسكريين الغربيين واعجابهم ، وهي عندنا من الصفحات الذهبيـة في تاريـخ الفتوحات العسكرية في حضارتنا • ومع هذا فما كان قدم معركة كاني أو معركة بدر أو معركة القادسية أو حطين ليحول دون النظر اليها على انها معارك فاصلة في التاريخ •

* * *

وبعد فاعتقد اني قد بلغت ما أريـد من لفت الانظار الى دراسة حضارتنا وان لم ابلغ ما اريد من توفية هذا البحث حقه ، وحسبي ان اعرض في الاحاديث التالية نماذج من روائع حضارتنا نستدل بها على خلود الحضارة التي شادتها الامة التي وصفها اعدل حاكم وأصدق قائل بأنها خير أمة أخرجت للناس •

— ٢ —

# آثار حضارتنا في التاريخ



تكلمنا في الحديث الماضي عن الخصائص البارزة لحضارتنا ، وقلنا إن الحضارات انما تخلد بمقدار ما تقدمه في تاريخ الانسانية من آثار خالدة في مختلف النواحي الفكرية والخلقية والمادية ، وإن حضارتنا لعبت دورا خطيرا في تاريخ التقدم الانساني ، وتركت في ميادين العقيدة والعلم والحكم والفلسفة والفن والأدب وغيرها آثاراً بعيدة المدى قوية التأثير فيما وصلت اليه الحضارة الحديثة ، فما هي هذه الآثار ؟ وما هي أهميتها ؟ .

نستطيع ان نجمل الآثار الخالدة لحضارتنا في ميادين خمسة رئيسية:

**اولها ــ في ميدان العقيدة والدين**. فقد كان لمبادي الحضارة الاسلامية أثر كبير في حركات الاصلاح الدينية التي قامت في أوروبا منذ القرن السابع حتى عصر النهضة الحديثة ، فالاسلام الذي أعلن وحدة الله وانفراده بالسلطان وتنزيهه عن التجسيم والظلم والنقص ، كما أعلن استقلال الانسان في عبادته وصلته مع الله وفهمه لشرائعه دون وساطة رجال الدين ، كان عاملا كبيرا في تفتح اذهان الشعوب الى هذه المبادىء القوية الرائعة ، وقد كانت الشعوب يومئذ ترسف في اغلال من الخصام المذهبي العنيف والخضوع لسلطان رجال الدين على افكارهم وآرائهم وأموالهم وأبدانهم ! فمن الطبيعي وقد وصلت فتوحاته في الشرق والغرب الى ما وصلت اليه ، أن تتأثر الأمم المجاورة له بمبادئه في العقيدة قبل كل شيء . وهذا ما حدث فعلا ، اذ قام في القرن السابع الميلادي في الغربيين من ينكر عبادة الصور ، ثم قام من

بعدهم من ينكر الوساطة بين الله وعباده ، ويدعو الى الاستقلال في فهم الكتب المقدسة بعيداً عن سلطان رجال الدين ومراقبتهم . ويؤكد كثير من الباحثين أن لوثر في حركته الاصلاحيـة كان متأثرا بما قرأه للفلاسفة العرب والعلماء المسلمين من آراء في الدين والعقيدة والوحي، وقد كانت الجامعات الاروبية في عصره لا تزال تعتمد على كتب الفلاسفة المسلمين التي ترجمت منذ عهد بعيد الى اللاتينية، ونستطيع أن نؤكد بأن حركة الفصل بين الدين والدولة التي أعلنت في الثورة الفرنسية كانت وليد الحركات الفكرية العنيفة التي سادت أوروبا ثلاثة قرون أو أكثر ، وكان لحضارتنا فضل في ايقـاد جذوتها عن طريق الحروب الصليبية والاندلس .

**ثانيها – في ميدان الفلسفة والعلوم** من طب ورياضيـات وكيميـاء وجغرافيا وفلك . فلقد أفاقت اوروبا على صوت علمائنا وفلاسفتنـا يدرسون هذه العلوم في مساجد اشبيلية وقرطبة وغرناطـة وغيرها ، وكان رواد الغربيين الأول الى مدارسنا شديـدي الاعجاب والشغف بكل ما يستمعون إليه من هذه العلوم في جو من الحرية لا يعرفون له مثيلا في بلادهم . ففي الوقت الذي كان فيـه علماؤنا يتحـدثون في حلقاتهم العلمية ومؤلفاتهم عن دوران الارض وكرويتها وحركات الافلاك والاجرام السماوية كانت عقول الاروبيين تمتلىء بالخرافات والاوهام عن هذه الحقائق كلها ! ومن ثم ابتدأت عند الغربيين حركة الترجمة من العربية الى اللاتينية وغدت كتب علمائنا تدرس في الجامعات الغربية . فقد تُرجم كتاب (القانون) في الطب لابن سينا في القرن الثاني عشر ، كما ترجم كتاب (الحاوي) للرازي وهو أوسع من القانون وأضخم، في

نهاية القرن الثالث عشر ، وظل هذان الكتابان عمدة لتدريس الطب في الجامعات الاوروبية حتى القرن السادس عشر ، أما كتب الفلسفة فقد استمرت أكثر من ذلك ، ولم يعرف الغرب فلسفة اليونان إلا عن طريق مؤلفاتنا وترجماتنا . ومن هنا يعترف كثير من الغربيين المنصفين بأننا كنا في القرون الوسطى اساتذة اوروبا مدة لا تقل عن ستمائة سنة . قال العلامة غوستاف لوبون : « ظلت ترجمات كتب العرب ولا سيماالكتب العلمية المصدر الوحيد تقريبا للتدريس في جامعات اوروبا خمسة قرون او ستة قرون ، ويمكننا ان نقول إن تأثير العرب في بعض العلوم كعلم الطب مثلا دام الى أيامنا ، فقد شرحت كتب ابن سينا في مونبلييه في اواخر القرن الماضي » ، ويقول هذا العالم أيضا : « على كتب العرب وحدها عوّل روجر بيكون وليونارد البيزي وأرنو الفيلفوفي وريمون لول وسان ثوما وألبرت الكبير والاذفونش العاشر القشتالي .. قال مسيو رينان : ان البرت الكبير مدين لابن سينا ، وسان توما مدين في فلسفته لابن رشد ، ويقول العلامة المستشرق سيديو : كان العرب وحدهم حاملين لواء الحضارة في القرون الوسطى فدحروا بربرية أوروبا التي زلزلتها غارات قبائل الشمال وسار العرب الى « منابع فلسفة اليونان الخالدة » فلم يقفوا عند حد ما اكتسبوه من كنوز المعرفة بل وسعوه وفتحوا ابوابا جديدة لدرس الطبيعة» ، ويقول أيضا : « والعرب حين زاولوا علم الهيأة عنوا عناية خاصة بالعلوم الرياضية كلها فكان لهم فيها القدح المعلّى ، فكانوا اساتذة لنا في هذا المضمار بالحقيقة » ويقول : « واذا بحثنا فيما اقتبسه اللاتين من العرب في بدء الامر وجدنا أن جربرت الذي اضحى بابا باسم سلفستر الثاني ادخل الينا بين

سنة ٩٧٠ وسنة ٩٨٠ ما تعلمه في الاندلس من المعارف الرياضية ، وأن اوهيلارد الانجليزي طاف بين سنة ١١٠٠ وسنة ١١٢٨ في الاندلس ومصر فترجم من العربية كتاب « الاركان » لاقليدس الذي كان الغرب يجهله ، وأن افلاطون التيقولي ترجم من العربية كتاب « الأُكَر » لثاذوسيوس ، وأن رودلف البروجي ترجم من العربية كتاب الجغرافيا في المعمور من الارض « لبطليموس » وأن ليونارد البيزي ألف حوالي سنة ١٢٠٠ رسالة في الجبر الذي تعلمه من العرب ، وأن كنيانوس النبرى ترجم عن العرب في القرن الثالث عشر كتاب اقليدس ترجمة جيدة شارحا له ، وأن قيتليون البولوني ترجم كتاب البصريات للحسن بن الهيثم في ذلك القرن ، وأن جيرارد الكريموني اذاع في ذلك القرن ايضا علم الفلك الحقيقي المتين بترجمته المجسطي لبطليموس والشرح لجابر الخ .. ، وفي سنة ١٢٥٠ امر الاذفونش القشتالي بنشر الازياج الفلكية التي تحمل اسمه ، واذا كان روجر الاول قد شجع على تحصيل علوم العرب في صقلية ولا سيما كتب الادريسي ، فان الامبراطور فردريك الثاني لم يبد أقل حضا على دراسة علوم العرب وآدابهم ، وكان ابناء ابن رشد يقيمون ببلاط هذا الامبراطور ، فيعلمونه تاريخ النباتات والحيوانات الطبيعي . ويقول هومبلد في كتابه عن الكون : والعرب هم الذين اوجدوا الصيدلية الكيماوية ، ومن العرب أتت الوصايا المحكمة الاولى التي انتحلتها مدرسة « ساليرم » فانتشرت في جنوب اوروبا بعد زمن ، وأدت الصيدلة ومادة الطب اللتان يقوم عليهما فن الشفاء الى دراسة علم النبات والكيمياء في وقت واحد ومن طريقين مختلفين ، وبالعرب فتح عهد جديد لذلك العلم . وأوجبت خبرة العرب

بالعالم النباتي اضافتهم الى اعشاب ذليفوريدس ألفي نبات ، واشتمال صيدليتهم على عدة اعشاب كان يجهلها الاغريق جهلا تاما . ويقول سيديو عن الرازي وابن سينا بأنهما سيطرا بكتبهما على مدارس الغرب زمنا طويلا . وعرف ابن سينا في اوروبا طبيبا فكان له على مدارسها سلطان مطلق مدة ستة قرون تقريبا فترجم كتابه « القانون » المشتمل على خمسة اجزاء فطبع عدة مرات ، لعده اساساً للدراسات في جامعات فرنسة وايطاليا » .

**ثالثها — في ميدان اللغة والادب** ، فقد تأثر الغربيون وخاصة شعراء الاسبان بالأدب العربي تأثراً كبيراً ، فقد دخل أدب الفروسية والحماسة والمجاز والتخيلات الراقية البديعة الى الآداب الغربية عن طريق الادب العربي في الاندلس على الخصوص. يقول الكاتب الاسباني المشهور ابانيز : « إن اوروبة لم تكن تعرف الفروسية ولا تدين بآدابها المرعية ولا نخوتها الحماسية قبل وفود العرب الى الاندلس وانتشار فرسانهم وأبطالهم في أقطار الجنوب » ، ويدلنا على مدى تأثر الادباء الغربيين بالعربية وآدابها في تلك العصور ما نقله لنا « دوزي » في كتابه عن الاسلام من رسالة ذلك الكاتب الاسباني ( الغارو ) الذي كان يأسى أشد الاسى لاهمال لغة اللاتين والاغريق والاقبال على لغة المسلمين ، فيقول : « إن أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الادب العربي فاحتقروا اللاتينية ، وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها ، وساء ذلك معاصرا كان على نصيب من النخوة الوطنية أوفى من نصيب معاصريه فأسف لذلك مرّ الاسف وكتب يقول : إن اخواني المسيحيين يعجبون بشعر العرب وأقاصيصهم ، ويدرسون التصانيف التي كتبها

الفلاسفة والفقهاء المسلمون ، ولا يفعلون ذلك لإدحاضها والرد عليها بل لاقتباس الاسلوب العربي الفصيح ، فأين اليوم ـ من غير رجال الدين ـ من يقرأ التفاسير الدينية للتوراة والانجيل ؟ وأين اليوم من يقرأ الاناجيل وصحف الرسل والانبياء ؟ واأسفاه ! ان الجيل الناشىء من المسيحيين الاذكياء لا يحسنون أدبا أو لغة غير الأدب العربي واللغة العربية ، وانهم ليلتهمون كتب العرب ويجمعون منها المكتبات الكبيرة بأغلى الاثمان ويترنمون في كل مكان بالثناء على الذخائر العربية ، في حين يسمعون بالكتب المسيحية فيأنفون من الاصغاء اليها محتجين بأنها شيء لا يستحق منهم مؤونة الالتفات ، فيا للأسى ! ان المسيحيين قد نسوا لغتهم فلن تجد فيهم اليوم واحدا في كل الف يكتب بها خطابا الى صديق ، أما لغة العرب فما أكثر الذين يحسنون التعبير بها على أحسن اسلوب ، وقد ينظمون بها شعرا يفوق شعر العرب انفسهم في الاناقة وصحة الأداء » .

ومن عباقرة الادب في اوروبا في القرن الرابع عشر وما بعده من لا شك ابدا في تأثير الآداب العربية على قصصهم وآدابهم ، ففي سنة ١٣٤٩ كتب بوكاشيو حكاياته المسماة بالصباحات العشرة وهي تحذو حذو الف ليلة وليلة ، ومنها اقتبس شكسبير موضوع مسرحيته « العبرة بالخواتيم » كما اقتبس « لسنغ » الالماني مسرحيته « ناتان الحكيم » .

وكان « شوسر » امام الشعر الحديث في اللغة الانجليزية أكبر المقتبسين من بوكاشيو في زمانه فقد لقيه في ايطاليا ونظم بعد ذلك قصصه المشهورة باسم « حكايات كانتربري » .

أما « دانتي » فيؤكد كثير من النقاد أنه كان في « القصة الالهية »

التي يصف فيها رحلته الى العالم الاخر متأثرا برسالة الغفران للمعري ووصف الجنة لابن عربي ، ذلك أنه أقام في صقلية على عهد الامبراطور « فردريك الثاني » الذي كان مولعا بالثقافة الاسلامية ودراستها في مصادرها العربية ، وقد دارت بينه وبين دانتي مساجلات في مذهب ارسطو كان بعضها مستمداً من الأصل العربي ، وكان دانتي يعرف شيئاً غير قليل من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فاطلع منها على قصة المعراج والاسراء ووصف السماء .

اما « بترارك » فقد عاش في عصر الثقافة العربية بايطاليا وفرنسا ، وطلب العلم في جامعتي « مونبلييه » و « باريس » وكلتاهما قامتا على مؤلفات العرب وتلاميذهم في الجامعات الاندلسية .

وقد تأثرت القصة الاوروبية في نشأتها بما كان عند العرب من فنون القصص في القرون الوسطى ، وهي المقامات وأخبار الفروسية ومغامرات الفرسان في سبيل المجد والعشق ، وكان لألف ليلة وليلة بعد ترجمتها الى اللغات الاوروبية في القرن الثاني عشر أثر كبير جداً في هذا المجال حتى انها طبعت منذ ذلك الحين حتى الآن اكثر من ثلاثمائة طبعة في جميع لغات اوروبا ، حتى ليرى عدد من النقاد الاوروبيين ان رحلات « جليڤر » التي الفها « سويفت » ورحلة « روبنسون كروزو » التي الفها «ديفوه» مدينة لألف ليلة وليلة ولرسالة حي بن يقظان للفيلسوف العربي ابن طفيل .

ولا يشك احد في ان هذه الكثرة الهائلة لطبعات « الف ليلة وليلة» دليل على اقبال الغربيين على قراءتها ومن ثم على تأثرهم بها .

ولا حاجة بنا الى أن نذكر ما دخل اللغات الاوروبية على اختلافها

من كلمات عربية في مختلف نواحي الحياة حتى انها لتكاد تكون كما هي في اللغة العربية، كالقطن، والحرير الدمشقي، والمسك ، والشراب ، والجرة ، والليمون ، والصِّفر ، وغير ذلك مما لا يحصى ..

وحسبنا في هذا المقام قول للاستاذ ماكييل « كانت اوروبا مدينة بأدبها الروائي الى بلاد العرب ، والى الشعوب العربية الساكنة في النجد العربي السوري تدين بأكبر قسم او بالدرجة الرئيسية لتلك القوى النشيطة التي جعلت القرون الوسطى الأوروبية مختلفة روحاً وخيالاً عن العالم الذي كان يخضع لروحه .

**رابعها ـ في ميدان التشريع** ، فقد كان لاتصال الطلاب الغربيين بالمدارس الاسلامية في الاندلس وغيرها أثر كبير في نقل مجموعة من الأحكام الفقهية والتشريعية الى لغاتهم ، ولم تكن اوروبا في ذلك الحين على نظام متقن ولا قوانين عادلة . حتى اذا كان عهد نابليون في مصر ترجم أشهر كتب الفقه المالكي الى اللغة الفرنسية ، ومن اوائل هذه الكتب « كتاب خليل » الذي كان نواة القانون المدني الفرنسي وقد جاء متشابها الى حد كبير مع احكام الفقه المالكي ، يقول العلامة سيديو: « والمذهب المالكي هو الذي يستوقف نظرنا على الخصوص لما لنا من الصلات بعرب افريقية ، وعهدت الحكومة الفرنسية الى الدكتور بيرون في ان يترجم الى الفرنسية كتاب المختصر في الفقه للخليل بن اسحاق ابن يعقوب المتوفى سنة ١٤٢٢ م » .

**خامسها ـ في مفهوم الدولة وعلاقة الشعب بالحكومة** ، فقد كان العالم القديم والوسيط ينكر على الشعب حقه في الاشراف على اعمال حكامه ، كما يجعلون الصلة بينه وبين الحاكم صلة بين العبد وسيده ،

فالحاكم هو السيد المطلق يتصرف بالشعب كما يشاء ، وكانت المملكة تعتبر ملكاً خاصاً للملك تورث عنه كما تورث بقية أمواله ، ويستبيحون من أجل ذلك ان تقوم الحرب بين دولة وأخرى من أجل المطالبة بحصة أميرة في العرش أو للخلاف على ميراث الاصهار !

أما العلاقة بين الأمم المتحاربة فهي استباحة الغالب لكل ما في يد المغلوب وما في وطنه من مال وعرض وحرية وكرامة ، وظل الأمر كذلك حتى قامت الحضارة الاسلامية تعلن فيما تعلن من مبادئها أن الشعب هو صاحب الحق في الاشراف على حكامه وأن هؤلاء ليسوا الا أجراء يسهرون على مصالح الشعب وكرامته بأمانة ونزاهة ، وفي هذا يقع لأول مرة في التاريخ أن يحاسب فرد من افراد الشعب حاكمه عما يلبس، من أين جاء به ، فلا يحكم عليه بالاعدام، ولا يقاد الى السجن، ولا ينفى من الارض ، ولكن يقدم له الحاكم حسابه حتى يقتنع ويقتنع الناس ! ولأول مرة في التاريخ يقول احد افراد الرعية لحاكمه الاكبر : السلام عليك أيها الأجير ! فيعترف الحاكم بأنه اجير الشعب ، عليه ما على الاجير من حق الخدمة باخلاص ، والنصح بأمانة . اعلنت الحضارة الاسلامية هذا فيما اعلنته وطبقته بعد ذلك ، فما هي الا نسمة الحرية والوعي تهب في الشعوب المجاورة للمجتمع الاسلامي فتتململ ثم تتحرك ثم تثور ثم تتحرر . وهذا ما وقع في اوروبا ، فلقد جاء الغربيون الى بلاد الشام في الحروب الصليبية ورأوا من قبل في ممالك الخلافة الاندلسية أن الشعوب تراقب حكامها وأن الحكام لا تخضع لاشراف احد غير شعبها، وقارن الملوك الغربيون بين تحرر ملوك العرب والمسلمين من سلطان أية طبقة إلا مجموع الشعب ، وبين خضوعهم هم لسلطان روما وتخويفهم

بالحرمان والطرد بين ساعة وأخرى اذا لم يقدموا خضوعهم لملك روما الديني ! فثاروا بعد رجوعهم الى بلادهم حتى تحرروا ثم ثارت شعوبهم عليهم حتى تحررت . وكانت الثورة الفرنسية بعد ذلك فلم تعلن من المبادىء أكثر مما أعلنته حضارتنا قبل اثني عشر قرنا !

وكان مما اعلنته حضارتنا في حروبها احترام العهود ، وصيانة العقائد ، وترك المعابد لأهلها ، وضمان حريات الناس وكرامتهم ، فأثارت في الشعوب المغلوبة لحكمها روح العزة والكرامة ، ونبهت فيهم معاني الانسانية الكريمة العزيزة .

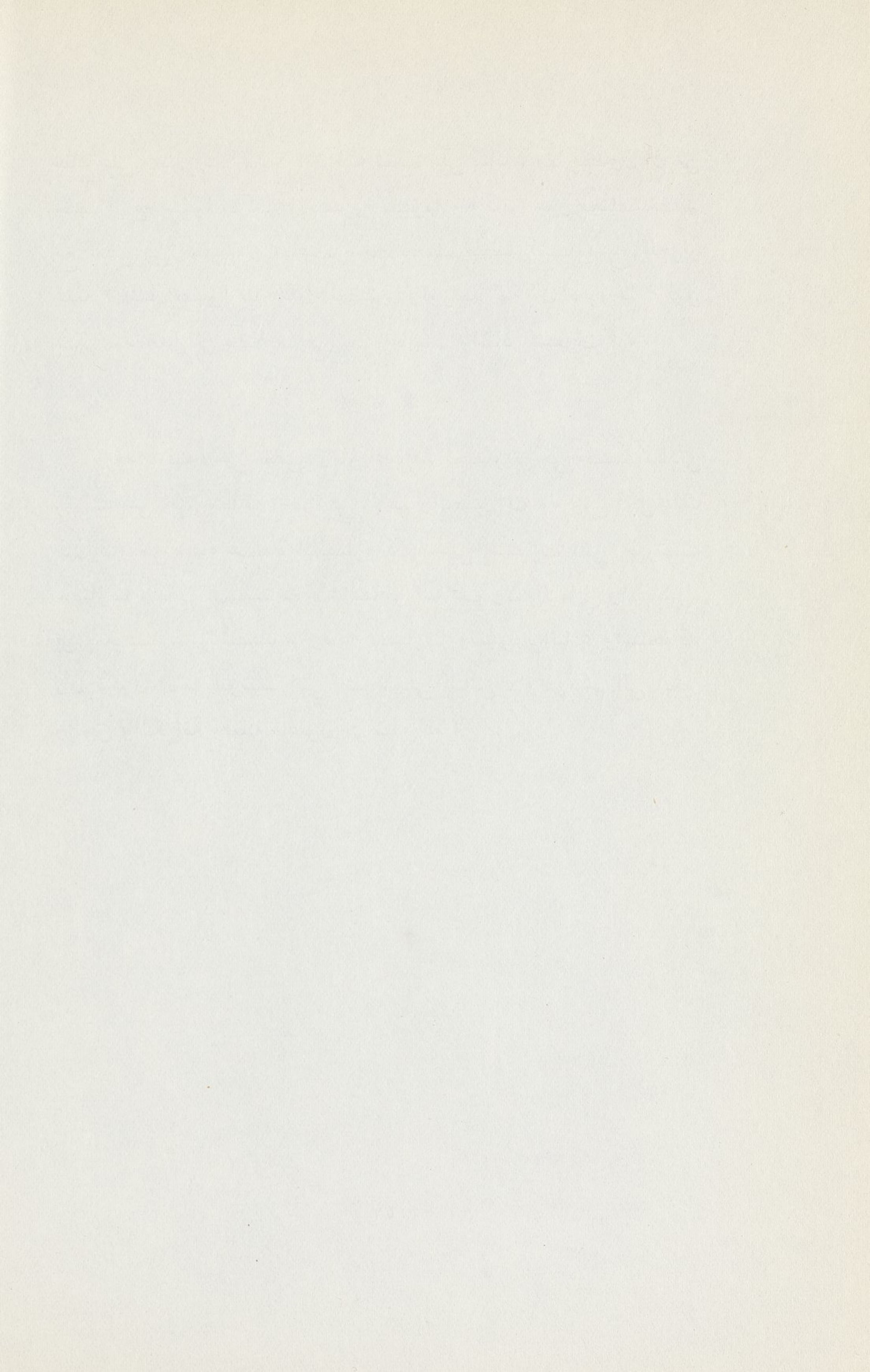
وكان في التاريخ لأول مرة ان يشكو والد مغلوب ، الحاكم الغالب الى رئيس الدولة الأعلى من ان ولد الحاكم قد ضرب ولده الصغير خفقتين بالسوط على رأسه من غير حق .. ويغضب رئيس الدولة الأعلى ويحاسب ولد الحاكم ويقتص منه ، ويقرّع الحاكم ويؤنبه ويقول له : متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ؟! إن هذه روح جديدة تبعثها حضارتنا في الافراد والشعوب وقد كان هذا الوالد الذي شكا ضرب ولده ، كان قبل حكمنا وحضارتنا يعذب ويضرب ويسلب ماله ويضطهد في عقيدته فلا يثور ولا يتألم ولا يحس بالعزة والكرامة ، حتى اذا اشرقت عليه شمس حضارتنا رفع صوته ليقول لأمير المؤمنين : انا عائذ بالله وبك من الظلم ، وما كان الظلم الذي اشتكاه سفك دم ولا انتهاك عرض ولا سلب دين ولا اغتصاب ارض ، وانما كان ضربتين من ولد صغير لولده الصغير !

ان الغربيين اتصلوا بحضارتنا في القرون الوسطى عن طريق بلاد الشام ، وعن طريق الاندلس ، وكانوا قبل اتصالهم بنا لا يعرفون ثورة

ملك على رئيس دين ، ولا انتفاضة شعب على ملك ، ولا يجدون ان من حقهم ان يحاسبوا حاكما او ينصروا مظلوما . وكانوا حين يختلف بعضهم مع بعض في العقيدة والمذهب يذبح بعضهم بعضا كما يذبح الجزار غنمه ! فلما اتصلوا بنا بدأت نهضتهم وثورتهم ثم كان تحررهم ، فهل ينكر بعد هذا أثر حضارتنا في تحرير العالم وانقاذ الشعوب ؟ ..

* * *

وبعد ، فهذه هي بعض الآثار الخالدة لحضاراتنا في خمسة ميادين رئيسية هي ابرز مظاهر الحياة في الامم والحضارات .. ومن أجل ذلك كان لنا نحن أبناء هذه الحضارة دَين على الشعوب التي حررتها حضارتنا ، يجب ان نسترده لا بالتفاخر الكاذب ولا بالاماني والاباطيل، بل بمعرفتنا لقدر أنفسنا ، وقيمة حضارتنا وسمو تراثنا ، واستحقاقنا لأن نكون الامة الوسط التي تشهد على الناس ، وتقودهم الى الخير والحق والكرامة ولعلنا فاعلون ان شاء الله .



- ٣ -

# النزعة الإنسانية

(٤)

لا يسع الباحث في حضارتنا الخالدة وآثارها الا أن يعنى بالنزعة الانسانية التي تميزت بها حضارتنا عن كل الحضارات ، فنقلت الانسانية من أجواء الحقد والكراهيـة والتفرقة والعصبيـة الى أجواء الحب والتسامح والتعاون والتساوي أمام الله، ولدى القانون، وفي كيان المجتمع تساويا لا أثر فيه لاستعلاء عرق على عرق، أو فئة على فئة، أو أمة على أمة.. وإن هذه النزعة لتتجلى في مبادىء حضارتنا وتشريعها وواقعها .

أما النزعة الانسانية في مبادئها فذلك حين يعلن الاسلام أن الناس جميعـاً خلقوا من نفس واحدة « **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً** » (١) فالاصل البشري لابناء البشرية قاطبة هو أصل واحد . ومهمـا تفرق الناس بعد ذلك الى أمم وقبائل وبلدان وأجناس ، فانما هو كتفرق البيت الواحد والاخوة من أب واحد وأم واحدة . وما كان كذلك فسبيل هذا الاختلاف في أجناسهم وبلدانهم ان يؤدي الى تعاونهم وتعارفهم وتلاقيهم على الخير ، ومن ذلك انبثق المبدأ الانساني الخالد « **يا أيهـا الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا** » (٢) وقد ترفع الحياة بعد ذلك أفرادا وتخفض آخرين ، وقد تغتني فئـات ويفتقر كثيرون ، وقد يحكم شخص ويخضع شعب ، وقد تبيضّ بشرة أقوام وتسود ألوان أمم أخرى ..

---

(١) النساء : ١ (٢) الحجرات : ١٣

ان هذا وان كان من سنة الحياة ، بل هو نظامها الذي لا يتبدل ، فليس من شأنه أن يميز من ارتفع على من اتضع ، ولا من اغتنى على من افتقر ، ولا من حكم على من خضع ، ولا ذا اللون الابيض على ذي اللون الاسود ، بل الكل سواء ، سواء عند الله في آدميتهم وانسانيتهم لا تمايز بينهم الا بالتقوى « **ان أكرمكم عند الله أتقاكم** (١) » ، وهم سواء أمام القانون في الخضوع له لا تمايز بينهم الا بالحق « **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** (٢) » وهم سواء في كيان المجتمع ، يتأثر قويهم بضعيفهم ، ومجموعهم لعمل أفراد منهم « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الاعضاء بالحمى والسهر (٣) » وهكذا يستمر الاسلام في اعلان الوحدة الانسانية بين الناس كاخوة من أب وأم ، والوحدة الاجتماعية في المجتمع كشجرة تهتز أغصانها جميعا اذا لمستها الرياح لا فرق بين أعلاها وأدناها . ومن المفيد هنا ان نلاحظ كثرة خطاب القرآن للناس بهذه الالفاظ التي تشعرهم بوحدة أصلهم الانساني « يا أيها الناس .. يا بني آدم » كما خاطب أبناء الدين الواحد بقوله « يا أيها الذين آمنوا .. أيها المؤمنون » ، دون ان يميز بالخطاب أمة على أمة أو فريقا على فريق .

وأما النزعة الانسانية في تشريعنا الحضاري ، فانك لتلمس ذلك واضحا في كل باب من أبواب التشريع ، في الصلاة يقف الناس جميعا بين يدي الله لا يخصص مكان لملك أو عظيم أو عالم . وفي الصوم يجوع

---

(١) الحجرات : ١٣ (٢) الزلزال : ٧ ، ٨
(٣) رواه مسلم وأحمد .

الناس جوعا واحدا لا يفرد من بينهم أمير أو غني أو شريف • وفي الحج يلبس الناس لباسا واحدا ، ويقفون موقفا واحدا ، ويؤدون منسكا واحدا ، لا تمييز بين قاص ودان ، وقوي وضعيف ، وأشراف وعامة • فاذا انتقلت من ذلك الى أحكام القانون المدني وجدت الحق هو الشرعة السائدة في العلاقة بين الناس ، والعدل هو الغرض المقصود من التشريع، ودفع الظلم هو اللواء الذي يحمله القانون ليفيء اليه كل مضطهد ومظلوم • فاذا انتقلت من ذلك الى القانون الجزائي وجدت العقوبة واحدة لكل من يرتكبها من الناس ، فمن قتل قتل ، ومن سرق عوقب ، ومن اعتدى أدّب ، لا فرق بين أن يكون القاتل عالما أو جاهلا ، والمقتول أميرا أو فلاحا ، ولا فرق بين أن يكون المعتدي أمير المؤمنين أو صانع النسيج ، والمعتدى عليه أعجميا أو عربيا ، شرقيا أو غربيا ، فالكل سواء في نظر القانون « **الحرُّ بالحرِّ والعبد بالعبد والانثى بالانثى** (١) » ويسمو التشريع الى أرفع من هذا حين يثبت الكرامة الانسانية للناس جميعا بقطع النظر عن أديانهم وأعراقهم وألوانهم فيقول« **ولقد كرمنا بني آدم** (٢) » هذه الكرامة هي التي تضمن للناس جميعا حقهم في الحياة والعقيدة والعلم والعيش ، هي للناس جميعا ، ومن واجب الدولة أن تكفلها لهم على قدم المساواة بلا استثناء • ويسمو التشريع فوق هذا الى ذروة عالية من السمو الانساني حين يجعل أساس المثوبة والعقاب للناس لا على ظواهر أفعالهم بل على نواياهم « ان الله لا ينظر الى صوركم ولكن الى قلوبكم (٣)» فالنية هي محل المؤاخذة أو الاثابة: « انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى (٤) » والنية المقبولة

---

(١) البقرة : ٧٨ (٢) الاسراء : ٧٠ (٣) رواه مسلم

(٤) رواه أئمة السنة كلهم

عند الله هي نية الخير والنفع للناس وابتغاء وجه الله ومرضاته دون غرض مادي أو نفع تجاري « **واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون** (١) » وهذا الخير الذي تفعله ابتغاء وجه الله لا يصح أن تطلب ممن استفاد منه ثوابا ولا أجرا « **ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ، انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا** (٢) » ويبلغ التشريع أعلى ذروة من النزعة الانسانية حين يقرر وحدة العوالم كلها من انسان وحيوان ونبات وجماد وأرض وأفلاك في سلك العبودية لله والخضوع لنواميس الكون ، وما أروع ما يطلبه القرآن من المسلم أن يذكره في كل ركعة من ركعات صلاته « **الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم** (٣) » انه لواجب ان يذكر المسلم أنه جزء من الكون مخلوق لإله واحد متصف بالرحمة البالغة الشاملة ، فليكن المسلم في هذا العالم الذي يعيش فيه وهو محتاج اليه مثالا للرحمة التي يتصف بها الله وهو غني عن العالمين .

هذه هي مظاهر النزعة الانسانية في مبادىء حضارتنا وتشريعها حين أعلنت للناس ، فكيف كان واقعها حين حكمت وانتصرت ؟ هل ظلت تلك المبادىء ميثاقا كميثاق حقوق الانسان في شرعة الامم تحتفل الدولة بذكرى اعلانه يوما في كل عام ، بينما تمتهنه الدول الكبرى في كل ساعة وفي كل يوم وفي كل شهر من شهور السنة ؟ .. هل ظلت تلك المبادىء حبيسة في البلد الذي اعلنت فيه كما احتبسب مبادىء الثورة الفرنسية في فرنسا وحرمت على مستعمراتها والبلدان الواقعة تحت حكمها أو انتدابها ؟ هل نصبت تماثيل جديدة كما نصب تمثال

---

(١) الحج : ٧٨ (٢) الدهر : ٨ ، ٩
(٣) الفاتحة : ٢ ، ٣

الحرية في نيويورك أول ما يراه القادم الى تلك الديار ، بينمـا تنطق اعمال امريكا في خارجها نطقاً يلعن الحرية ويهزأ بها ويضطهد عشاقها الاحرار ؟ .. لنستمع الى التاريخ فهو أصدق شاهد ، لنستمع الى روائع النزعة الانسانية في حضارتنا وكيف أعلنتها حقائق ناطقة في تصرفات أفرادها وحكامها :

تغاضب أبو ذر ، وهو عربي من غفار ، مع بلال الاسود الحبشي مولى أبي بكر رضي الله عنه . وكان أبو ذر وبلال صحابيين ممن آمن بالاسلام ورسوله . وتطور النزاع بينهما الى أن أخذت أبا ذر الحدة فقال لبلال : يا ابن السوداء ! فشكاه بلال الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لأبي ذر : أعيرته بأمه ؟ انك امرؤ فيك جاهلية ! فقال ابو ذر وقد ظن الجاهلية هي الانحراف الاخلاقي الشهواني الذي لا يأتيه الا الشباب: على ساعتي هذه من كبر السن ؟ .. قال : نعم ، هم اخوانكم [1] . فندم أبو ذر وتاب حتى أنه أمر بلالا أن يطأه على وجهه مبالغة في التوبة والندم .

وسرقت امرأة من بني مخزوم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وجيء بها اليه لتعاقب، فأهم ذلك قريشا وقالوا : من يشفع لنا عند رسول الله في اسقاط الحدّ عنها ؟ ثم ذكروا ان أسامة بن زيد حبيب الى قلب الرسول فكلموه في أن يشفع لها عنده ، فكلمه بذلك فغضب عليـه الصلاة والسلام غضبا شديدا وقال لأسامة : أتشفع في حد من حدود الله ؟! ثم قام في الناس خطيبا فقال : إنما أهلك الذين من قبلكم انهم

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها [١] .

وجاء قيس بن مطاطية (وكان منافقا) الى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي فقال : هذا الاوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل ( أي محمد صلى الله عليه وسلم ) فما بال هؤلاء ؟ ( يعني سلمان وصهيبا وبلالا ) فقام اليه معاذ بن جبل فأخذ بتلابيبه ( أي قبض على ثيابه من جهة نحره ) ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بمقالته ، فقام رسول الله مغضبا يجر رداءه حتى أتى المسجد ثم نودي ان الصلاة جامعة ( نداء الى الاجتماع العام وفي صلاة العيدين ) فخطب في الناس وقال : يا أيها الناس : ان الرب واحد والأب واحد وان الدين واحد [٢] ..

وجاء عدي بن حاتم الطائي الى المدينة يوما وهو لم يُسلم بعد ، وحضر مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم وحوله اصحابه بعد منصرفهم من احدى الغزوات يلبسون الدروع السابغات ، فراعه هيبة الصحابة لنبيهم واحترامهم له ، وبينما هو كذلك اذ جاءت الى النبي صلى الله عليه وسلم امرأة فقيرة من اماء المدينة وقالت له : أريد يا رسول الله أن أسر اليك شيئاً فقال لها : انظري في أي سكك المدينة أخلو لك ! ثم نهض معها ووقف طويلا يستمع اليها ثم عاد ... فلما رأى عدي هذا تملكته روعة هذه النزعة الانسانية في رسول الله فأسلم .

---

(١) رواه البخاري ومسلم واحمد .

(٢) رواه ابن عساكر بسنده لى الزهري ، وتمامه : ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وانما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي .

ولما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكـة بعد نضال استمر احدى وعشرين سنـة ووقف موقف المنتصر ممن حاربوه وأخرجوه وكذبوه ، لم يذكر يومئذ الا دعوته ومبادئها التي كان ينادي بها يوم كان مستخفيا في دروب مكة ، ثم يوم كان حاكما في المدينة يضع الاساس في بناء الحضارة الخالدة في التاريخ - يومئذ أعلن تطبيق المبادىء التي طالما نادى بها من قبل ، قبل أن ينتصر انتصاره النهائي ، فقال وهو على باب الكعبة ، وقريش ذات الكبرياء والفوارق الاجتماعية الظالمة تسمـع ما يقول : « يا معشر قريش ان الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم خلق من تراب » ثم تلا قول الله تبارك وتعالى وهو ما كان ينادي به قبل ان ينتصر ( يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ) .

ولما كان عهـد أبي بكر كان مثال الرئيس المتواضـع الذي تملأ الانسانية قلبه ونفسه ، فاذا هو وهو خليفة يأتي لبنات الحي ممن فقدن آباءهن في الحروب فيحلب لهن غنمهن ويقـول : أرجو أن لا تغيرني الخلافة عن خـلق كنت أعتاده من قبل .

وكان عمر مثال الخليفة الغيور على الشعب البار بالضعفاء ، الشديد في الحق ، الناس عنده سواء ، بل يحرم نفسه ليعطي الناس ، ويجوع ليشبعوا ، وكان يتفقـد الناس في بيوتهم ومنازلهم وقصصه في ذلك مشهورة معروفة :

رأى مرة في السوق شيخا كبيرا يسأل الصدقة فقال له : ما أنت يا شيخ ؟ قال : أنا شيخ كبير أسأل الجزية والنفقة . وكان يهوديا من

سكان المدينة • فاذا بعمر الانساني العظيم يقول له : ما أنصفناك ياشيخ• أخذنا منك الجزية شابا ثم ضيعناك شيخا • وأخذ بيده الى بيته فرضخ له ما كان من طعامه • ثم أرسل الى خازن بيت المال يقول : افرض لهذا وأمثاله ما يغنيه ويغني عياله !••

ومشى عمر مرة في سكك المدينة فاذا بصبيّة تطيش هزالا ، تقوم مرة وتقع أخرى ، فقال عمر : يا حوبتها ! يا بؤسها ! من يعرف هـذه منكم ؟ فقال ابنه عبد الله : أما تعرفها يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا • قال : هذه احدى بناتك ! قال عمر : وأي بناتي هذه ؟ قال : هذه فلانة بنت عبد الله بن عمر (أي ابنته) فقال عمر : ويحك وما صيرها الى ما أرى ؟ قال له ابنه : منعك ما عندك • فقال عمر : انك والله مالك عندي غير سهمك في المسلمين وسعك أو أعجزك ! هذا كتاب الله بيني وبينكم •

وقدمت الى المدينة قافلة من التجار وفيها النساء والاطفال فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف : هل لك ان تحرسهم هذه الليلة ؟ فباتا يحرسانهم ويصليان ما كتب الله لهما ، فسمع عمر بكاء صبي فتوجه نحوه وقال لأمه : اتقي الله واحسني الى صبيك ثم عاد الى مكانه ، فسمع بكاءً فعاد الى امه فقال : اتقي الله واحسني الى صبيك ثم عاد الى مكانه ، فلما كان من آخر الليل سمع بكاءه فأتى أمه فقال : ويحك اني لأراك أم سوء ! ما لي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة ؟ قالت وهي لا تعرفه انـه أمير المؤمنين : يا عبد الله لقد أبرمتني منذ الليلة ! اني أريغه عن الفطام فيأبى (أي احمله على الفطام كرها فيأبى ) قال : ولمَ ؟ قالت لأن عمر لا يفرض الا للفطيم (أي لا يعطي للآباء عن اولادهم الا من فطم ) قال : وكم له ؟ قالت كذا وكذا شهرا قال : ويحك لا تعجليه • فصلى الفجر وما يستبين الناس

قراءته من غلبة البكاء . فلما سلم قال : يا بؤسا لعمر كم قتل من أولاد المسلمين .. ثم أمر مناديا فنادى ان لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام فانا نفرض لكل مولود في الاسلام ، وكتب بذلك الى الآفاق .

ولعمري ما يروي التاريخ أروع ولا أبلغ من هذه الحادثة ، ومـا في حضارات الامم كلها ما يعدل روعة عمر في ديمقراطيته اذ أخذ بنفسه يسهر على القافلة واصحابها نيام ، وهو يومئذ امير المؤمنين ــ أي قاهر كسرى وقيصر ووارث ملكيهما ــ يفعل ما لا يفعله اليوم الا حارس طلب اليه ان يحرس مثل هذه القافلة ، وهيهات مع هذا ان يفعل مثل ما فعل عمر ، أن يتنبه للطفل يبكي ويطلب الى الام ان ترعى ولدهـا ثلاث مرات ... من منا يفعل فعل عمر مع اولاد القافلة ؟ مَن من عظماء التاريخ قارب عمر في شعوره الانساني العظيم ؟

ولنستمع الى ما هو اروع من هذا في تاريخ حضارتنا .. حدث أسلم خادم عمر قال : خرجت مع عمر ليلة وبعدنا عن المدينة ونحن تتفقد أهل المنازل النائية ، فبصرنا بنار من بعيد فقال عمر : اني أرى هاهنا ركبانا قصَّر بهم الليل والبرد ، انطلق بنا ، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم فاذا بامرأة معها صبيان وقدر منصوبة على نار ، وصبيانها يتضاغون ( أي يتصايحون ويبكون ) فسلم عمر ثم سأل المرأة ما بالكم ؟ قالت : قصر بنا الليل والبرد ، قال : وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟ قالت : الجوع ، قال : وأي شيء في هذه القدر ؟ قالت : ماء اسكتهم به حتى يناموا .. والله بيننا وبين عمر ! (تشكو عمر وتدعو عليه) فقال : أي رحمك الله وما يدري عمر بكم ؟ قالت : يتولى أمرنا ثم يغفل عنا ؟ فأقبل عليَّ فقال : انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق، فأخرج عدلا

من دقيق ، وكبة من شحم ، وقال : احمله علي ، قلت : انا احمله عنك : قال : أنت تحمل وزري يوم القيامة لا أم لك ؟! فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه اليها نهرول ، فألقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئا، فجعل يقول لها : ذري علي وأنا أحرّ لك ، وجعل ينفخ تحت القدر وكانت لحيته عظيمة ، فرأيت الدخان يخرج من خلال لحيته حتى طبخ لهم ، ثم أنزلها وقال : ابغني شيئا ، فأتته بصفحة فأفرغها فيها ، فجعل يقول لها : أطعميهم وأنا اسطح لهم ( أي أبسطه حتى يبرد ) ، فلم يزل حتى شبعوا ، وترك عندها فضل ذلك وقام وقمت معه ، فجعلت تقول : جزاك الله خيرا، كنت بهذا الامر أولى من أمير المؤمنين! فيقول: قولي خيرا، اذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك ان شاء الله ! ثم تنحى ناحية عنها ، ثم استقبلها فربض مربضا ، فقلت له : لك شأن غير هذا ؟ فلا يكلمني ، حتى رأيت الصبية يصطرعون ، ثم ناموا وهدأوا . فقام يحمد الله ثم أقبل علي فقال : يا أسلم ، ان الجوع أسهرهم وابكاهم ، فأحببت ان لا انصرف حتى ارى ما رأيت .

ومن هذا النمط الانساني الفذ في تاريخ الانسانية ما وقع لعمر أيضا ذات ليلة اذ كان على عادته يتفقد الناس ، فمر برحبة من رحاب المدينة فاذا ببيت شعر ينبعث منه أنين امرأة وعلى بابه رجل قاعد ، فسلم عليه عمر وسأله من هو فأجابه بأنه رجل من البادية جاء يصيب من فضل أمير المؤمنين ، فقال عمر ما هذا الصوت الذي أسمعه في البيت ؟ قال الرجل وهو لا يدري أنه عمر أمير المؤمنين : انطلق رحمك الله لحاجتك ولا تسأل عما لا يعنيك ، فألح عليه عمر يريد معرفة الأمر فأجابه : امرأة تَمخَّض ـ أي على وشك الولادة ـ وليس عندها أحد ، فعاد عمر

الى منزله وقال لامرأته أم كلثوم بنت علي رضي الله عنه : هل لك في أجر ساقه الله اليك ؟ قالت : وما هو ؟ فأخبرها الخبر وأمرها ان تأخذ معها ما يحتاج اليه الوليد الجديد من ثياب وما تحتاج اليه المرأة من دهن، وأن تأخذ معها قدرا وتضع فيه حبوبا وسمنا . فجاءت به فحمل القدر ومشت خلفه حتى انتهى الى البيت وقال لامرأته ادخلي الى المرأة وجلس هو مع الرجل وأوقد النار وطبخ ما جاء به والرجل جالس لا يعلم من هو . وولدت المرأة فقالت زوجة عمر من داخل البيت : بشر يا أمير المؤمنين صاحبك بغلام، فلما سمع الاعرابي ذلك علم أنه مع أمير المؤمنين، فكأنه هابه ، فأخذ يبتعد عنه وعمر يقول له : مكانك كما أنت ، ثم حمل القدر وأمر زوجته أن تأخذه لتطعم المرأة ، فلما أكلت ناول الرجل القدر وقال له : كل ويحك فانك سهرت الليل كله ، ثم خرجت زوجته وقال للرجل : اذا كان غدا فائتنا نأمر لك بما يصلحك ، فلما اصبح أتاه ففرض لابنه في الذرية وأعطاه .

أما اني لا أعلم في كل ما قرأت من تاريخ العظماء أروع ولا أنبل ولا أسمى انسانية من مثل هذه الحادثة ، ولقد ذكروا في تاريخ واشنطن محرر أمريكا انه كان مارا ذات يوم في بعض شوارع المدينة التي سميت باسمه فرأى بعض الجنود يحاولون رفع حجر ويعجزون عن ذلك والضابط واقف لا يحاول اعانتهم ، فقال له واشنطن : ساعدهم على حمله ، فأبى الضابط وقال : اني لا أتنازل الى هذا . فألقى واشنطن رداءه وساعدهم حتى حملوا الحجر ، ثم قال لهم : كلما احتجتم الى مساعدة فاسألوا عن دار واشنطن . انها نادرة تدل على خلق عظيم ... ولكن اين هي مما صنع عمر ، اذ ترك في الليل نومه وراحته وأخذ يفتش

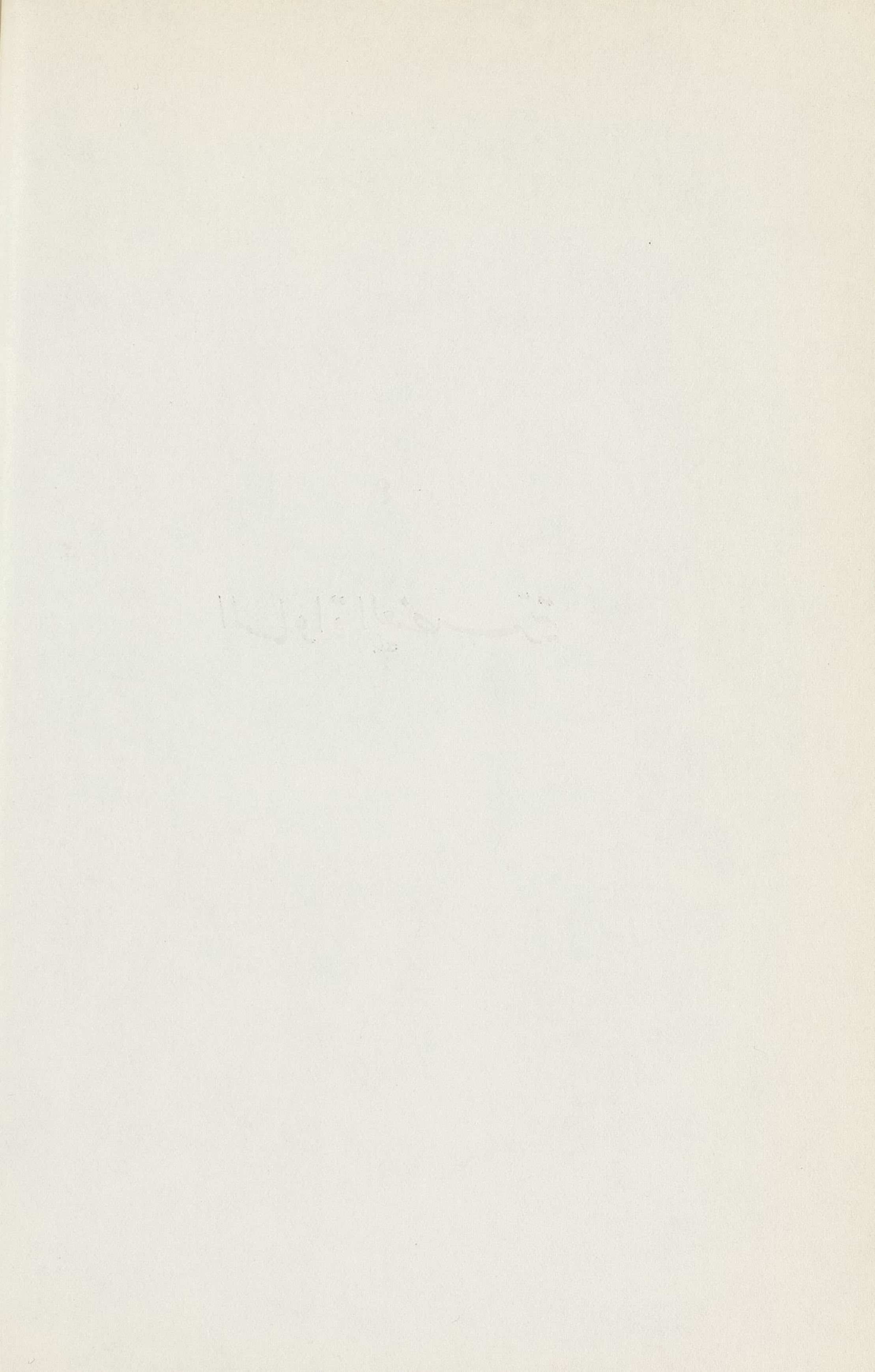
عن شعبــه ، فلما علم بامرأة حامل على وشك الولادة وليس لهــا من يساعدها عاد الى بيته وأحضر زوجته وسارا معا في ظلام الليل هو يحمل الطعام وهي تحمل الثياب حتى وصلا الى الخباء فقامت زوجته ـ وهي في تعبيرنا الحديث سيدة الدولة الاولى ـ مقام القابلة ، وقام هو مقام الطاهي • أين مثل هذا في سمو النفس الانسانية التي بلغت ما لم يبلغه رئيس على وجه الارض ؟ •• انها احدى عظمــات عمر ، وهي احدى روائع حضارتنا التي صاغت من عمر بن الخطاب ابن الصحراء انسانا يقف على رأس قمة العظماء كما تقف حضارتنا في مقدمة الحضارات •

*** 

وبعد فليس عمر وحــده هو الذي صنعتــه حضارتنا رجلا يمثل الانسانية الكاملة الرحيمة ، ففي أبي بكر وفي عثمان وفي علي وفي عمر ابن عبد العزيز وفي صلاح الدين وفي غيرهم من علماء حضارتنا وعظمائها وقادتها وعبّادها وفلاسفتها ، في كل واحد من هؤلاء مثل خالد على سمو النزعة الانسانية في حضارتنا الخالدة •

— ٤ —

# المساواة العنصرّية



وهذا جانب آخر من جوانب النزعة الانسانية في حضارتنا الخالدة، ذلك هو تقرير المساواة حقاً بين الناس من غير نظر الى ألوانهم . فبعد أن أعلن القرآن مبدأ المساواة في قوله : **«إن أكرمكم عند الله أتقاكم (١)»** وقف الرسول في حجة الوداع ليعلن في خطابه الخالد : « الناس من آدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى (٢) » ولم تكن هذه المساواة لتقف عند حدود المبادىء التي تعلن في مناسبات متعددة ـ كما يقع من زعماء الحضارة الحديثة اليوم ـ بل كانت مساواة مطبقة تنفذ كأمر عادي لا يلفت نظراً ، ولا يحتاج الى تصنع او عناء ، فقد نفذت في المساجد حيث كان يلتقي فيها الأبيض والأسود على صعيد واحد من العبودية لله عز وجل والخشوع بين يديه، ولم يكن الأبيض ليجد غضاضة أو حرجاً في وقوف الأسود بجانبه . ونفذت في الحج حيث تلتقي العناصر البشرية كلها من بيضاء وملونة على صعيد واحد وبثياب واحدة من غير تمييز بين أبيض وأسود او استعلاء من البيض على السود . بل إننا لنجد ما هو أسمى من هذا ، فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالاً الحبشي يوم فتح مكة أن يصعد فوق الكعبة ليؤذن من فوقها ويعلن كلمة الحق ، والكعبة هي الحرم المقدس عند العرب في الجاهلية ، وهي القبلة المعظمة في الاسلام، فكيف يصعد عليها عبد ملوّن كبلال ؟ .. كيف يطؤها بقدميه ؟ إن مثل هذا أو قريباً منه لا يتصور في الحضارة الحديثة في أمريكا مثلا ،

---

(١) الحجرات : ١٣ (٢) ابن سعد عن أبي هريرة .

ولكن حضارتنا فعلته قبل أربعة عشر قرنا ، فما كان صعود بلال على سطح الكعبة إلا إعلانا لكرامة الانسان على كل شيء وأن الانسان يستحق هذه الكرامة لعلمه وعقله وأخلاقه وإيمانه لا لبشرته وبياضه ، فما يقدم الانسان بياضه إذا أخّره عمله ، ولا يؤخره سواده إذا قدمه ذكاؤه واجتهاده .

ولذلك لم يرض رسول الله لأبي ذر وهو من أكرم صحابته أن يسب آخر فيقول له يا ابن السوداء .. لم يرض منه ذلك بل قرّعه وقال له : أعيرته بسواد أمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية ! وهذا حدّ فاصل بين العلم والجهل بين الحضارة الانسانية ، والحضارة الجاهلية .

إن الحضارة التي لا يستعلي فيها عرق على عرق ولا لون على لون هي الحضارة التي يصنعها الانسان العاقل الكريم وتسعد بها الانسانية الواعية الكريمة . والحضارة التي يعلو فيها الأبيض ويمتهن الأسود ، ويسعد بها ذوو البشرة البيضاء ويشقى بها الملونون هي الحضارة الجاهلية التي ترتد بها الانسانية إلى الوراء مئات القرون عمياء متكبرة جاهلة حمقاء . إنك امرؤ فيك جاهلية ... هذا وصف للحضارة الجاهلية التي تنادي بالتمييز العنصري ، وهو ما كافحته حضارتنا في كل ميادين الحياة ، في المسجد والمدرسة والمحكمة والقيادة ، مع الأصدقاء والأعداء على السواء .

لمّا جاء المسلمون لفتح مصر وتوغلوا فيها حتى وقفوا أمام حصن بابليون رغب المقوقس في المفاوضة مع المسلمين فأرسل اليهم وفدا ليعلم ما يريدون ، ثم طلب منهم أن يرسلو إليه وفداً ، فأرسل اليه عمرو بن العاص عشرة نفر فيهم عبادة بن الصامت ، وكان عبادة أسود شديد

السواد طويلاً حتى قالوا إن طوله عشرة أشبار ، وأمره عمرو أن يكون هو الذي يتولى الكلام . فلما دخلوا على المقوقس تقدمهم عبادة بن الصامت فهابه المقوقس لسواده وقال لهم : نحّوا عني هـذا الأسود وقدموا غيره يكلمني ، فقال رجال الوفد جميعاً إن هذا الاسود أفضلنا رأيا وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإنما نرجع جميعـا الى قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله ، فقال لهم : وكيف رضيتم أن يكون هذا الاسود أفضلكم وانما ينبغي أن يكون هو دونكم ؟ قالوا : كلا ! إنه وإن كان أسود كما ترى فانه من أفضلنا موضعاً وأفضلنا سابقة وعقلاً ورأيا وليس ينكر السواد فينا ، فقال المقوقس لعبادة : تقدم يا أسود وكلمني برفق فإني أهاب سوادك ، وان اشتد كلامك علي ازددت لك هيبة ، فقال عبادة ــ وقد رأى فزع المقوقس من السواد : إن في جيشنـا ألف أسود هم أشد سوادا مني .

ألا ترى الى هذه الحضارة ما أروعها وأسمى انسانيتها ؟ .. لقد كان الناس جميعا ــ حتى المتحضرون في القرن العشرين ــ يرون السواد منقصة ، وكانوا لا يرون الأسود أهلاً لأن يكون في عداد البيض ، فكيف يتقدمهم ويقودهم ويفضلهم في الرأي والعلم ؟ .. فجـاءت حضارتنا تحطم هذه المقاييس ، وتسفه هذه الآراء ، وتقدم الأسود على الأبيض حين يقدمه علمه ورأيه وشجاعته . وليس عبادة بن الصامت الا واحدا من هؤلاء السود الذين رفعتهم حضارتنا الى مرتبة القيادة والزعامة .

وكان عبد الملك بن مروان يأمر المنادي ان ينادي في موسم الحج

أن لا يفتي الناس الا عطاء بن أبي رباح إمام أهل مكة وعالمها وفقيهها ، أتدرون كيف كان عطاء هذا؟ لقد كان أسود، أعور، أفطس، أشل، أعرج، مفلفل الشعر، لا يتأمل المرء منه طائلا... كان اذا جلس في حلقته العلمية بين الآلاف من تلاميذه بدا كأنه غراب أسود في حقل من القطن ! هذا الأسود الأعور الأفطس جعلته حضارتنا إماماً يرجع اليه النـاس في الفتوى ، ومدرسة يتخرج على يده الألوف من البيض ، وهو عندهم محل الإكبار والحب والتقدير .

ولقد كان في حضارتنا المجلون في كل ميادين العلم والأدب ، وهم سود البشرة لم يمنعهم سوادهم أن يكونوا أدباء ينادمون الخلفـاء كنصيب الشاعر ، ولا فقهاء يؤلفون المراجع المعتبرة في الفقه الاسلامي كعثمان بن علي الزيلعي شارح الكنز في الفقه الحنفي والحافظ جمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف الزيلعي ( ٧٦٢ هـ ) مؤلف نصب الراية ، وكلاهما أسودان من زيلع من بلاد الحبشة .

وليس من أبناء العربية من يجهل كافوراً الاخشيدي العبد الأسود وقد حكم مصر في القرن الرابع الهجري ، وهو الذي خلده المتنبي في مدحه وهجائه .

وقصارى القول ان حضارتنا لم تعرف هـذا التمييز العنصري بين البيض والسود ، ولم يكن فيها مجتمعات خاصة للسود لا يساكنهم فيها أبيض ، ولا اضطهاد خاص بهم يجعلهم محل نقمة البيض وازدرائهم ، وإنما كانت حضارتنا انسانية تنظر الى الناس جميعاً بمنظار الحق والخير، ولا ترى البياض والسواد إلا بياض الأعمال وسوادها (( **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** [1] )) .

---

(1) الزلزال : ٧ ، ٨

ولقد كان مثل هذا القول يبدو غريبا منذ خمسين سنة ، فمن بدهيات الأمور أن التفريق بين البيض والسود عمل همجي لا تلجأ اليه حضارة راقية ، وأن حضارتنا لم يكن منهـا أن تفعل ذلك وهي أشهر حضارة عرفت بنشر الإخاء والمساواة بين الناس ، ولكننا منذ قيام هيئة الأمم وإعلان ميثاق حقوق الانسان نجد أنفسنا في حاجة الى مثل هذا الحديث بعد أن رأينا وسمعنا الأحاديث المفجعة عن التمييز العنصري في جنوب أفريقيا ، والجرائم الاستعمارية المروعة في كينيا ، وعن حـالة الزنوج والملونين في امريكا • ومن العجيب أن الذين ينادون بالتمييز العنصري من حكام جنوب أفريقيا ويقومون بالاضطهاد السياسي والاقتصادي لزنوج كينيا وينزلون أشد المحن والبلايا بزنوج امريكا ليسوا شرقيين حتى يتهموا بالرجعية والتأخر والهمجية كما هو شأن الغربيين في اتهام الشرقيين دائما ، وإنما هم دول راقية من اكبر الدول في هيئة الامم ! فأميركا أكبر دولة تسيطر على هيئة الامم ، وانجلترا أكبر دولـة في اوروبا تباهي بديمقراطيتها ، وجنوب افريقيا ممثلة في هيئة الامم بطبقة من الحكام الاوروبيين البيض الذين استعمروا تلك المنطقـة وأخذوا يتكلمون باسمها ، ودول امريكا الجنوبية لها مقام مرموق ورأي مسموع في اوساط هيئة الامم • وهذه الدول هي التي تقوم في القرن العشرين بأبشع جريمة انسانية عرفها التاريخ ، جريمة اضطهاد الانسان لأخيـه الانسان ، لا لضعفه ولا لجهله بل للون بشرته !

إن حكومة جنوب أفريقيا لا تزال تصر رغم الضجة التي أثارتهـا الكتلة الآسيوية الافريقية في هيئة الأمم على التمييز بين البيض والملونين في الحقوق والواجبات والامتيازات • وانجلترا لا تزال تقوم في كينيا

بأعمال التقتيل الجماعي ضد الوطنيين الأحرار من جموع الماو ماو .
بل لا تزال تصر على تنفيذ قانون الأراضي الصادر في عام ١٩١٥ وهو الذي يجعل لـ ( ٢٩ ) ألف اوروبي من الحقوق في أراضي كينيا ما ليس لأربعة ملايين وخمس وخمسين ألف افريقي يطاردون في أراضيهم وفي عملهم وفي سكناهم ، وهم سكان البلاد وأصحاب الثروة والحق فيها !
يقول السير اليوت أول مندوب سام لكينيا عين عـام ١٩٠٠ في بيان سياسة حكومته في كينيا : إن داخل المحمية ( أي كينيا ) أرض للرجل الأبيض ، وإن من النفاق عدم الاعتراف بأن مصالح البيض يجب أن تكون لها الغلبة ، وينبغي أن يكون الهدف الأساسي من السياسة التي تتبعها والتشريعات التي نسنها أن ننشىء مستعمرة بيضاء . واستمرت هذه السياسة هـدف حكام كينيا الاوروبيين حتى اليوم : أن تصبح الارض كلها للاوروبي الابيض يتصرف بخيراتها كما يشاء .

ومن عجيب قانون الأراضي هناك أن للحاكم أن يمنح الأرض لمن يشاء وأن كل أرض لا تزيد مساحتها على ٥٠٠٠ فدان يجوز منحها بأجر اسمي لمدة ٩٩٩ سنة ! فما أتت سنة ١٩٢٥ حتى كان متوسط ما يملك المستعمر الابيض ٥٠٠ فدان مقابل ثمانية أفدنة للرجل الوطني . أما سياسة عزل الوطني الأسود عن المستعمر الأبيض فقد قامت على أساس تخصيص أماكن معينة للسود لا يجوز أن يتعدوها . وحين يضطر البيض المستعمرون الى تشغيل العمـال السود ـ لرخص أجورهم ـ يجب عليهم بمجرد الانتهاء من العمل أن يهبطوا من مزارع البيض الى أكواخهم أو مساكنهم في المناطق المنخفضة بعيدا عن مساكن البيض !

واذا انتقلنا الى أمريكا وجدنا ما يذهل ويؤلم : هناك في القارة

الجديدة ، حيث تمثال الحرية يستقبل في ميناء نيويورك كل قادم إليها وقد كتب تحته « أعطونا جماهيركم المتعبة ، الفقيرة ، التواقة الى أن تتنفس في حرية • ابعثوا الي ّ بنفاية شاطئكم المزدحم ، اولئك الذين لا مأوى لهم ولا وطن ، فها أنا أرفع مشعلي قرب الباب الذهبي » •

أجل في بلاد الحرية التي أقيم تمثالها في أكبر ميناء بحري من مدنها وموانئها ، تجري مأساة اضطهاد الزنوج ، وهي أبشع جريمة انسانية عرفها التاريخ • إننا لا تتجنى على القوم فنزعم ما ليس صحيحا ، بل القول أنفسهم يعترفون بهـذه الحقيقة ، وها هو جيمس بيرنز عضو مجلس الشيوخ الامريكي يقول : ليس لأيما رجل ملون تعمر قلبه الرغبة في المساواة السياسية عمل ما في ولايات الجنوب ، ان هذه البلاد ملك للرجل الابيض ، ويجب ان تظل كذلك !

ان مظاهر اضطهاد الزنوج في اميركا متنوعة متعددة الميادين :

ففي الميدان الثقافي لا يسمح ـ في عشرين ولايـة من الولايات الامريكية ـ للزنوج أن يتعلموا في مدرسة واحدة مع البيض ! وتنص الفقرة ٢٠٧ من دستور ولاية ميسيسيبي على ما يلي : « يراعى في هذا الحقل ـ حقل التربية والتعليم ـ أن يفصل أطفال البيض عن أطفال الزنوج فتكون لكل فريق مدارسه الخاصة •

وفي ولاية فلوريدا تقضي قوانينهـا بأن تفصل الكتب المدرسية الخاصة بالطلاب الزنوج في معزل عن الكتب الخاصة بالطلاب البيض !

وفي ميدان الزواج يمتنع في كل الولايات تقريبـا زواج بيضاء بزنجي او أبيض بزنجية وتنص دساتير بعض الولايات كولاية ميسيسيبي

على بطلان مثل هذا الزواج ، بل على بطلان زواج الأبيض بشخص يكون ثمن الدم الذي يجري في عروقه دم زنجي !

وفي ميدان العمل تقضي قوانين بعض الولايات بأنه لا يسمح للعمال الزنوج أن يقيموا مع العمال البيض على صعيد واحد في المصانع ، ولا يجوز للزنوج أن يدخلوا أو يخرجوا من الأبواب عينها التي يدخل منها البيض ويخرجون !

وفي ميدان الشؤون الاجتماعية تقضي قوانين أربع عشرة ولاية بعزل الركاب البيض في القطر الحديدية عن السود ، وتفرض إقامة عربات خاصة للسود في القطارات والاتوبيس وغرف الهاتف وفي المستشفيات ، حتى في مستشفيات الأمراض العقلية يفرق بين المجنون الأبيض والمجنون الأسود ! وأغرب من هذا أن صاحب مقبرة للكلاب في واشنطن أعلن عام ١٩٤٧ أنه لا يقبل جثث الكلاب التي يملكها زنوج ، ويعلل ذلك بأنه يعلم أن جماعة الكلاب لا تجد غضاضة في أن تدفن كلها في جبانة واحدة ، ولكنه لاحظ أن زبائنه البيض قد ساءهم أن تعامل كلابهم المدللة هذه المعاملة المنكرة بعد الوفاة أي مساواتها بكلاب الزنوج !

وكثيراً ما يعتذر الامريكيون السياسيون من هذا الوضع الانساني المخجل بأن كراهية الزنوج تكون على أشدها في الولايات الجنوبية ، أي التي هي أقل حضارة من الولايات الشمالية ، ولكن الواقع يكذب هذه الاعذار ، ففي جميع المدن الشمالية الكبرى تجد الكثرة الساحقة من السكان الزنوج محشورة في أحياء قذرة تتألف من بيوت خشبية متداعية تسرح فيها الفئران والجرذان وتندلع في جنباتها كل يوم ألسنة

النيران . والغرفة الواحدة في حي هارلم ـ حي الزنوج في نيويورك ـ تحتوي على تسعة عشر زنجيا ! حتى تقول احدى الصحف هناك : لو اتخذنا كثافة السكان في حي هارلم قاعدة وحاولنا أن نطبقها على سكان الولايات المتحدة كلها لكان في ميسورنا أن نحشرهم جميعا في نصف نيويورك !

وعلى مرمى النظر من البيت الأبيض في واشنطن وفي ظل نصب لنكولن التذكاري الجميل ينبسط حي بشع يعيش فيه مئتان وخمسون ألف زنجي ، أي ربع سكان العاصمة ، كما تعيش الحيوانات في زرائبها! وفي هذه العاصمة يحظر عليهم أن يدخلوا الفنادق والمطاعم والمسارح والمدارس والمستشفيات الخاصة بالبيض ، حتى الكنائس .. فقد دخل زنجي من جمهورية بناما كنيسة كاثوليكية في واشنطون ، وفيما هو مستغرق في صلاته سعى اليه أحد القسس وقدم له قصاصة من ورق قد كتب فيها عنوان كنيسة زنجية كاثوليكية ، وحين سئل القس عن سر هذا التصرف أجاب : ان في المدينة كنائس خاصة بالكاثوليك الزنوج يستطيع هذا المرء الأسود أن يقف فيها بين يدي ربه ! هذا وهم الذين يبشرون بأن السيد المسيح عليه السلام كان للانسانية كلها .

بهذه المهانة وهذا الاحتقار وفي هذا الجو من المرض والفقر والبؤس [1] يعيش ١٥ مليون زنجي أي عُشر سكان الولايات المتحدة،

---

(١) في تقرير نشره « مكتب التربية الامريكي » درس الأستاذ براون أحوال العيش في الاحياء الزنجية في كثير من انحاء الولايات المتحدة فقال : ان تعبيد الطرق وانارة الشوارع ومد أنابيب الاقذار ، وحماية البوليس ، كثيراً ما تنتهي حيث يبدأ القسم الزنجي من المدينة ، وليس يوجد في كثير من المناطق أيما مستشفى يستطيع الزنجي أن يطرق بابه ، أما الخدمات ←

التي تتزعم هيئة الامم وتنادي بأن رسالتها هي رسالة الحرية للشعوب والسلام بين جماهيرها !

ونرى من المناسب أن نستشهد في هذا المقام بما كتبه هاري هايوود الامريكي عن حقيقة هذه الحرية في كتاب « تحرير الزنوج » :

« ليس من شك في أن العرق لم يتخذ في بلـد ما ـ باستثناء أفريقية الجنوبية ـ وسيلة الى استعباد شعب من الشعوب كما اتخذ في هذه البلاد . لقد انتهى الرق بوصفه امتلاكا للعبيد ، ولكنه باق مايزال بوصفه نظاماً طبقياً ، وإنما يقصد به اليوم الى ابقاء الملونين في مركز ادنى من ذلك الذي يتمتع به البيض ، ويتوسل الى ترسيخه بطرائق مختلفة ، فهي حينـا أحكام قتل أو اعدام ينزلـه الجمهور الأرعن في الزنجي ، بمعزل عن السلطة الحاكمة ، وهي حينا تشريعات مجحفـة واجراءات قانونية ظالمة ، وهي حينا عادات وتقاليد ما أنزل الله بها من سلطان » ويقول الاقتصادي الامريكي فكتور بيرلو « والذي لا ريب فيه أن الصناعيين من أهل الشمال الذين سيطروا على الحكومة الفدرالية في عهد الحرب الأهليـة لم يكونوا راغبين في تحرير الشعب الزنجي

---

الطبية والتمريضية فهي في الأعم الاغلب غير وافية أو مفقودة بالكلية» واليك هذه الاحصاءات المؤلمة عن المستوى الصحي للزنوج : في شيكاغو ونيويورك بلغت نسبة الاصابات بالسل بين المواطنين الزنوج سنة ١٩٤٧ خمسة أضعاف نسبتها بين المواطنين البيض ، وبلغت في نيوأرك ، نيوجيرزي سبعة أضعاف هذه النسبة تقريبا ، وبلغت نسبة الوفيات بين الأمهات الزنجيات اللواتي وضعن أطفالهن ضعف نسبتها بين الواضعات من الامهات البيض ، في حين سجلت نسبة الوفيات بين الأطفال الزنوج ارتفاعا قدره ٧٠ بالمائة عما هي عليه بين الاطفال غير الملونين ، أما متوسط عمر الانسان بين الامريكيين الزنوج فكان أدنى من متوسط عمر الانسان بين الامريكيين البيض بعشر سنوات كاملة .

تحريراً صحيحاً ، كل ما كانوا يسعون بسبيله هو أن يحلّوا محل مالكي العبيد الجنوبيين في استغلال الشعب الزنجي أقصى ما يكون الاستغلال، والحق أن النهج السياسي الذي اتبعه الحزب الجمهوري والجيش في الولايات الجنوبية كان تحالفا مع مالكي العبيد السابقين لإخضاع الشعب الزنجي من جديد » .

ويقول: «لقد انتشرت سموم التعصب العرقي في طول البلاد وعرضها وتسربت الى مجاري الحياة الامريكية جميعاً ، فاذا بجماهير الشعب تتعود اصطناع تعابير الاستخفاف والاحتقار في معرض الاشارة الى الشعب الزنجي والاقليات القومية الاخرى » .

ويقول « جاك ليت » و « لي مورتيمر » : لقد اشتهرت أمريكا بين شعوب العالم بأن شعارها هو تمثال الحرية ، ومعنى ذلك أن من واجبنا أن نرحب بكل قادم ولاجىء يحتمي ببلادنا ويحلّ بأرضنا ، إن هربا من الاضطهاد أو بُعداً عن الظلم ، ويبدو أن معنى هذه الحرية قد زال تماما منذ وُضع فيها التمثال على قاعدته » .

وبعد ، ففي عام ١٩٤٦ في مدينة كولومبيا قصد زنجي وأمه الى محل لاصلاح أجهزة الراديو لاصلاح جهاز للراديو خاص بهما ، وبعد أن دفعا الأجرة المطلوبة تبين لهما أن الجهاز لا يزال على حاله لم يصلح فيه شيىء فقالت الأم الزنجية : ثلاثة عشر دولارا والراديو لا يزال أخرس ؟ فأمر صاحب المحل بطردهما، ورفس احد المستخدمين الأم برجله فخرت على وجهها ، فغضب الزنجي لأمه وضرب المعتدي عليها فأهوى به الى الارض ، فما كان من جاره الا أن صرخ في الجماهير : اقتلوا ابن الفاعلة ! وتجمهرت الجماهير وأخذت تنادي : فلنقتص منهما !

والاقتصاص من الزنوج عند الامريكان فصل رؤوسهم عن أجسادهم فورا بدون محاكمة ولا عقوبة ! وأخيرا أنقذا من بين ايدي الجماهير وسيقا الى السجن فلم يرض الجمهور ذلك بل هرع الى حي الزنوج ليقتص من الزنجية وولدها ، وحاصرت الشرطة الحي المنكود ، وطورد الزنوج المساكين في بيوتهم ومحلاتهم فنهبت وأحرقت وأطلق الرصاص على أولئك المساكين فوقع كثير بين قتيل وجريح •

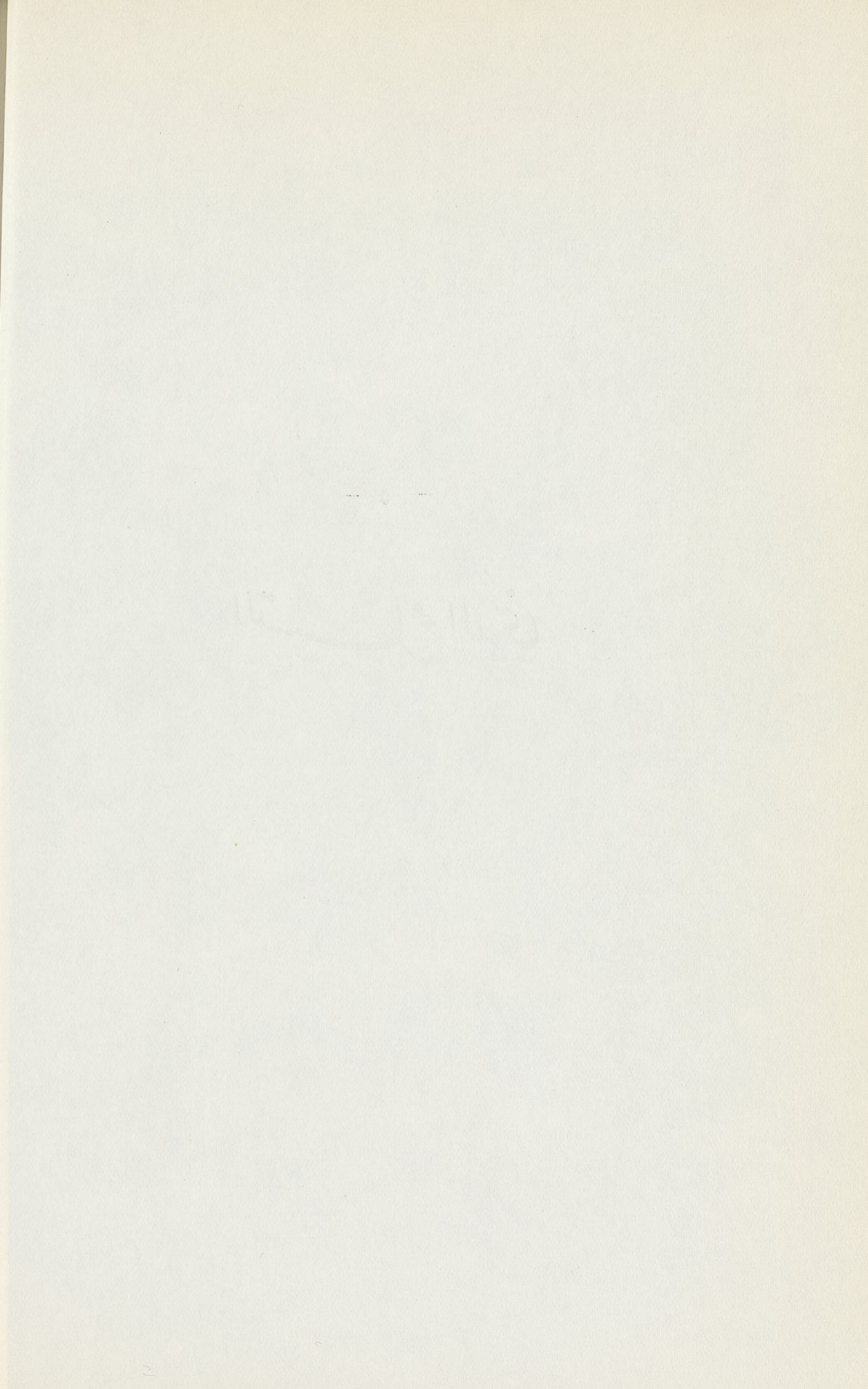
هذا كله لأن زنجية شكت الى صاحب محل أنها دفعت اجرة اصلاح الراديو من غير ان تستفيد شيئا ، وهذا مثل من حضارتهم !

وفي عام ١٠٠ من الهجرة أي منذ ثلاثة عشر قرنا شكت جارية سوداء تسمى فرتونة الى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بأن لها حائطا قصيرا يُقتحم منه عليها فيُسرق دجاجها ، فأرسل عمر فورا اليها يخبرها أنه أرسل الى والي مصر يطلب اليه أن يصلح لها حائطها ويحصن لها بيتها ، وكتب الى واليه في مصر أيوب بن شرحبيل : ان فرتونة مولاة ذي اصبح قد كتبت اليّ تذكر قصَر حائطها وأنه يسرق منه دجاجها وتسأل تحصينه لها • فاذا جاءك كتابي هذا فاركب أنت بنفسك اليه حتى تحصنه لها ! فلما وصله الكتاب ركب بنفسه الى الجيزة ليسأل عن فرتونة حتى عثر على محلها فاذا هي سوداء مسكينة فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين وحصن لها بيتها •

هذا ما فعلناه قبل ثلاثة عشر قرنا •• وهذا من روائع حضارتنا •

- ٥ -

# التسامح الديني



وهذا جانب جديد من جوانب النزعة الانسانية في حضارتنا الخالدة، جديد في تاريخ العقائد والأديان ، وجديد في تاريخ الحضارات القديمة التي ينشئها دين معين أو أمة معينة . لقد أنشأ الاسلام حضارتنا فلم يضق ذرعا بالأديان السابقة ، ولم يتعصب دون الآراء والمذاهب المتعددة، بل كان شعاره **«فبشّر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه (١) »** ومن أجل ذلك كان من مبادىء حضارتنا في التسامح الديني :

١ ــ أن الأديان السماوية كلها تستقي من معين واحد : **« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصّينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه (٢) »** .

٢ ــ وأن الانبياء اخوة لا تفاضل بينهم من حيث الرسالة ، وأن على المسلمين أن يؤمنوا بهم جميعا : **«قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون (٣) »** .

٣ ــ وأن العقيدة لا يمكن الاكراه عليها بل لا بد فيها من الاقتناع والرضا **« لا اكراه في الدين (٤) »** . **« أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين (٥) »** .

---

(١) الزمر : ١٧ — (٢) الشورى : ١٣

(٣) البقرة : ١٣٦ — (٤) البقرة : 256

(٥) يونس : ٩٩

٤ — وأن أماكن العبادة للديانات الإلهية محترمة يجب الدفاع عنها وحمايتها كحماية مساجد المسلمين« **ولولا دفعُ الله الناسَ بعضَهم ببعضٍ لهُدِّمَتْ صوامعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكر فيها اسم الله كثيرا** (١) ».

٥ — وأن الناس لا ينبغي أن يؤدي اختلافهم في ديانهم الى أن يقتل بعضهم بعضا ، أو يتعدى بعضهم على بعض ، بل يجب أن يتعاونوا على فعل الخير ومكافحة الشر« **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان** (٢) » . أما الفصل بينهم فيما يختلفون فيه فالله وحده هو الذي يحكم بينهم يوم القيامة :« **وقالت اليهود ليست النصارى على شيىء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شيىء وهم يتلون الكتاب ، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** (٣) » .

٦ — وأن التفاضل بين الناس في الحياة وعند الله بمقدار ما يقدم أحدهم لنفسه وللناس من خير وبر « الخلق كلهم عيال الله فأحبهم اليه أنفعهم لعياله [٤] » . « **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** (٥) » .

٧ — وأن الاختلاف فيالاديان لايحول دون البر والصلة والضيافة: « **اليوم أُحلّ لكم الطيباتُ وطعام الذين أوتوا الكتاب حلٌ لكم وطعامكم حلٌ لهم والمحصناتُ من المؤمناتِ والمحصناتُ من الذين أتوا الكتاب من قبلكم** (٦) » .

---

(١) الحج : ٤٠ . (٢) المائدة : ٣
(٣) البقرة : ١١٣ (٤) رواه البزار
(٥) الحجرات : ١٣ (٦) المائدة : ٦

٨ — وان اختلف النـــاس في أديـانهـم فلهـم أن يجـادل بعضهم بعضاً فيها بالحسنى ، وفي حدود الادب والحجـة والاقناع : (( **ولا تجادلوا أهل الكتـاب الا بالتي هي أحسن** (١) )) ولا تجوز البذاءة مع المخالفين ، ولا سب عقائدهم ولو كانوا وثنيين : (( **ولا تسبو الـذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم** (٢) )) .

٩ — فاذا اعتدى على الأمة في عقيدتها ، وجب رد العدوان لحماية العقيدة ودرء الفتنة :(( **وقاتلوهم حتى لاتكون فتنـة ويكون الـدين لله** (٣) )) . (( **إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم** (٤) )) .

١٠ — فاذا انتصرت الأمة على من اعتدى عليها في الدين ، أو أراد سلبها حريتها ، فلا يجوز الانتقام منهم باجبارهم على ترك دينهم ، او اضطهادهم في عقائدهم ، وحسبهم أن يعترفوا بسلطان الدولة ويقيموا على الاخلاص لها حتى يكون « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » .

هذه هي مبادىء التسامح الديني في الاسلام الذي قامت عليـه حضارتنا ، وهي توجب على المسلم أن يؤمن بأنبياء الله ورسله جميعاً ، وأن يذكرهم بالاجلال والاحترام ، وأن لا يتعرض لأتباعهم بسوء ، وأن يكون معهم حسن المعاملة ، رقيق الجانب ، لين القول ، يحسن جوارهم ويقبل ضيافتهم ، ويصاهرهم حتى تختلط الأسرة ، وتمتزج الدمـاء ، وأوجب الاسلام على الدولة المسلمـة أن تحمي أماكن عبادتهـم وأن

---

(١) العنكبوت : ٤٦ (٢) الانعام : ١٠٨
(٣) البقرة : ١٩٣ (٤) الممتحنة : ٩

لا تتدخل في عقائدهم ، ولا تجور عليهم في حكم ، وتسويهم بالمسلمين في الحقوق والواجبات العامة ، وأن تصون كرامتهم وحياتهم ومستقبلهم كما تصون كرامة المسلمين وحياتهم ومستقبلهم •

وعلى هذه الاسس قامت حضارتنا ، وبها رأت الدنيا لأول مرة ديناً ينشيء حضارة فلا يتعصب على غيره من الأديان ، ولا يطرد غير المؤمنين به من مجال العمل الاجتماعي والمنزلة الاجتماعية • وظل هذا التسامح شرعة الحضارة الاسلامية منذ وضع أساسها محمد صلى الله عليه وسلم، حتى أخذت في الانهيار ، فضاعت المبادىء ، ونسيت الأوامر ، وجهل الناس دينهم ، فابتعدوا عن هذا التسامح الديني الكريم •

**في حياة الرسول :**

لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وفيها من اليهود عدد كبير ، كان من أول ما عمله من شؤون الدولة أن أقام بينه وبينهم ميثاقاً تحترم فيه عقائدهم وتلتزم فيه الدولة بدفع الاذى ، ويكونون مع المسلمين يداً واحدة على من يقصد المدينة بسوء • فطبق بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مبادىء التسامح الديني في البذورالاولى للحضارة الاسلامية •

وكان للرسول جيران من أهل الكتاب ، فكان يتعاهدهم ببره ويهديهم الهدايا ويتقبل منهم هداياهم ، حتى أن امرأة يهودية دست له السم في ذراع شاة أهدتها اليه لما كان من عادته أنيتقبل هديتها ويحسن جوارها • ولما جاء وفد نصارى الحبشة أنزلهم رسول الله في المسجد وقام بنفسه على ضيافتهم وخدمتهم ، وكان مما قاله يومئذ : إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين فأحب أن أكرمهم بنفسي •

وجاء مرة وفد نصارى نجران فأنزلهم في المسجد وسمح لهم باقامة صلاتهم فيه ، فكانوا يصلون في جانب منـه ، ورسول الله والمسلمون يصلون في جانب آخر • ولما أرادوا أن يناقشوا الرسول في الدفاع عن دينهم ، استمع اليهم وجادلهم ، كل ذلك برفق وأدب وسماحة خلق • قبل الرسوم من المقوقس هديته ، وقبل منه جارية أرسلها اليه وتسرى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وولـدت له ولده ابراهيم الذي لم يعمر الا أشهراً قليلة • ومن وصاياه للمسلمين استوصوا بالقبط خيراً فان لكم فيهم نسبا وصهرا •

وعلى هدى الرسول الكريم في تسامحه الديني ذي النزعة الانسانية الرفيعة سار خلفاؤه من بعده • فاذا بنا نجد عمر بن الخطاب حين يدخل بيت المقدس فاتحاً يجيب سكانها المسيحيين الى ما اشترطوه : من أن لا يساكنهم فيها يهودي ، وتحين صلاة العصر وهو في داخل كنيسة القدس الكبرى ، فيأبى أن يصلي فيها كيلا يتخذها المسلمون من بعد ذريعة للمطالبة بها واتخاذها مسجداً ! ونجده وقـد شكت اليه امرأة مسيحية من سكان مصر أن عمرو بن العاص قد أدخل دارها في المسجد كرها عنهـا ، فيسأل عمرا عن ذلك فيخبره أن المسلمين كثروا وأصبح المسجد يضيق بهم وفي جواره دار هذه المرأة وقد عرض عليها عمرو ثمن دارها وبالغ في الثمن فلم ترض ، مما اضطر عمرا الى هدم دارها وادخاله في المسجد ، ووضع قيمـة الدار في بيت المال تأخـذه متى شاءت • ومع أن هذا مما تبيحه قوانيننا الحاضرة وهي حالة يعذر فيها عمرو على ما صنع ، فان عمر لم يرض ذلك ، وأمر عمرا ان يهدم البناء الجديد من المسجد ويعيد الى المرأة المسيحية دارها كما كانت !

هذه هي الروح المتسامحة التي سادت المجتمع الذي أظلته حضارتنا بمبادئها ، فاذا بنا نشهد من ضروب التسامح الديني ما لا نجد له مثيلا في تاريخ العصور حتى وفي العصر الحديث !

فمن مظاهر التسامح الديني أن كانت المساجد تجاور الكنائس في ظل حضارتنا الخالدة ، وكان رجال الدين في الكنائس يعطون السلطة التامة على رعاياهم في كل شؤونهم الدينية والكنَسية ، لا تتدخل الدولة في ذلك ، بل ان الدولة كانت تتدخل في حل المشاكل الخلافية بين مذاهبهم وتنصف بعضهم من بعض • فقد كان الملكانيون يضطهدون أقباط مصر في عهد الروم ويسلبونهم كنائسهم ، حتى إذا فتحت مصر رد المسلمون الى الأقباط كنائسهم وأنصفوهم ! وتطاول الأقباط بعد ذلك على الملكانيين انتقاما مما فعلوه بهم قبل الفتح العربي ، فشكوا ذلك الى هرون الرشيد فأمر باسترداد الكنائس التي استولى عليها القبط بمصر وردها الى الملكانيين بعد أن راجعه في ذلك بطريرك الملكانيين •

أما حرية رجال الدين في طقوسهم ، وابقاء سلطتهم على رعاياهم دون تدخل الدولة في ذلك ، فقد شعر المسيحيون من سكان البلاد بالحرية في ذلك ما لم يشعروا ببعضه في حكم الروم • ولعل أحدا منا لا ينسى موقف السلطان محمد الفاتح حين استولى على القسطنطينية مقر البطريركية الارثوذكسية في الشرق كله ، فقد أعلن يومئذ تأمين سكانها ــ وكلهم نصارى ــ على أموالهم وأرواحهم وعقائدهم وكنائسهم وصلبانهم وأعفاهم من الجندية ، ومنح رؤساءهم سلطة التشريع والفصل في الخصومات التي تقع بين رعاياهم ، دون أن تتدخل الدولة فيها !

فرأى في ذلك سكان القسطنطينية فرقا كبيرا بين ما كانوا يعاملون به في عهد البيزنطينيين وبين معاملة السلطان محمد الفاتح لهم ، اذ كان البيزنطيون يتدخلون في الخلافات المذهبية ويفضلون أتباع كنيستهم على أتباع الكنائس الاخرى ، فارتاحوا الى الحكم الجديد ، وانشرحت نفوسهم لهذا التسامح الديني الذي لم يعهدوا له مثيلا من أبناء ملتهم الحاكمين من قبل ، حتى كان بطريرك الروم بما أعطي من السلطان أشبه بحكومة وسط حكومة ، وظل هو وجماعتـه متمتعين بخير حال نحو خمسمائة سنة وهم مستقلون بالفعل ولا يتقاضاهم استقلالهم جنـدا ولا مالا • ومن المؤسف أن هذا التسامح الديني الذي لا مثيل له في التاريخ كان مبدأ الامتيازات الاجنبية التي استغلها الغربيون في أواخر القرن الماضي ومطلع القرن الحاضر استغلالا سيئا للقضاء على مظاهر السيادة الوطنية في البلاد •

ومن مظاهر التسامح الديني في حضارتنا أن كثيرا من الكنائس كان يصلي فيهـا المسلمون والمسيحيون في وقت واحـد ابان الفتح الاسلامي ! فقد رأينا كيف سمح النبي لنصارى نجران أن يصلوا في مسجده بجانب المسلمين وهم يصلون صلاتهم • وفي كنيسة يوحنـا الكبرى في دمشق التي أصبحت الجامع الاموي فيما بعـد ، رضي المسيحيون حين الفتح أن يأخذ المسلمون نصفها ، ورضي المسلمون أن يصلوا فيها صلاتهم ، فكنت ترى في وقت واحد أبناء الديانتين يصلون متجاورين ، هؤلاء يتجهون الى القبلة ، وأولئك يتجهون الى الشرق • وانه لمظهر عجيب فريد في التـاريخ له مغزى عميق في الـدلالة على التسامح الديني الذي بلغته حضارتنا !

ومن مظاهر التسامح الديني أن كانت الوظائف تعطى للمستحق الكفء ، بقطع النظر عن عقيدته ومذهبه، وبذلك كان الاطباء المسيحيون في العهدين الأموي والعباسي محل الرعاية لدى الخلفاء ، وكان لهم الاشراف على مدارس الطب في بغداد ودمشق زمنا طويلا • كان ابن اثال الطبيب النصراني طبيب معاوية الخاص ، وكان «سرجون» كاتبه • وقد عين مروان « اثناسيوس » مع آخر اسمه اسحاق في بعض مناصب الحكومة في مصر ، ثم بلغ مرتبة الرئاسة في دواوين الدولة ، وكان عظيم الثراء واسع الجاه ، حتى ملك أربعة آلاف عبد وكثيرا من الدور والقرى والبساتين والذهب والفضة ، وقد شيد كنيسة في الرها من ايجار اربعمائة حانوت كان يملكها فيها ، وبلغ من شهرته أن وكل اليه عبد الملك بن مروان تعليم أخيه الصغير عبد العزيز الذي أصبح واليا على مصر فيما بعد وهو والد عمر بن عبد العزيز •

ومن أشهر الاطباء الذين كانت لهم الحظوة عند الخلفاء جرجيس بن بختيشوع ، وكان مقرّباً من الخليفة المنصور واسع الحظوة عنده ، يحرص على راحته وسروره ، حتى كان لجرجيس زوجة عجوز ، فأرسل اليه المنصور ثلاث جوار حسان فرفض قبولهن قائلا : إن ديني لا يسمح لي بأن أتزوج غير زوجتي ما دامت في الحياة ، فسر منه المنصور وازداد له اكراما • ولما مرض أمر المنصور بحمله الى دار العامة ( أي دار الضيافة ) ، وخرج اليه ماشيا يسأل عن حاله ، فاستأذنه الطبيب في رجوعه الى بلده ليدفن مع آبائه ، فعرض عليه المنصور أن يسلم ليدخل الجنة فأبى وقال : رضيت أن أكون مع آبائي في جنة او نار ، فضحك المنصور وأمر بتجهيزه ووصله بعشرة آلاف دينار •

وكان سلمويه بن بنان النصراني طبيب المعتصم ، ولما مات جزع عليه المعتصم جزعا شديدا وأمر بأن يدفن بالبخور والشموع على طريقة ديانته !

وكان بختيشوع بن جبرائيل طبيب المتوكل وصاحب الحظوة لديه ، حتى انه كان يضاهي الخليفة في اللباس وحسن الحال وكثرة المال وكمال المروءة .

وكذلك كانت الحظوة للشعراء والادباء لدى الخلفاء والامراء ، بقطع النظر عن أديانهم ومذاهبهم . وكلنا يعلم مكانة الاخطل في العهد الاموي ، وقد كان يدخل على عبد الملك دون اذن وهو مرتد عباءة من الحرير وعليه تعويذة ، وقد تدلى من عنقه صليب ذهبي مشدود الى سلسلة ذهبية والخمر تقطر من لحيته ! وهو الذي هجا الانصار في قصيدة طويلة يقول فيها : « واللؤم تحت عمائم الانصار » فتألم الانصار لذلك وأرسلوا كبيرهم النعمان بن بشير صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على عبد الملك ورفع عمامته وقال : أترى هنا لؤما يا أمير المؤمنين ؟ فطيب الخليفة خاطره دون أن يتعرض للاخطل بسوء !

وكان الافراد كالخلفاء يصادقون من تروق لهم مصادقتهم بقطع النظر عن دينهم . كان ابراهيم بن هلال ( الصابي ) أي من الصائبة — وهم قوم من المجوس لهم ديانة خاصة بهم — قد بلغ أرفع مناصب الدولة ، وتقلد الاعمال الجليلة في تقدمه الشعراء ، وكانت بينه وبين زعماء الأدب والعلم من المسلمين صلات حسنة ، وصداقات وشيجة ، حتى أنه لما مات رثاه الشريف الرضي شيخ الهاشميين العلويين ونقيبهم بقصائد خالدة ، منها قصيدته الدالية التي يقول فيها :

أرأيت من حمـــلو على الأعواد	أرأيت كيف خبـا ضياء النادي
ما كنت أعلم قبل حطك في الثرى	أن الثرى يعلـو على الاطـواد

وظل الشريف بعد ذلك يحن اليه ويقول الشعر في رثائه في كل مناسبة ، ومن رثائه بعد ذلك وقد مر على قبره فأجهش في البكاء :

أقول لـركب رائحـين تعـرجوا	أريكم به فرعا من المجـد ذاويا
رثيتك كي اسلوك فازددت لوعـة	فكان المراثي لا تحد المرازيـا
وأعلـم أن ليس البكـاء بنافـع	عليك ولكنني أمني الامانيـا

وكانت الحلقات العلمية في حضرة الخلفاء تجمع بين مختلف العلماء على اختلاف اديانهم ومذاهبهم • كانت للمأمون حلقة علمية يجتمع فيها علماء الديانات والمذاهب كلها ، وكان يقول لهم : ابحثوا ما شئتم من العلم من غير أن يستدل كل واحد منكم بكتابه الديني ، كيلا تثور بذلك مشاكل طائفية •

ومثل ذلك كانت الحلقات العلمية الشعبية • قال خلف بن المثنى : لقد شهدنا عشرة في البصرة يجتمعون في مجلس لا يعرف مثلهم في الدنيا علما ونباهة ، وهم الخليل بن أحمد صاحب النحو ( وهو سني ) ، والحميري الشاعر (وهو شيعي) ، وصالح بن عبد القدوس (وهو زنديق ثنوي)، وسفيان بن مجاشع (وهو خارجي صفري)، وبشار بن برد (وهو شعوبي خليع ماجن) ، وحماد عجرد (وهو زنديق شعوبي) ، وابن رأس الجالوت الشاعر ( وهو يهودي ) ، وابن نظير المتكلم ( وهو نصراني ) ، وعمر بن أخت المؤيد ( وهو مجوسي ) ، وابن سنان الحراني الشاعر (وهو صابئي) ، كانوا يجتمعون فيتناشدون الأشعار ويتناقلون الأخبار ، ويتحدثون في جو من الود لا تكاد تعرف منهم أن بينهم هذا الاختلاف

الشديد في دياناتهم ومذاهبهم ! ولقد سرى هذا التسامح الى البيوت والأسر فكان يجتمع في البيت الواحد أربعة اخوة أحدهم سني ، والثاني شيعي ، والثالث خارجي ، والرابع معتزلي ، وكانوا يعيشون على أتم وفاق . حتى أنه لقد كان في البيت الواحد التقي والفاجر ، هذا ينصرف الى عبادته وذاك يستغرق في مجونه . ومما تذكره كتب الادب من هذا السبيل أن أخوين كانا يسكنان دارا واحدة ، وكان أحدهما تقيا يسكن في الطابق الارضي والآخر ماجنا يسكن في الطابق العلوي ، فسهر ليلة هذا الماجن وعنده بعض أصحابه يغنون ويطربون ويضجون ، مما أزعج التقي ومنعه النوم ، فمد التقي رأسه الى أخيه الماجن وناداه : أفأمن الذين مكروا السيئآت أن يخسف الله بهم الارض ، فأجابه الماجن فورا : وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم .

ومن مظاهر التسامح الديني في حضارتنا الاشتراك بالاعيادالدينية بمباهجها وزينتها . فمنذ العهد الاموي كانت للنصارى احتفالاتهم العامة في الشوارع تتقدمها الصلبان ورجال الدين بألبستهم الكهنوتية . وقد دخل البطريرك ميخائيل مدينة الاسكندرية في احتفال رائع وبين يديه الشموع والصلبان والأناجيل ، والكهنة يصيحون : قد أرسل الرب الينا الراعي المأمون الذي هو مرقس الجديد . وكان ذلك في عهد هشام بن عبد الملك .

وجرت العادة أيام الرشيد بأن يخرج النصارى في موكب كبير وبين أيديهم الصليب وكان ذلك في يوم عيد الفصح .

ويذكر لنا المقدسي في أحسن التقاسيم أن الأسواق في شيراز كانت تزين في أعياد النصارى ، وأن المصريين كانوا يحتفلون ببدء زيادة النيل في وقت عيد الصليب .

ويذكر لنا المقريزي في خططه أن الناس — في عهد الاخشيديين — كانوا يحتفلون بعيد الغطاس احتفالا كبيرا ، ففي عام ٣٣٠ هـ جرى الاحتفال بعيد الغطاس احتفالا رائعا ، وجلس محمد بن طغج الاخشيدي بقصره المختار في جزيرة المنيل ، وقد أسرج حوله ألف قنديل ، وجاراه الشعب فأوقد المشاعل والقناديل والشموع ، وزخرت القوارب بآلاف من النصارى والمسلمين ، ولم يبق من كثرة الناس موضع لقدم على أسطح الدور وشواطىء النهر ، ولبس الجميع أحسن ما عندهم من الثياب وأبهجها ، وأخرجوا الكثير من المآكل والمشرب ووضعوهما في أوان من الفضة والذهب ، وكانت ليلة لم تغلق فيها الدروب ، وغطس معظم الناس اعتقاداً منهم أن الاستحمام ليلة الغطاس أمان من المرض وابراء من الداء .

ومن الغريب أن مثل هذه المظاهر من الود ظلت حتى في الحروب الصليبية حيث كان الغرب يشن أقسى الحملات التاريخية على بلاد الاسلام باسم الصليب ، وهذا هو الرحالة ابن جبير يقول لنا في رحلته : ومن أعجب ما يحدث أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى وربما يلتقي الجمعان منهم ويقع المصاف بينهم ، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض . واختلاف القوافل عن مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم ، وهي من الأمنة على غاية ، وتجار النصارى يؤدون في بلاد المسلمين ضريبة على سلعهم ، والاتفاق بينهم الاعتدال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس في عافية والدنيا لمن غلب .

* * *

وبعد ، فإن التسامح الديني في حضارتنا مما لا يعهد له مثيل في تاريخ العصور الماضية ، وقد أجمع المؤرخون الغربيون ممن يحترمون الحق على هذا التسامح وأشادوا به .

يقول المستر « درابر » الامريكي المشهور : ان المسلمين الأولين في زمن الخلفاء لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام ، بل فوضوا اليهم كثيراً من الاعمال الجسام ورقوهم الى مناصب الدولة ، حتى أن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا بن ماسويه ، ولم يكن ينظر الى البلد الذي عاش فيه العالم ، ولا الى الدين الذي ولد فيه ، بل لم يكن ينظر إلا الى مكانته من العلم والمعرفة .

ويقول المؤرخ الشهير المعاصر ( ولز ) في صدد بحثه عن تعاليم الاسلام : « انها أسست في العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم ، وانها لتنفخ في الناس روح الكرم والسماحة ، كما انها انسانية السمة ، ممكنة التنفيذ ، فانها خلقت جماعة انسانية يقل ما فيها مما يغمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعي عما في أية جماعة أخرى سبقتها ... » الى أن يقول عن الاسلام : « انه مليء بروح الرفق والسماحة والأخوة » .

ويقول السر « مارك سايس » في وصف الامبراطورية الاسلامية في عهد الرشيد : « وكان المسيحيون والوثنيون واليهود والمسلمون على السواء يعملون في خدمة الحكومة » .

ويقول ( ترنون ) : « لم يكن للدين دخل في معاملة الشعراء والمغنين » .

ويقول ( ليفي بروتتسال ) في كتابه أسبانيا الاسلاميــة في القرن العاشر : « إن كاتب الذمم كثيرا ما كان نصرانيا أو يهوديا ، والوظائف مما يتقلده النصارى واليهود ، وقد كانوا يتصرفون للدولة في الأعمال الادارية والحربية ، ومن اليهود من كانوا ينوبون عن الخليفة بالسفارات الى دول أوربا الغربية » .

ويقول « رينو » في تاريـخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط : « إن المسلمين في مدن الاندلس كانوا يعاملون النصارى بالحسنى ، كمـا أن النصارى كانوا يراعون شعور المسلمين فيختتنون أولادهم ولا يأكلون لحم الخنزير » .

ويقول « ارنولد » وهو يتحدث عن المذاهب الدينية بين الطوائف المسيحية : « ولكن مبادىء التسامح الاسلامي حرمت مثل هذه الاعمال التي تنطوي على الظلم ، بل كان المسلمون على خلاف غيرهم إذ يظهر لنا أنهم لم يألوا جهدا في أن يعاملوا كل رعاياهم من المسيحيين بالعدل والقسطاس ، مثال ذلك : أنه بعد فتح مصر استغل اليعاقبة فرصة اقصاء السلطات البيزنطيـة ليسلبوا الارثوذكس كنائسهم ، ولكن المسلمين أعادوها أخيرا الى أصحابها الشرعيين بعـد أن دلل الارثوذكس على ملكهم لها » ... وإذا نظرنا الى التسامح الذي امتد على هذا النحو الى رعايا المسلمين من المسيحيين في صـدر الحكم الاسلامي ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس الى الاسلام بعيدة التصديق .

وإذا كنا قد توسعنا في التدليل على التسامح الديني في حضارتنا ، فانما نريد أن نرد فرية هؤلاء الغربيين المتعصبين على تاريخنا بأننا كنا

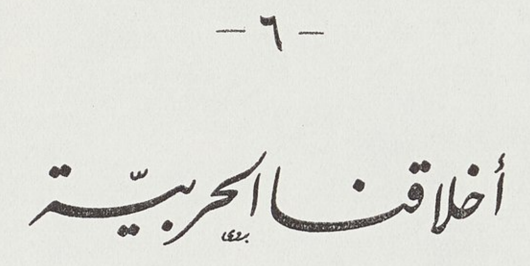
قساة أكرهنا الناس على الدخول في ديننا وعاملنا غير المسلمين بكل مذلة واضطهاد . وكان من الخير لهم أن لا يفتحوا على أنفسهم هذا الباب ، فان مخازيهم في التعصب الديني ضد المسلمين في الحروب الصليبية وفيأسبانيا وفيالعصر الحاضر مما يطأطؤون منه رؤوسهم حياء وخجلاً، بل ان مخازيهم في اضطهاد بعضهم لبعض مما لا ينكره كل دارس للتاريخ ، وهذه مذابح الكاثوليك والبروتستانت ، وخاصة مذبحة « سانت بارتلمي » ، والحروب الدينية التي شنتها البابوية على مخالفيها من شعوب أوروبا ، ومآسي محاكم التفتيش في القرون الوسطى ، كل ذلك دليل لا يُرَدّ على أن الغربيين من أشد الناس تعصبا وحقدا على مخالفيهم في الرأي والعقيدة ولو كانوا من أبناء جلدتهم ! وأنهم لم يعرفوا التسامح الديني خلال تاريخهم في العصور القديمة كلها ، ولا يزالون حتى اليوم يتحكم فيهم هذا التعصب الديني المقيت ضد المسلمين تحت ستار شفاف من السياسة والاستعمار .

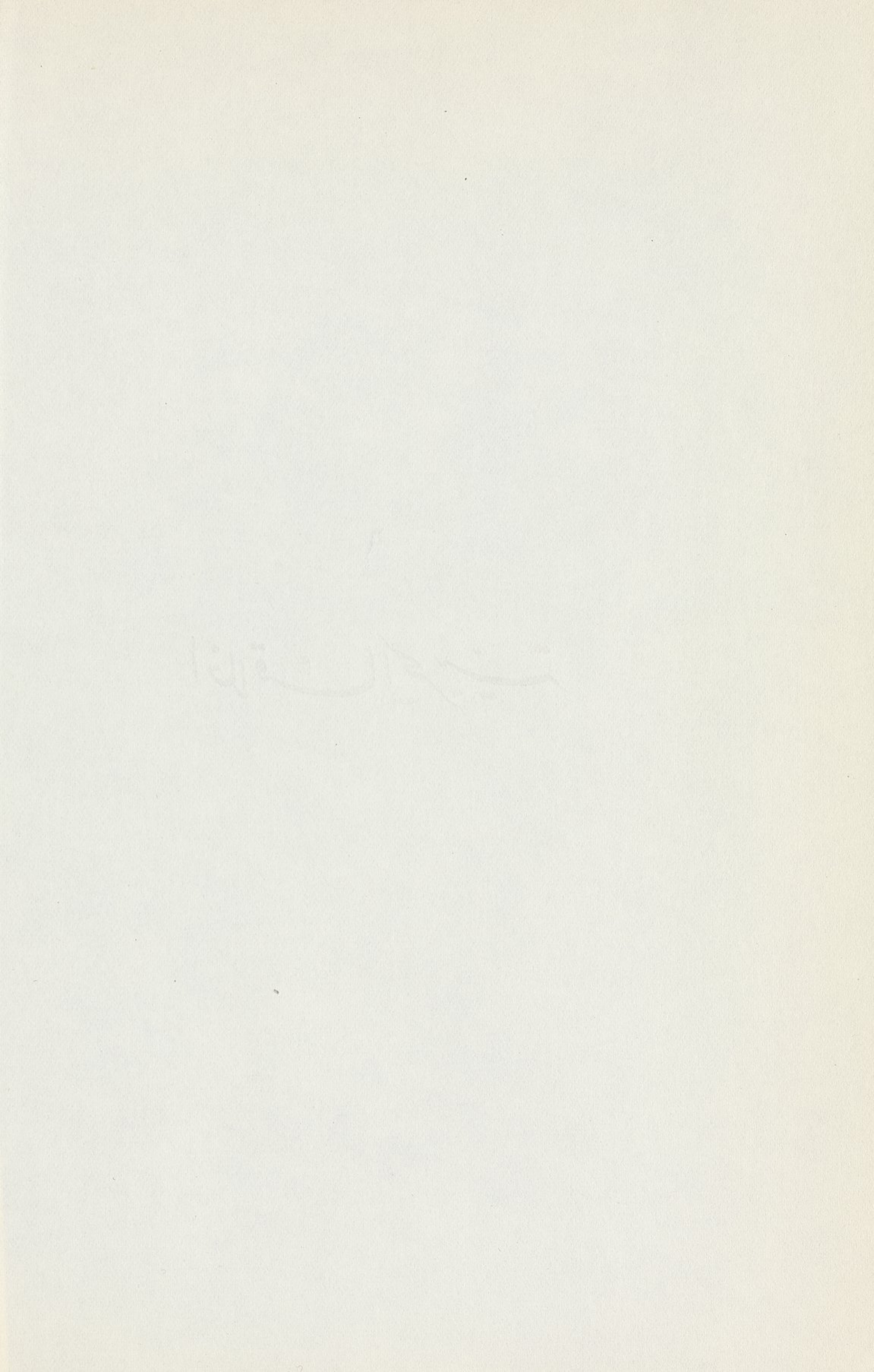
ونرى خير مانختم به هذا البحث فيالتدليل على تسامحنا وتعصبهم، شهادة لحبر كبير من أحبار النصرانية ليس بمتَّهم في تحيزه . لقد تحدث بطريرك انطاكية ميخائيل الأكبر وقد عاش في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ــ بعد أن خضعت الكنائس الشرقية للحكم الاسلامي خمسة قرون ــ عن تسامح المسلمين واضطهاد الروم للكنائس الشرقية : « وهذا هو السبب في أن إله الانتقام الذي تفرد بالقوة والجبروت والذي يديل دولة البشر كما يشاء فيؤتيها من يشاء ويرفع الوضيع ، لما رأى شرور الروم ، الذين لجأوا الى القوة فنهبوا كنائسنا وسلبوا أديارنا في كافة ممتلكاتهم وأنزلوا فينا العقاب في غير رحمة ولا شفقة ، أرسل أبناء

اسماعيل ( العرب ) من الجنوب ( الجزيرة العربية ) ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم ، وفي الحق أننا اذا كنا قد تحملنا شيئا من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا واعطائها لأهل خلقيدونية ، فقد استمرت هذه الكنائس في حوزتهم ، ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التي وجدت في حوزتها ـ وفي ذلك الوقت كانت قد انتزعت منا كنيسة حمص الكبرى وكنيسة حوران ـ مع ذلك لم يكن كسبا هينا أن تتخلص من قسوة الروم وأذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا ، وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام » .

ألست ترى معي أن قول غوستاف لوبون : « إن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ولا دينا سمحا مثل دينهم » هو إنصاف للحق قبل أن يكون انصافاً للمسلمين ؟!..




- ٦ -
أخلاقنا الحربيّة



واليكم جانباً جديداً من جوانب النزعة الانسانيـة في حضارتنا ، وهو جانب تنفرد به حضارتنا أيضا • إن حسن الخلق ، ولين الجانب ، والرحمة بالضعيف ، والتسامح مع الجار والقريب ، تفعله كل أمة في أوقات السلم مهما أوغلت في الهمجيـة • ولكن حسن المعاملـة في الحرب ، ولين الجانب مع الاعداء ، والرحمة بالنساء والاطفال والشيوخ ، والتسامح مع المغلوبين ، لا تستطيع كل أمة أن تفعله ، ولا يستطيع كل قائد حربي أن يتصف به • إن رؤية الدم تثير الدم ، والعداء يؤجج نيران الحقد والغضب ، ونشوة النصر تسكر الفاتحين فتوقعهم في أبشع أنواع التشفي والانتقام ، ذلك هو تاريخ الدول قديمها وحديثها ، بل هو تاريخ الانسان منذ سفك قابيل دم أخيه هابيل : **« إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال : لأقتلنك ، قال : إنما يتقبل الله من المتقين (١) »** • وهنا يضع التاريخ اكليل الخلود على قادة حضارتنا عسكريين ومدنيين ، فاتحين وحاكمين ، اذ انفردوا من بين عظماء الحضارات كلها بالانسانية الرحيمة العادلة في أشد المعارك احتداما ، وفي أوقات الحالات التي تحمل على الانتقام والثأر وسفك الدماء • وأقسم لولا أن التاريخ يتحدث عن هـذه المعجزة الفريـدة في تاريخ الأخلاق الحربية بصدق لا مجال للشك فيـه ، لقلت إنها خرافـة من الخرافات ، وأسطورة لا ظل لها على الأرض !

جاءت حضارتنا والعالم كله يسير على سنة الغاب • القوي يقتل

---

(١) المائدة : ٢٧

الضعيف ، والمسلّح يسترق الأعزل ، والحرب شرعة معترف بها بين جميع الشرائع والديانات والأمم والشعوب ، من غير قيد ولا حدّ ، ومن غير تفريق بين حرب جائزة وحرب ظالمة ، فكل من أستطاع أن يغلب أمة على أرضها ، ويكرهها على ترك عقيدتها ، ويسترق رجالها ونساءها ، فعل من غير تحرج ولا تأثم . فلم ترض حضارتنا أن تقر هذه الشرعة الظالمة التي تردت فيها الانسانية الى مستوى الحيوانية الشرسة ، بل أعلنت أن الاصل في العلائق بين الأمم التعارف والتعاون : (( **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا** (١) )). وبذلك كان السلم هو العلاقة الطبيعية بين الشعوب : (( **يا أيها الذين آمنوا ادخلو في السلم كافة** (٢) )) . فاذا أبت أمة الا الحرب والعدوان على أمة أخرى ، كان على هذه الامة أن تستعد لمجابهة العدوان ، فإنّ ترك الاستعداد يغري بالعدوان ويسرع به : (( **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** (٣) )). فاذا عدلت تلك الامة عن نية العدوان ورهبت السلم المسلّح ، كان على الأخرى أن تركن الى السلم وتحرص عليه : (( **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله** (٤) )) . وإن أبت الا الحرب ، فالقوة تدفع القوة ، وهنا تعلن مبادىء حضارتنا تحريم الحروب للغزو ونهب الاموال ، والعدوان يدفع بمثله :(( **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم** (٥) )) . واذلال كرامة الشعوب ، وانما الحرب المشروعة كانت لغايتين اثنتين :

١ ـ دفاع عن عقيدة الأمة وأخلاقها .

---

(١) الحجرات : ١٣
(٢) البقرة : ٢٠٨
(٣) الانفال : ٦٠
(٤) الانفال : ٦١
(٥) البقرة : ١٩٤

٢ ـ ودفاع عن حرية الشعب واستقلاله وسلامه ، **« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةٌ ويكونَ الدين لله (١) »** • وليست حرية العقيدة هي المطلوبة للأمة التي تعلن الحرب فحسب ، بل عليها أن تضمن حرية العقائد كلها ، وتحمي أماكن العبادة لكل الديانات : **« ولولا دفعُ الله الناسَ بعضَهُمْ ببعض لهدِّمَتْ صوامعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يذكر فيها اسم الله كثيرا (٢) »** • وأروع مانادت به حضارتنا أن الدفاع عن الضعفاء المستذلين في الشعوب الاخرى واجب علينا كما يجب الدفاع عن حريتنا وكرامتنا : **« وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرْجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا (٣) »** • هذه الحرب التي تعلن للدفاع عن العقيدة وعن الحرية والسلم هي الحرب المشروعة التي توصل الى الله وتمنح الجنة لشهدائنا ، هي الحرب التي وصفتها حضارتنا بأنها حرب في سبيل الله ، وما عداها فهي حرب في سبيل الطغيان والفساد • وما أروع هذه المقارنة بين الحرب الجائزة في حضارتنا ، والحرب المعروفة عند الأمم كلها في هذه الآية القرآنية الكريمة : **« الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفا (٤) »** • حضارتنا تعلن الحرب في سبيل الله ، أي طريقه ، وطريق الله خير وحق وكرامة ، والناس يعلنون حرباً للطغيان والشيطان ، والشيطان شر وبغي وفساد •• واذا كانت هذه الغاية من حروب حضارتنا ، لم يجز لها حين تعلن الحرب في سبيل الحق

---

(١) البقرة : ١٩٣ (٢) الحج : ٤٠

(٣) النساء : ٧٥ (٤) النساء : ٧٦

والخير أن تنقلب الى أداة تصنع الباطل والشر . ومن أجل ذلك كان من مبادىء حضارتنا في الحرب أن لا تقاتل إلا من يقاتلها ويعتدي عليها : « **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** (١) » فإن تجاوزنا ذلك فقاتلنا من لم يقاتل وآذينا من لم يؤذ ، كنا معتدين ننحرف بالحرب الانسانية عن غاياتها وأهدافها : « **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين** (٢) » . « **ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم** (٣) ». فاذا قامت الحرب كان علينا أن لا ننسى مبادئنا ، فنقسو ونفسد ونظلم وننشر الخراب والدمار .. كلا .. فالحرب الانسانية الخالصة لله يجب أن تظل انسانية في وسائلها وعند اشتداد وطيسها . ومن هنا جاءت الوصايا التي لم يسبق اليها في التاريخ : « لا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له [٤] » .

ارأيت كيف تكون الحرب الانسانية التي تشرع في سبيل الله لا للشر والعدوان ؟.. وتستمر هذه الحرب متقيدة بهذه المبادىء الانسانية الرحيمة حتى تنتهي بأحد أمرين : إما الصلح ، وإما النصر . أما الصلح فالعهود فيه محترمة ، والوفاء بما تضمنته واجب : « **وأوفوا**

---

(١) البقرة : ١٩٤ (٢) البقرة : ١٩٠

(٣) الشورى : ٤١ ، ٤٢ (٤) من وصية ابي بكر لجيش أسامة

**بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا (١) »** . وأما النصر ، فهو انتصار الجماعة التي غضبت للحق واستشهدت في سبيله ، فلن تفعل حين انتصارها الا ما يوطد أركان الحق في الارض ، ويمنع البغي والفساد بين الناس : **« الذين انْ مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونَهَوا عن المنكر ، ولله عاقبة الامور (٢) »** . وهذا كما ترون تحديد لأعمال الدولة المنتصرة ورسالتها بعد النصر : سمو بالروح ، وعدالة في المجتمع ، وتعاون على الخير ونفع الناس ، ومكافحة للشر والفساد في الارض .

هذه هي مبادىء الحرب في حضارتنا ، وتلك هي أخلاقنا الحربية : عدل ورحمة ووفاء .

وليس يكفي هذا في رأينا للاشادة بروح حضارتنا المسالمة في الحرب ، فالمبادىء وحدها ليست دليلا على سمو أمة وانسانيتها . ولطالما رأينا أمما تحمل للناس أرفع المبادىء وهي تعيش معهم في أقساها وأخسها وأبعدها عن الانسانية والرحمة ! وما حوادث الاستعمار في بلادنا بسر ، ولا سجل فظائعه وقسوته عنا ببعيد . إذاً فلننظر في الواقع التطبيقي لهذه المبادىء كيف كان في حضارتنا ، هنا تسودُّ وجوه وتبيضُّ وجوه ، وهنا نمتاز عن الشعوب كلها ، ونقف وحدنا لا يشاركنا في نزعتنا الانسانية في الحرب شعب ولا حضارة .

ولنبدأ قبل كل شيء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو رائد حضارتنا وواضع أساسها وشريعتها ، وهو التعبير الصادق عن أخلاقها

---

(١) النحل : ٩١ (٢) الحج : ١٤

وأهدافها ورسالتها ، ولسنا نعلم أحدا من الانبياء والمرسلين والمصلحين عُذب واضطُهد وأوذي في سبيل دعوته كمـا وقع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثلاثة عشر عاماً في مكة .. كلهـا كيد وأذى وسب وتعذيب له ولجماعته ، ومؤامرات على حياته وحياة أصحابه . وعشر سنوات في المدينة .. هي كفاح ومعارك متواصلة ، لم يخلع فيها لباس الحرب الا حين خضعت له جزيرة العرب قبيل وفاته ! ومن خاض الحروب وحمل السيف ، وقاتل وقوتل ، وعودي واضطهد ، كان من أشد الناس شوقاً الى الدماء ، وظمأ الى الانتقام . فكيف كان خلق رسول الله في حروبه ؟ كيف طبق صاحب الحضارة مبادئها التي أعلنها للناس ؟ ..

حين انهزم المسلمون في أحُد لمخالفتهم وصايا الرسول ، وأحاط الاعداء به يجهدون جهدهم لقتله ، ودافع عنه أصحابه دفاعا مستميتاً ، خرج من المعركة جريحاً ، قد كسرت رباعيته ، وشج وجهه ، ودخلت حلقتان من حلقات المغفر في وجنته . فقال له بعض الصحابة : لو دعوت عليهم يا رسول الله ، فقـال لهم : « اني لم ابعث لعانا ، ولكني بعثت داعية ورحمة .. اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون » . هذا هو منطق الحق الذي يُضطر للحرب ، هذا هو منطق النبي الذي لا يحارب ظمأ الى سفك الدماء ، ولكن رغبة في هداية الضالين .

وفي معركـة أحد قتل أسد الله حمزة ، عم النبي وأشهر أبطـال العرب ، قتله رجل يقال له وحشي ، بتحريض من هند زوج أبي سفيان. ولما خر البطل ، أخذت هنـد تفتش عن قلب حمزة حتى احتزته ، ثم مضغته مبالغة في التشفي والانتقام ! ثم أسلمت هند وأسلم وحشي . فماذا كان من رسول الله ؟ لم يزد على أن استغفر لهند ، وقبل اسلام

وحشي وقال له : ان استطعت أن تعيش بعيداً عنا فافعل . هذا كل ما كان من رسول الله مع قاتل عمه حمزة ومع ماضغة قلبه ! ورأى في بعض حروبه امرأة من الاعداء مقتولة ، فغضب وأنكر وقال : ألم أنهكم عن قتل النساء ؟ ما كانت هذه لتقاتل . هذا هو رسول الله المحارب يطبق مبادئه الانسانية وهو يخوض الغمار ويقود الكتائب . ولما فتح مكة ودخلها الرسول ظافرا على رأس عشرة آلاف من أبطاله وجنوده ، واستسلمت قريش ، ووقفت تحت قدميه على باب الكعبة ، تنتظر حكم الرسول عليها بعد أن قاومته احدى وعشرين سنة .. ما زاد صلى الله عليه وسلم على أن قال : يا معشر قريش : ماذا تظنون أني فاعل بكم ؟.. قالوا خيرا : أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال اليوم أقول لكم ما قال أخي يوسف من قبل : لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . اذهبوا فأنتم الطلقاء .. انه أيها الناس محمد الرسول معلم الانسانية الخير ، لا القائد السفاح الذي يسعى لمجده وسلطانه فتسكره نشوة النصر .

وسيرة أصحابه وخلفائه من بعده في حروبهم وفتوحاتهم كانت قبسا من هذا النور ، وسيراً في هذا الطريق ، وتنفيذا لتلك المبادىء ، لم يفقدوا أعصابهم في أشد الاوقات حرجا ، ولم ينسوا مبادئهم في أعظم الفتوحات انتصارا .

ثار بعض سكان لبنان على عاملها علي بن عبد الله بن عباس ، فحاربهم وانتصر عليهم ، ورأى من الحكمة أن يفرقهم ويجلي فريقا منهم عن ديارهم الى أماكن أخرى ، وهذا أقل ما يمكن أن يفعله اليوم حاكم في أرقى الأمم ، فماكان من الامام الاوزاعي ، امام الشام ومجتهدها

وعالمها ، الا ان كتب الى والي لبنان رسالة ينكر عليه ما فعل ، من اجلاء بعض اللبنانيين عن قراهم ، ومعاقبة من لم يشترك في الثورة كمن اشترك فيها . وكان مما كتب اليه في ذلك : « وقد كان من اجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ، ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه ، ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم الى قراهم ما قد علمت ، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وحكم الله تعالى أن لا تزر وازرة وزر أخرى ، وهو أحق ما وُقف عنده واقتُدي به ، وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصيةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه قال : «من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة[1] » .

فما كان من والي لبنان الا أن ردهم الى قراهم معززين مكرمين! أنا لا أريد أن أعلق على هذه الحادثة ، وحسبي أن اذكّر الناس بما كان يعاملنا به الفرنسيون في ثورتنا ، يوم كانوا في هذه البلاد ، وما يعاملون به الآن سكان الشمال الافريقي العربي من تقتيل عشرات الالوف بالجملة ، وتخريب عشرات المدن والقرى فوق رؤوس سكانها حتى تسوى بالارض ، وتصبح قاعا صفصفا . وحسبي أن أذكّر الناس بمآثر الانجليز في فلسطين ابان الثورات العربية فيها .. حسبي هذا لأصل الى ما أريد من لفت الانظار الى روائع حضارتنا في الحروب والفتوحات .

ولما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز ، وفد اليه قوم من أهل سمرقند ، فرفعوا اليه أن قتيبة قائد الجيش الاسلامي فيها دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين غدرا بغير حق . فكتب عمر الى عامله هناك أن ينصب لهم قاضيا ينظر فيما ذكروا ، فان قضى باخراج المسلمين من سمرقند أخرجوا .

---

(١) رواه ابو داود والبيهقي في سننهما .

فنصب لهم الوالي ( جميع بن حاضر الباجي ) قاضيا ينظر في شكواهم ، فحكم القاضي وهو مسلم ، باخراج المسلمين ! على أن ينذرهم قائـد الجيش الاسلامي بعد ذلك ، وينابذهم وفقا لمبادىء الحرب الاسلامية ، حتى يكون أهل سمرقند على استعداد لقتال المسلمين فلا يؤخذوا بغتة. فلما رأى ذلك أهل سمرقند ، رأوا ما لا مثيل له في التاريخ من عدالة تنفذها الدولة على جيشها وقائدها ! قالوا : هذه أمة لا تحارب ، وانما حكمها رحمة ونعمة . فرضوا ببقاء الجيش الاسلامي ، وأقروا أن يقيم المسلمين بين أظهرهم . أرأيتم .. جيش يفتح مدينة ويدخلها ، فيشتكي المغلوبون للدولة المنتصرة ، فيحكم قضاؤها على الجيش الظافر ويأمر باخراجه ، ولا يدخلها بعد ذلك الا أن يرضى أهلهـا ! .. أرأيتم في التاريخ القديم والحديث حربا يتقيد أصحابها بمبادىء الاخلاق والحق كما تقيد به جيش حضارتنا ؟ اني لا أعلم في الدنيا كلها مثل هذا الموقف لأمة من أمم الارض .

ولما فتحت جيوشنا الظافرة دمشق وحمص وبقية المدن السورية ، وأخذوا من أهلها مبالغ من المال صلحا لقاء حمايتهم والدفاع عنهم ، رأى قادتنا بعد أن جمع هرقل لهم الجموع لينازلهم في معركة فاصلة ، أن يخلوا المدن المفتوحة ويتجمعوا في مكان واحد ينازلون به الروم مجتمعين . وخرج جيشنا من حمص ودمشق والمدن الأخرى ، وجمع خالد أهل حمص وأبو عبيدة أهل دمشق ، وغيرهما من القادة أهل المدن الأخرى وقال لهم : انا كنا قـد أخذنا منكم أموالا على أن نحميكم وندافع عنكم ، ونحن الآن خارجون عنكم لا نملك حمايتكم ، فهذه أموالكم نردهـا اليكم ! فقال أهل المدن : ردكـم الله ونصركم ، والله

لحكمكم وعدلكم أحب الينا من جور الروم وظلمهم • والله لو كانوا مكانكم لما دفعوا الينا شيئا أخذوه ، بل كانوا يأخذون معهم كل شيىء يستطيعون حمله ! نعم كما تفعل الجيوش في العصر الحاضر اليوم حين تضطر للجلاء عن مدينة لا تترك فيها أثرا ينتفع منه العدو • فهل سمعتم بمثل هذا ؟ أما والله لولا أني أومن بالمثل العليا وانتصارها ، ولو كنت ممن يخضعون المبادىء للغايات السياسية كما يفعل ساسة هذا العصر ، لقلت ان قادة جيشنا بلغوا في التمسك بالمبادىء والمثل العليا حد الغفلة والبلاهة ، ولكنهم قوم مؤمنون يكرهون أن يقولوا ما لا يفعلون •

وفي حروب التتار في بلاد الشام ، وقع بأيديهم كثير من أسرى المسلمين والنصارى واليهود ، ثم تدخل شيخ الاسلام ابن تيمية مع أمير التتار في أمر الاسرى وفك أسرهم ، فأجابه الامير الى فك أسرى المسلمين فقط دون النصارى واليهود ، فأبى شيخ الاسلام ذلك وقال له : لا بد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ، ولا ندع أسيرا لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة •

وهل أتاكم نبأ الحروب الصليبية التي شنها علينا الغربيون في القرون الوسطى ؟ •• أما سمعتم كيف كنا نفي ويغدرون ، ونصفح وينتقمون ، ونصون الدماء ويخوضون فيها الى الركب وهم يتلذذون ويطربون ؟••

حين وصل الصليبيون في الحملة الثانية الى معرة النعمان حاصروها حتى اضطر أهلها للاستسلام ، بعد أن أخذوا من رؤساء الحملة عهودا مؤكدة بالمحافظة على النفوس والاموال والاعراض• فما كادوا يدخلونها حتى ارتكبوا من الفظائع ما تشيب لهوله الولدان • وقدر بعض المؤرخين الافرنج الذين كانوا في هذه الحملة عدد الذين قتلوهم بين رجال ونساء

وأطفال بمائـة ألف ! ثم تابعوا سيرهم الى بيت المقـدس ، وشددوا الحصار على أهلها ، ورأى أهلها أنهم مغلوبون لا محالة فطلبوا من قائد الحملة ( طنكرد ) الأمان على أنفسهم وأموالهم . فأعطاهم رايته يرفعونها على المسجد الاقصى ويلجؤون اليه آمنين على كل شيىء . ودخلوا المدينة بعد ذلك ، فيا لهول المجزرة ، ويا لقسوة الاجرام ! .. لجأ سكان القدس الى الاقصى الذي رفعوا فوقه راية الأمان ، حتى اذا امتلأ بمن فيه من شيوخ وأطفال ونساء ذبحوا ذبح النعاج ، فسالت الدماء في المعبد حتى ارتفعت الى ركبة الفارس . وطهرت المدينة بذبح كل من فيها تماما ، حتى كانت شوارعها تعج بالجماجم المحطمة والاذرع والارجل المقطعة والاجسام المشوهة . ويذكر مؤرخونا أن عدد الذين ذبحوا في داخل المسجد الاقصى فقط سبعين ألفا ! منهم جماعة كبيرة من الائمة والعباد والزهـاد فضلا عن النساء والاطفـال . ولا ينكر مؤرخوا الفرنج هذه الفظائع ، وكثير منهم يتحدثون عنها فخورين !

وبعد ٩٠ سنة من هذه المجزرة فتح صلاح الدين بيت المقدس فماذا فعل ؟.. لقد كان فيها ما يزيد على مائة ألف غربي بذل لهم الامان على أنفسهم وأموالهم ، وسمح لهم بالخروج لقاء مبلغ قليل يدفعه المقتدرون منهم ، وأعطاهم مهلة للخروج أربعين يوما ، فجلى منها أربعة وثمانون ألفا لحقوا باخوانهم في عكا وغيرها ، ثم أطلق كثيرا من الفقراء من غير الفدية . وأدى أخوه الملك العادل الفدية عن ألفي رجل منهم . وعامل النساء معاملة لا تصدر عن أرقى ملك منتصر في العصر الحـديث . ولما أراد البطريرك الافرنجي ان يخرج ، سمح له بالخروج ومعه من أموال البِيَع والصخرة والاقصى والقيامة ما لا يعلمه الا الله . واقترح

بعض حاشية صلاح الدين عليه أن يأخذ ذلك المال العظيم ، فأجابه السلطان : « لا أغدر به » ولم يأخذ منه الا ما كان يأخذه من كل فرد .
ومما يزيد في روعة هذا العمل الانساني الذي عمله صلاح الدين في فتح بيت المقدس ، أنه أرسل مع جماهير الغربيين الذين نزحوا من القدس لينضموا الى اخوانهم من يحميهم ويوصلهم الى أماكن الصليبيين في صور وصيدا بأمان ، مع أنه لا يزال في حرب معهم ! فهل تستطيعون أن تضبطوا أعصابكم حين تسمعون مثل هذا ؟ واسمعوا بقية القصة ..
اجتمع كثير من النساء اللواتي دفعن الجزية وذهبن الى السلطان يتوسلن اليه قائلات انهن اما زوجات او امهات او بنات لبعض من أسر او قتل من الفرسان والجنود ولا عائل لهن ولا مأوى ، ورآهن يبكين فبكى معهن تأثرا وشفقة ، وأمر بالبحث عن الاسرى من رجالهن ، وأطلق الذين وجدهم وردهم الى نسائهم . اما اللواتي مات أولياؤهن فقد منحنهن مالا كثيرا ، جعلهن يلهجن عليه بالثناء أينما سرن . ثم سمح لهؤلاء الذين أعتقهم أن يتوجهوا مع نسائهم وأولادهم الى سائر اخوانهم اللاجئين في صور وعكا .. فعل هذا بينما قصد بعض الفقراء الغربيين الذين تركوا القدس بعد فتحها الى انطاكية ، فأبى أميرها الصليبي أن يقبلهم ، فهاموا على وجوههم حتى آواهم المسلمون . وذهب فريق منهم الى طرابلس وهي تحت حكم اللاتين ، فطردوهم وأبوا قبولهم وسرقوا أمتعتهم التي منحهم اياها المسلمون !

ان قصة صلاح الدين مع الغربيين في الحروب الصليبية تشبه الاساطير . ولولا أن الغربيين أنفسهم لا يكاد ينتهي عجبهم من نبل هذا البطل الخالد وسمو أخلاقه، لكان هنالك مجال لاتهام مؤرخينا بالمبالغة.

والغربيون أنفسهم هم الذين يذكرون عن صلاح الدين أنه بلغه مرض ريتشارد قلب الاسد ـ أكبر قواد الحملات الصليبية وأشجعهم ـ فأرسل اليه صلاح الدين طبيبه الخاص يحمل اليه العلاج والفواكه التي لا يمكن ان يحصل عليها ذلك القائد الصليبي . هذا والحرب بينهما مستعرة ، وجيشاهما في صراع ! وهم الذين يذكرون أن امرأة غربية ألقت بنفسها على خيمة السلطان صلاح الدين تبكي وتولول وتشكو اليه ان اثنين من جنود جيشه خطفا لها ولدها ، فبكى صلاح الدين وأرسل من يفتش عن الولد حتى وجدوه وسلّم اليها . وأرسلت بحراسة الجيش الى معسكرها آمنة مطمئنة ، فماذا يقول قائل بعد هذا ؟..

ولما فتح السلطان محمد الثاني القسطنطينية ، دخل الى كنيسة ايا صوفيا ، وكان قد لجأ اليها رجال الكنيسة ، فأحسن استقبالهم وأكد حمايته لهم ، وطلب من المسيحيين الفزعين الموجودين فيها أن يذهبوا الى بيوتهم آمنين . ثم نظم شؤون المسيحيين ، فترك لهم حق اتباع كنائسهم الخاصة ، وقوانينهم الملية ، وتقاليدهم المتعلقة بأحوالهم الشخصية. وترك للقساوسة انتخاب بطريرك لهم، فانتخبوا (جنّاديوس) واحتفل السلطان بانتخابه بنفس الأبهة التي كانت متبعة في عهد البيزنطيين ، وقال له : لتكن بطريركا على صداقتي في كل وقت وظرف، ولتتمتع بكل الحقوق والامتيازات التي كانت لمن سبقك . ثم أهداه فرسا جميلا ، وجعل له حرسا خاصا من الانكشارية ( وهم حرس السلطان الخاص ) وصحبه ( باشاوات ) الدولة الى المكان الذي أعد له، ثم أعلن السلطان الفاتح اعترافه بقوانين الكنيسة الارثوذكسية، ووضعها

تحت رعايته ، وجمعت واشتريت كل آثار القديسين ومخلفاتهم التي نهبت يوم الفتح ، وسلمت الى الكنائس والأديرة !

فعل السلطان محمد الفاتح هذا دون ان يكون بينه وبين المسيحيين في القسطنطينية عند الفتح شروط يلزم بالوفاء بها ، وانما تبرع بهذه الحماية والرعاية ، ما جعلهم يشعرون من بعده أنهم في رعاية الدولة الاسلامية الجديدة أكثر أمنا وسلاما وحرية دينية منهم حين كانوا تحت رعاية الدولة البيزنطية ! واستمر الأباطرة العثمانيون يحسنون معاملتهم للرعايا المسيحيين في الدول المجاورة التي يفتتحونها ، كاليونان والبلغار وغيرهما ، مما لم يكن معهودا مثله في ذلك الوقت في سائر اوروبا . حتى ان اصحاب ( كلفن ) في المجر وترانسلفانيا ، وأصحاب مذهب التوحيد من المسيحيين ، الذين كانوا في ترانسلفانيا ، طالما آثروا الخضوع للاتراك على الوقوع في أيدي أسرة هبسبورج المتعصبة! ونظر البروتستانت في سليزيا الى تركيا بعيون الرغبة ، وتمنوا بسرور أن يشتروا الحرية الدينية بالخضوع للحكم الاسلامي » وبينما كان المسلمون يعاملون المسيحيين تحت حكمهم بهذا التسامح الديني الكريم، كان المسيحيون في بلاد أوروبا يعانون من وطأة حكامهم وتعصب الطوائف الدينية بعضها ضد بعض ما أسال الدماء وأذاع الفتنة والرعب. واستمع الى ما يقوله بطريرك انطاكية ( مقاريوس ) في القرن السابع عشر ، عن الفظائع التي أوقعها الكاثوليك البولنديون ضد اخوانهم الارثوذكس ، قال :« اننا جميعا قد ذرفنا دمعا غزيرا على آلاف الشهداء الذين قتلوا في هذه الاعوام الاربعين او الخمسين على يد اولئك الاشقياء الزنادقة اعداء الدين ( أي الكاثوليك ) ، وربما كان عدد القتلى سبعين

ألفا ، فيا أيها الخونة ! يا مردة الرجس ! يا أيتها القلوب المتحجرة ! ماذا صنع الراهبات والنساء؟ ماذنب هؤلاء الفتيات والصبية والاطفال الصغار حتى تقتلوهم ؟ ولماذا أسميهم البولنديين الملعونين ؟ لأنهم أظهروا أنفسهم اشد انحطاطا وأكثر شراسة من عباد الاصنام المفسدين ، وذلك بما اظهروه من قسوة في معاملة المسيحيين ، وهم يظنون بذلك انهم يمحون اسم الارثوذكس • ادام الله بقاء دولة الترك خالدة الى الابد ، فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالاديان ، سواء أكان رعاياهم مسيحيين أم ناصريين ، يهودا او سامرة ، أما هؤلاء البولنديون الملاعين، فلم يقنعوا بأخذ الضرائب والعشور من اخوان المسيح ، بالرغم من أنهم يقومون بخدمتهم عن طيب خاطر ، بل وضعوهم تحت سلطة اليهود الظالمين أعداء المسيح ، الذين لم يسمحوا لهم حتى بأن يبنوا الكنائس ، ولا بأن يتركوا لهم قسا يعرفون أسرار دينهم » •

ولا بد لي وأنا أتحدث عن احترام السلطان محمد الفاتح لأياصوفيا وحقوق المسيحيين في القسطنطينية ، من أن أذكر ما فعله الصليبيون حين قدموا من اوربا فاستولوا على القسطنطينية عام ١٢٠٤ •• اسمع ما يقوله البابا « انسنت الثالث » في وصف ما فعله هؤلاء في اخوانهم الارثوذكس : « ان اتباع المسيح وناصري دينه ، الذين كان يجب أن يستلوا سيوفهم ضد عدو المسيحية الأكبر ( يعني الاسلام ) قد سفكوا الدم المسيحي الحرام ، وغرقوا في بحاره • هؤلاء لم يحترموا الدين ولا السن والجنس ، فارتكبوا الزنى في وضح النهار • لقد سلّمت الراهبات والعذارى والامهات لوحشية الجنود •• ولم يكتف هؤلاء بسلب ذخائر الامبراطور ولا نهب متاع الافراد ، بل لقد وضعوا ايديهم

على ارض الكنائس وثروتها ، وانتهكوا حرمات الكنـائس وسلبوا أيقوناتها وصلبانها وآثارها ومخافات القديسين » . واسمع ما يقوله المؤرخ شارل ديل : « لقد دخل الجنود السكارى كنيسة سانت صوفيا، وأتلفوا الكتب المقدسة ، وداسوا بأقدامهم صور الشهداء ، وجلست عاهرة على كرسي البطريرك ، وارتفع صوتها بالغناء ! لقد قضي على آيات الفن في المدينة ، وأذيبت التماثيل لتسك نقودا » . واعترف أحد الرهبان الذين شاهدوا هذا الحادث الاليم فقال : « ان اتباع محمـد ما كانوا يعاملون المدينة مثلما عاملها جنود المسيح » . أجل انهم لم يفعلوا ذلك حين فتحوها كما رأيت من صنيع السلطان محمد الثاني، ولم يكن منهم وهم مسلمون أن يتدنوا الى التعصب الديني السمج الاثيم الذي بدا من الكاثوليك نحو اخوانهم الارثوذكس !..

ولا أريد ان أفيض في المقارنة بين أخلاق الفـاتحين المسلمين في الاندلس، وحسن معاملتهم للمغلوبين، ورحمتهم بهم ورعايتهم لشعورهم، وبين ما فعله الاسبان حين استولوا على غرناطة ( آخر مملكة للاسلام في الاندلس ) ، بعد أن أعطوا المسلمين بضعا وستين عهـدا باحترام دياناتهم ومساجدهم وأموالهم وأعراضهم ، ولكنهم لم يرعوا عهدا ، ولم يفوا بذمة، ولم يعفّوا عن سفك الدماء وازهاق الارواح وسلب الثروات، فلم يكد يمضي على سقوط غرناطة اثنان وثلاثون سنة حتى اصدر البابا امره عام ١٥٢٤ بتحويل جميع مساجد اسبانيا الى كنائس ! ولم تمر بعد ذلك أربع سنوات أخرى حتى لم يبق في اسبانيا كلها مسلم واحد ! هذا هو وفاؤهم بالعهود .. وذلك هو وفاؤنا .

ومن عجيب ان قسوتهم ونكثهم للعهود كانت فيما بينهم بعضهم

مع بعض ، لا تقل عما هي عليه في موقفهم منا .. انهم القساة الغلاظ الاكباد في كل بلد يغلبونه شرقيا كان او غربيا ، وهم القساة الغلاظ الاكباد مع كل ضعيف يهزمونه مسلماً كان او نصرانيا . وها هم بأنفسهم يتحدثون عن قسوتهم ..

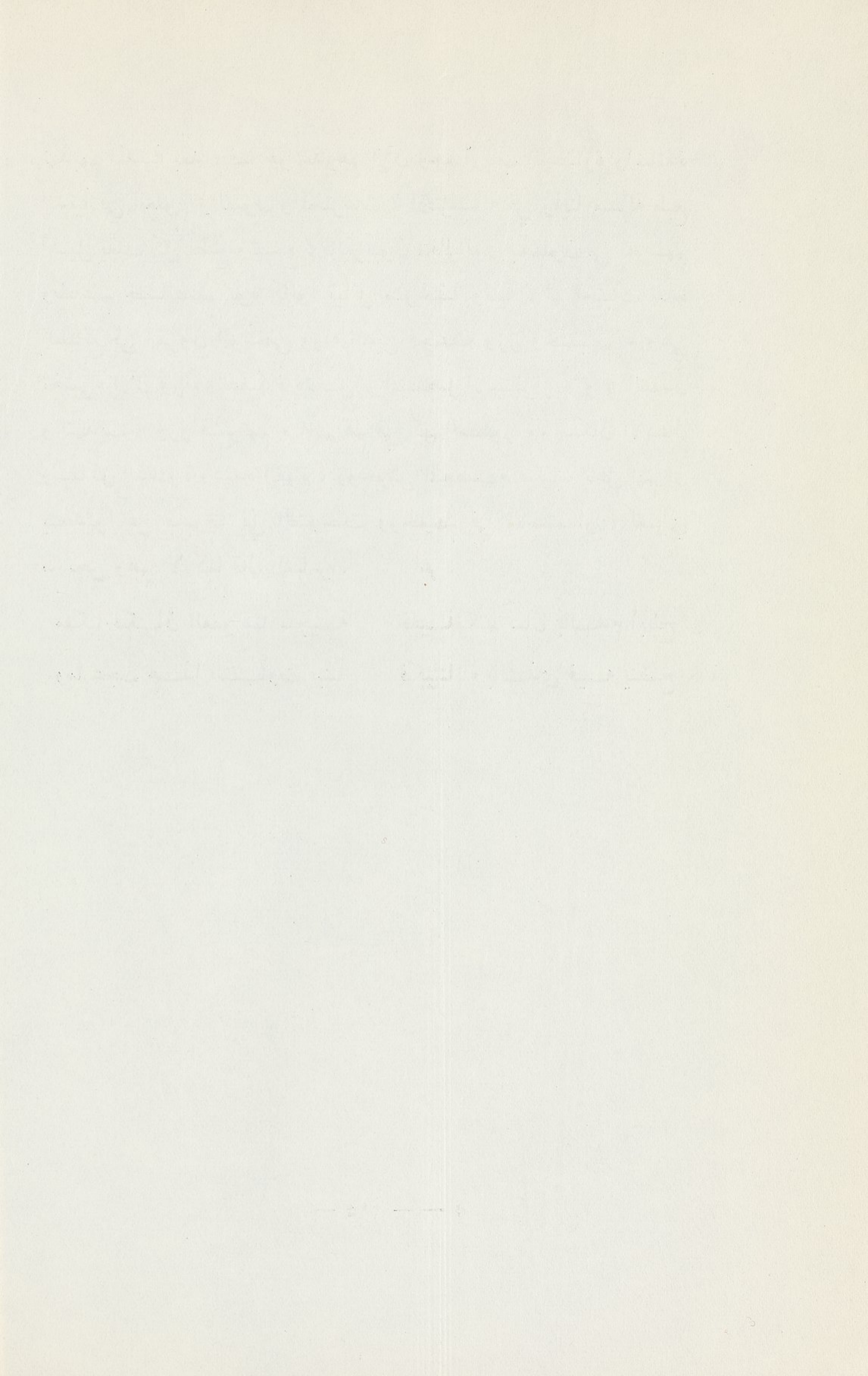
كتب القس اودوالدويلي أحدرهبان القديس دينيس الذي كان يشغل وظيفة قسيس خاص للويس السابع وصحبه في الحملة الصليبية الثانية عن بعض مشاهداته فقال: «بينما كان الصليبيون يحاولون شق طريقهم برا عن طريق آسيا الصغرى الى بيت المقدس، منوا بهزيمة فادحة على أيدي الترك في ممرات فريجيا الجبلية عام ١١٤٨ ، وبلغوا مدينة «اتاليا» الساحلية بشق الانفس ، وهنا تمكن جميع الذين استطاعوا ان يرضوا المطالب الفادحة التي كان يفرضها عليهم تجار الاغريق من الابحار الى انطاكية ، بينما خلفوا وراءهم المرضى والجرحى وعامة الحجاج تحت رحمة الخونة من حلفائهم الاغريق ، الذين أخذوا مبلغ خمسمائة مارك من لويس على شريطة أن يمدوا الحجيج بقوة من الحرس ، وأن يعنوا بالمرضى حتى يصبحوا من القوة بحيث يمكن ارسالهم ليلحقوا بسائر زملائهم . ولكن لم يكد الجيش يغادر المكان حتى أخبر الاغريق الترك بموقف الحجيج الأعزل ، وراقبوا في صمت ما أصاب هؤلاء التاعسين من المجاعة والمرض وسهام العدو التي جرت عليهم الدمار والخراب وهم في طريقهم الى معسكرهم . وحاولت جماعة تبلغ ثلاثة آلاف أو اربعة آلاف ان تلوذ بالفرار بدافع من اليأس ، ولكن الترك الذين كانوا قد بلغوا المعسكر وهجموا عليه ليتابعوا انتصارهم أحدقوا بهم ومزقوهم شر ممزق ، وكاد يكون موقف من نجا من الموت منهم قد بلغ حد اليأس لو أن

منظر شقائهم لم يذب قلوب المسلمين ويستدر شفقتهم ، فواسوا المرضى، وأغاثوا الفقير والجائع الذي أشرف على الهلاك ، وبذلوا لهم العطاء في كرم وسخاء ، بل لقد اشترى بعضهم النقود الفرنسية التي ابتزها الاغريق من الحجاج بالقوة او الخداع ، ووزعوها بسخاء بين المعوزين منهم ، فكان البون شاسعا بين المعاملة الرحيمة التي لقيها الحجاج من الكفار ( يعني المسلمين ) وبين ما عانوه من قسوة اخوانهم المسيحيين من الاغريق الذين فرضوا عليهم السخرة وضربوهم وابتزوا منهم ما ترك لهم من متاع قليل ! حتى ان كثيرا منهم دخلوا في دين منقذيهم بمحض ارادتهم ، وكما يقول المؤرخ القديم : « لقد جفوا اخوانهم في الدين الذين كانوا قساة عليهم ، ووجدوا الأمان بين الكفار ( المسلمين ) الذين كانوا رحماء عليهم » . ولقد بلَغنا أن ما يربو على ثلاثة آلاف قد انضموا بعد أن تقهقروا الى صفوف الاتراك . آه ، انها لرحمة أقسى من الغدر ! لقد منحوهم الخبز ولكنهم سلبوهم عقيدتهم ، ولو أن من المؤكد أنهم لم يكرهوا أحدا من بينهم على نبذ دينه ، وانما اكتفوا بما قدموا لهم من خدمات » .

وبعد .. فلماذا نذهب بعيدا وهذه أخلاق الغربيين المستعمرين في الحربين العالميتين وآثار قسوتهم فيها، وها هي أخلاقهم في الشرق العربي والاسلامي ، ناطقة على مدى القسوة التي تتصف بها ضمائرهم في حروبهم وحكمهم ، وعلى مدى النفاق الذي بلغوه حين يعلنون في المحافل الدولية انسانيتهم ورحمتهم ، وهم في حروبهم ومستعمراتهم والبلدان الخاضعة لحكمهم يعلنون وحشيتهم وضراوتهم . ولئن كان بعض الناس يعتذر عن فظائع الغربيين في القرون الوسطى بأنهم قوم لم

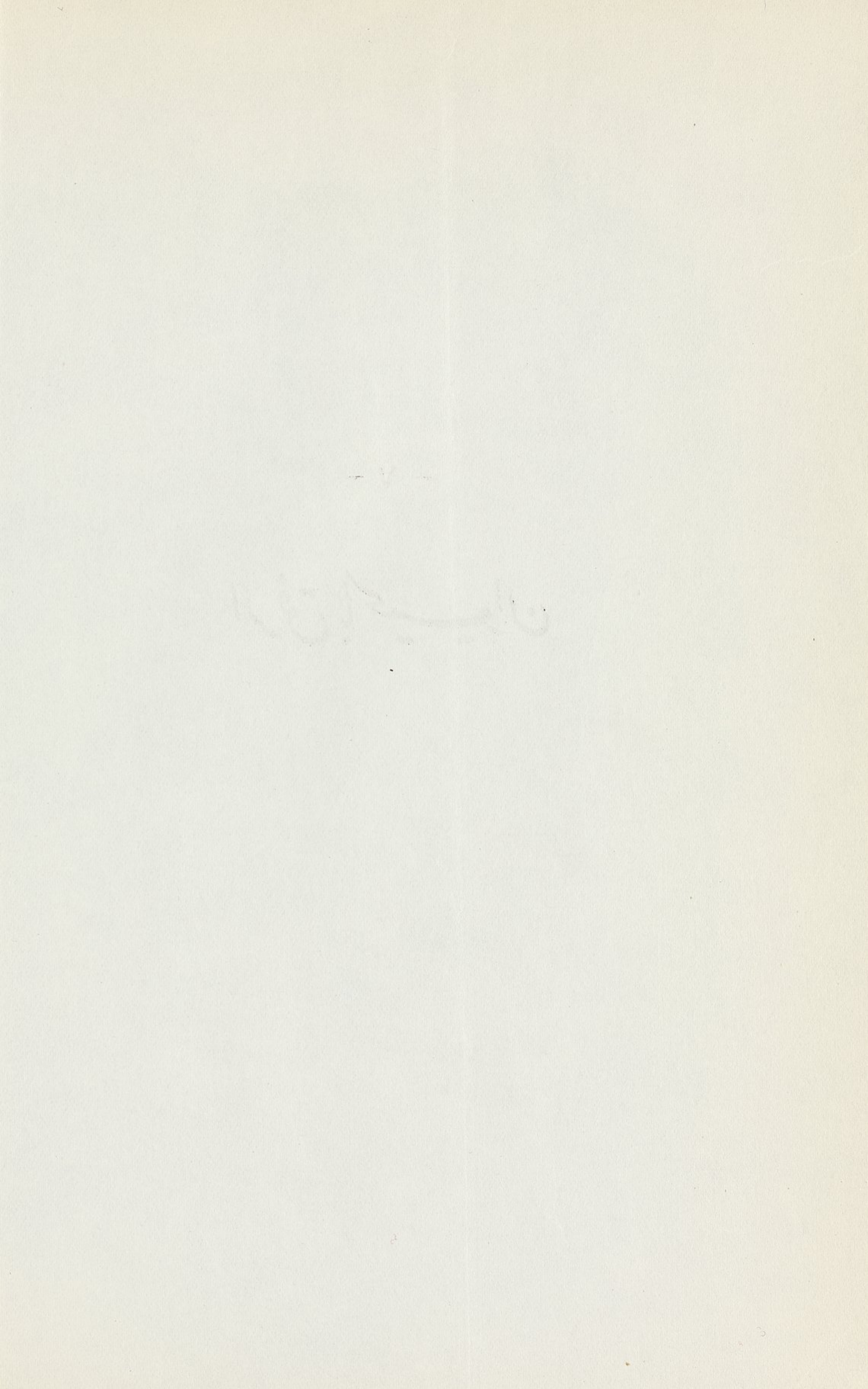
تهذبهم المدنية بعد ، فما هو عذرهم الآن وهم أرباب الحضارة وأساتذة الدنيا في العلوم والفنون والمخترعات ؟ ان المسألة في رأينا مسألة طبع أصيل يغلب كل تطبع وتصنع ، فالغربيون ما يزالون يحملون في نفوسهم وطباعهم خصائصهم يوم كانوا قبائل متوحشة وثنية ، ثم اختبأت هذه الطبائع في القرون الوسطى وراء الدين فحمَّلته وزر وحشيتهم • وهي تختبىء الآن وراء الحضارة فتحمل « السلام والاستقرار » و « التمدن والتهذيب » وزر قسوتهم • انهم هم في كل العصور •• سكان الادغال وسفاكو الدماء ، وعبدة القوة ، ووحوش التعصب• فكيف يحق لهم ان يتحدثوا عن قسوتنا في الفتوحات ورحمتهم في الاستعمار ؟ لعمري ما نحن وهم الا كما قال الشاعر :

ملكنا فكـان العفو منا سجيـة  فلما ملكتم سال بالـدم أبطح
وما عجب هـذا التفـاوت بيننا  فكل اناء بالـذي فيـه ينضح



- ٧ -

# الرفق بالحيوان



وهذا موضوع طريف في صدد الحديث عن روائع حضارتنا ، وان لم يكن غريبا بالنسبة الى العصر الذي نعيش فيه . فقد كانت الانسانية حتى العصر الحديث لا ترى ان للحيوان نصيبا من الرفق ، او حظا من الرحمة . ولا تزال بعض الامم المعاصرة تتلهى بقتل الحيوان في اعيادها ومجال افراحها ورياضتها . وهنا تبرز حضارتنا في مبادئها وواقعها بثوب من الرحمة والشعور الانساني المرهف لم تلبسه حضارة من قبلها، ولا أمة من بعدها حتى اليوم . ذلك هو الرفق بالحيوان والرحمة به ، رحمة تلفت النظر وتدعو الى العجب والدهشة ، واليكم بعض الحديث عن هذا ..

أول ما تعلنه مبادىء حضارتنا في مجال الرفق بالحيوان ، أن تقرر أن عالم الحيوان كعالم الانسان له خصائصه وطبائعه وشعوره : **« وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم [1] »** . فله حق الرفق والرحمة كحق الانسان «الراحمون يرحمهم الرحمن [2]» . « من أعطي الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة [3] » . بل ان الرحمة بالحيوان قد تدخل صاحبها الجنة : « بينما رجل يمشي بطريق إذ اشتد عليه العطش ، فوجد بئرا فنزل فيها ، فشرب ، ثم خرج ، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني ، فنزل البئر فملأ خفه ماء ،

---

(١) الانعام : ٣٨
(٢) رواه احمد وابو داود والترمذي والحاكم
(٣) رواه احمد

ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى له فغفر له ، قالوا يا رسول الله : وان لنا في البهائم لأجرا ؟ فقال : في كل ذات كبد رطبة أجر [1] » .

كما ان القسوة على الحيوان تدخل النار « دخلت امرأة" النارَ في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الارض [2] » .

وتمضي الشريعة في تشريع الرحمة بالحيوان ، فتحرم المكث طويلا على ظهره وهو واقف فقد قال عليه الصلاة والسلام « لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي [3] » . وتحرم اجاعتـه وتعريضه للضعف والهزال ، فقد مرّ عليه السلام ببعير قد لصق ظهره ببطنه فقال : « اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة ، فاركبوها صالحة وكلوها صالحـة [4] » . كما تحرم ارهاقه بالعمل فوق ما يتحمل . دخل رسول الله بستانا لرجل من الانصار فاذا فيه جمل ، فلما رأى النبي حنّ وذرفت عيناه ، فأتاه رسول الله فمسح دموعه ، ثم قال : من صاحب هذا الجمل ؟ فقال صاحبه : أنا يا رسول الله ، فقال له عليه الصلاة والسلام : أفلا تتقي الله في هـذه البهيمة التي ملكك الله اياها ، فانه شكا اليّ أنك تجيعه وتدئبه [5] » (اي تتعبه بكثرة استعماله ) . كما تحرم التلهي به في الصيد « من قتل عصفورا عبثا عج الى الله يوم القيامة يقول : يا رب ان فلانا قتلني عبثا ولم يقتلني منفعة [6] » . واتخاذه هدفا لتعليم الاصابة، فقد «لعن رسول الله من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا [7] » ( أي هـدفا ) . وتنهى عن

---

(١) اخرجه البخاري ومسلم ومالك واحمد وأبو داود .
(٢) اخرجه البخاري ومسلم (٣) رواه احمد والحاكم
(٤) رواه ابو داود وابن خزيمه (٥) رواه احمد وأبو داود
(٦) رواه النسائي وابن حبان (٧) رواه البخاري ومسلم

التحريش بين الحيوانات ، ووسمها في وجوهها بالكي والنار (اي كيها لتعلم من بين الحيوانات الاخرى ) فقد « مرّ الرسول على حمار قد وسم في وجهه ، فقال : لعن الله الذي وسمه [١] » . أما اذا كان الحيوان مما يؤكل ، فان الرحمة به ان تحدّ الشفرة ، ويسقى الماء ، ويراح بعد الذبح قبل السلخ : « ان الله كتب الاحسان على كل شيىء ، فاذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، واذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحدّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته [٢] » . بل ان اضجاع الحيوان للذبح قبل احداد الشفرة قسوة لا تجوز ، اضجع رجل شاة للذبح وهو يحد شفرته ، فقال له عليه السلام : « اتريد ان تميتها موتات ؟ هلا احددت شفرتك قبل ان تضجعها [٣] » . واسمعوا ما اروع هذه الرحمة بالحيوان وأبلغ دلالتها على روح حضارتنا . قال عبد الله بن مسعود : « كنا مع رسول الله في سفر ، فرأينا حمّرة ( طير يشبه العصفور ) معها فرخان لها ، فأخذناهما فجاءت الحمّرة تعرّش ( ترفرف بجناحيها ) ، فلما جاء رسول الله قال : من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها اليها . ورأى قرية نمل قد احرقناها فقال : من أحرق هذه ؟ قلنا : نحن ، قال : انه لا ينبغي ان يعذب بالنار الا رب النار [٤] » .

وعلى ضوء هذه التعاليم يقرر الفقهاء المسلمون من أحكام الرحمة بالحيوان ما لا يخطر بالبال . فهم يقررون ان النفقة على الحيوان واجبة على مالكه ، فان امتنع أجبر على بيعه او الانفاق عليه ، او تسييبه الى مكان يجد فيه رزقه ومأمنه ، او ذبحه اذا كان مما يؤكل . وقد ذهبوا

---

(١) رواه الطبراني (٢) رواه مسلم وابو داود ومالك والترمذي
(٣) رواه الطبراني والحاكم (٤) أخرجه ابو داود

الى ما هو أبعد من هذا ، فقال بعضهم : اذا لجأت هرة عمياء الى بيت شخص وجبت نفقتها عليه حيث لم تقدر على الانصراف . ومنعوا من تحميل الحيوان أكثر مما يطيق ، ورتبوا على هذا نتائج حقوقيـة في حق من استأجر حيوانا للحمل أو الركوب فحمّله اكثر مما يستطيع ، فألزموه بضمان ثمنه لمالكه . وتعرضوا لمقدار ما يستطيع البغل والحمار حمله ، ومن الطريف ان بعض الفقهاء قدر لكل منهما مقدارا لم يرض فقيها آخر ، فعقب على ذلك بقولـه : لعمري ان هـذا إنصاف للبغل واجحاف كبير بالحمار . أما جناية الحيوان على غيره ، فهي جبار ، اي مهدرة ، فالحيوان لا يعاقب بما جنى على غيره ، وانما يعاقب صاحبه اذا فرط في حفظه وربطه .

هذه هي مبادىء الرفق بالحيوان في حضارتنا وتشريعنا . فكيف كان الواقع التطبيقي لها ؟ ..

بينما رسول الله في بعض سفره ، اذ سمع امرأة من الانصار تلعن ناقة لها وهي تركبها ، فأنكر ذلك عليها وقال « خذوا ما عليها ودعوها فانها ملعونة » ، وأُخذت الناقة وتركت تمشي في الناس لا يعرض لها أحد [1] .

ومر عمر برجل يسحب شاة برجلها ليذبحها فقال له : ويلك قدها الى الموت قودا جميلا ...

وهكذا كان طابع حضارتنا رفقا بالحيوان وعناية به من قبل الدولة والمؤسسات الاجتماعية .

---

(١) رواه مسلم

أما عناية الدولة فليس أدل على ذلك من أن خلفاءنا كانوا يذيعون البلاغات العامة على الشعب يوصونهم فيها بالرفق بالحيوان ومنع الاذى عنه والاضرار به .

فقد أذاع عمر بن عبد العزيز في احدى رسائله الى الولاة ان ينهوا الناس عن ركض الفرس في غير حق .

وكتب الى صاحب السكك ( وهي وظيفة تشبه مصلحة السير ) أن لا يسمحوا لأحد بالجام دابته بلجام ثقيل او ان ينخسها بمقرعة في أسفلها حديدة .

وكان من وظيفة المحتسب ( وهي وظيفة تشبه في بعض صلاحياتها وظيفة الشرطي في عصرنا الحاضر ) ان يمنع الناس من تحميل الدواب فوق ما تطيق ، او تعذيبها وضربها اثناء السير ، فمن رآه يفعل ذلك أدّبه وعاقبه : « ويجبرهم المحتسب على فعل ذلك لما فيه من المصلحة ، ولا يحمّلون الدواب اكثر من طاقتها ، ولا يسوقونها سوقا شديدا تحت الاحمال ، ولا يضربونها ضربا قويا ، ولا يوقفونها في العراص ( الساحات العامة ) وعلى ظهورها احمالها ، فان هذا كله نهت الشريعة المطهرة عن فعله . وعليهم ان يراقبوا الله عز وجل في علف الدابة وعليقها ، ويكون موفرا عليها بحيث يحصل به الشبع ، ولا يكون مبخوسا ولا نزرا » .

وأما المؤسسات الاجتماعية فقد كان للحيوان منها نصيب كبير . وحسبنا ان نجد في ثبت الاوقاف القديمة اوقافا خاصة لتطبيب الحيوانات المريضة ، وأوقافا لرعي الحيوانات المسنة العاجزة . ومنها ارض المرج الاخضر ( التي يقام عليها الآن الملعب البلدي بدمشق ) فانها

وقف للخيول العاجزة التي يأبى اصحابها ان ينفقوا عليها لعدم الانتفاع بها ، فترعى في هذه الارض حتى تموت . ومن اوقاف دمشق وقف القطط تأكل منه وترعى وتنام ، حتى لقد كان يجتمع في دارها المخصصة لها مئات القطط الفارهة السمينة التي يقدم لها الطعام كل يوم وهي مقيمة لا تتحرك الا للرياضة والنزهة .

وهذا كله يدلك على روح الشعب الذي بلغ من الرفق بالحيوان الى هذا الحد وهو ما لا تجد له مثيلا . ولعل اصدق مثال عن روح الشعب في ظل حضارتنا ،أن ترى صحابيا جليلا كأبي الدرداء يكون له بعير فيقول له عند الموت : يا أيها البعير لا تخاصمني الى ربك فاني لم أكن احملك فوق طاقتك .

وأن صحابيا كعدي بن حاتم كان يفتّ الخبز للنمل ويقول : انهن جارات لنا ولهن علينا حق .

وأن إماما كبيرا كأبي اسحق الشيرازي كان يمشي في طريق ومعه بعض أصحابه ، فعرض له كلب فزجره صاحبه فنهاه الشيخ وقال له : أما علمت ان الطريق مشترك بيننا وبينه ؟

ولا نستطيع ان نقدر هذه الظاهرة البارزة في حضارتنا وموقفها الانساني الكريم مع الحيوان ، الا اذا علمنا كيف كان يعامل الحيوان في العصور القديمة والوسطى ، وكيف كان موقف الامم منه ومن جناياته وتعذيبه .

وأول ما يلفت النظر في ذلك أنك لا تجد في تعاليم تلك الشعوب ما يحمل على الرفق بالحيوان ووجوب الرحمة به . ومن ثم فلا تجد له حقوقا على صاحبه من نفقة ورعاية .

ويلفت النظر بعد ذلك أخذ الحيوان بجنايته اذا جنى او جنى صاحبه، ومعاملته في المسؤولية كمعاملة الانسان العاقل المفكر ! وهذا أغرب ما تضمنه تاريخ العصور القديمة والوسطى حتى القرن التاسع عشر ، فقد كان الحيوان يحاكم فيها كما يحاكم الانسان ، ويحكم عليه بالسجن والتشريد والموت كما يحكم على الانسان الجاني تماما !

ففي شرائع اليهود « اذا نطح ثور رجلا او امرأة وأفضى ذلك الى موت النطيح ، وجب رجم الثور ، وحرم أكل لحمه ولا تبعة على مالكه اذا لم يكن الثور معتادا النطح ، فإن كان ذلك من عادته ، وأنذر الناس صاحبه فلم يعبأ بإنذارهم وأهمل رقابته حتى تسبب في هلاك رجل او امرأة ، كان جزاء الثور الرجم وجزاء صاحبه الاعدام . وهناك حالة ثانية يعاقب فيها الحيوان في شرائع اليهود وهي ما اذا واقع رجل او امرأة بهيمة وجب قتل الحيوان والرجل أو المرأة معا .

وفي شرائع قدماء اليونان ، كانت عندهم محكمة خاصة لمحاكمة الحيوانات والجمادات المتسببة في هلاك انسان ، وكان يطلق على هذه المحكمة اسم ( البريتانيون ) وهو اسم المكان الذي كانت تعقدجلساتها فيه . ومما ذكره أفلاطون في كتابه « القوانين » اذا قتل حيوان انسانا كان لأسرة القتيل الحق في اقامة دعوى على الحيوان أمام القضاء ، ويختار اولياء الدم القضاة من المزارعين . وفي حال ثبوت الجريمة على الحيوان يجب قتله قصاصا ، والقاء جثته خارج البلاد . ويستثنى من ذلك القتل الناشىء عن مبارزة بين الانسان والحيوان في مسرح الالعاب العمومية ، فان هذا لا يترتب عليه شيىء . واذا سقط جماد على انسان فقتله ، اختار اقرب الناس الى القتيل قاضيا من جيرانه ليحكم

على الجماد ان ينبذ خارج الحدود، ولم تكن مسؤولية الحيوان عندهم قاصرة على حالات القتل ، بل هو مسؤول كذلك في الجنايات التي دون القتل . فاذا عض كلب انسانا وجب على صاحب الكلب أن يسلم كلبه الى المجني عليه مكموما ومشدودا في الوثاق يثأر لنفسه منه كما يشاء، بالقتل أو التعذيب او غيرهما . وكذلك كان الحيوان عندهم يعاقب على جناية سيده او اسرته في بعض الحالات فمن حكم عليه بالاعدام لجريمة ارتكبها ضد الدين أو الدولة كان هو وأسرته وحيواناته وممتلكاته محكوما عليها بالحرق أو التدمير او المصادرة .

أما قدماء الرومان ، فقد تضمنت شرائعهم مادة تقضي بعقوبة الاعدام على الثور وصاحبه اذا نقل الثور اثناء الحرث الحد الفاصل بين الحقل المحروث والحقل المجاور له . وأقرت عقوبة الكلب الذي يعض انسانا بوجوب التخلي عنه للمعضوض يتصرف فيه كما يشاء ، وكذلك اذا رعى الحيوان عشبا غير مملوك لصاحبه .

وكذلك الحال عند قدماء الجرمان من عقوبة الحيوان كما كان عند الرومان واليونان .

أما عند قدماء الفرس فالأمر فيها أعجب وأطرف ، ذلك ان الكلب المصاب بالكلب اذا عض خروفا فقتله ، او انسانا فجرحه ، تقطع اذنه اليمنى ، فان تكرر ذلك منه قطعت اذنه اليسرى ، وفي المرة الثالثة تقطع رجله اليمنى ، وفي الرابعة تقطع رجله اليسرى ، وفي الخامسة يستأصل ذنبه ! ..

وعند الامم الاوروبية في العصور الوسطى ، كانت فرنسا اول امة اوروبية مسيحية اخذت في القرن الثالث عشر بمبدا مسؤولية الحيوان

ومعاقبته بجرمه امام محاكم منظمة بنفس الطرق القانونية التي يحاكم فيها الانسان • ثم اخذت به سردينيا في اواخر القرن الرابع عشر • ثم بلجيكا في اواخر القرن الخامس عشر • وفي هولندا والمانيا وايطاليا والسويد في منتصف القرن السادس عشر • وظل العمل به قائما عند بعض شعوب الصقالبة حتى القرن التاسع عشر !

كانت محاكمة الحيوان عند الاوروبيين تقوم على ادعاء المجني عليه او النيابة العامة ، ثم يتقدم وكلاء الدفاع عن الحيوان المجرم ، وقد تقضي المحكمة بحبس الحيوان احتياطيا ! ثم يصدر الحكم بعد ذلك وينفذ على ملأ من الجمهور كما كان ينفذ في الانسان • وقد يكون الحكم باعدام الحيوان رجما او بقطع رأسه او بحرقه ، او بقطع بعض اعضائه قبل اعدامه ، ولا يظنن احد ان هذه المحاكمة كانت هزلية للتسلية ، بل كانت جدية تماما ، بدليل ما يرد للاسباب الموجبة للحكم على الحيوان من مثل قولهم « يحكم باعدام الحيوان تحقيقا للعدالة » او « يقضى عليه بالشنق جزاء لما ارتكبه من جرم وحشي فظيع » ! ومن طريف ما يذكر هنا ان من الاسباب التي كانت تحمل الاوروبيين على رفع القضايا على الحيوان تعديه على قوانين الطبيعة في نظرهم ، فكان يتهم « بالسحر » وهي جريمة كان مرتكبوها يعاقبون بالاحراق بالنار • وكانوا يحتفلون احتفالا كبيرا بتنفيذ العقوبات على الحيوان ، فيأتي الجلادون بقطع من الحطب ، ويضعونها في وسط احد الميادين ، وتحضر القطط المحكوم عليها ، كل هرة في قفص من حديد وعندما يحين وقت تنفيذ العقوبة يحضر بعض القساوسة يصحبهم بعض الحكام ، فيتقدم أحدهم وفي كلتا يديه شعلتان من نار لاشعال الحطب ، ثم يأمر احد

الحكام بقذف القطط في النار حتى تصبح رمادا عقوبة لها على ممارستها السحر !

وجدير بنا ان نذكر بعض المحاكمات الشهيرة للحيوانات عند الاوروبيين في القرون الوسطى . فمن أطرف المحاكمات واشهرها ، محاكمة الفئران في بلدة اوتون بفرنسا في القرن الخامس عشر . فقد اتهمت الفئران في هذه القرية بالتجمهر في الشوارع بشكل مزعج مقلق للراحة . وتقدم للدفاع عنها « شاسانيه » المحامي الفرنسي وطلب التأجيل لأن الفئران لم تتمكن من الحضور ، حيث فيها الرضيع والمريض والعجوز ، وهي تستطيع ان تستعد للمثول بين يدي المحكمة اذا منحت فرصة التأجيل ، فوافقت المحكمة على التأجيل لوقت معين ، ولما حان الوقت لم تحضر الفئران ، فقال محامي الدفاع للمحكمة : ان الفئران تذعن لأوامركم الموقرة ، وتود الحضور ، ولكنها يا حضرات القضاة تخشى وقوع الاذى عليها من القطط ان هي جاءت الى هنا . فرد رئيس المحكمة قائلا : ان من واجبنا تأمين المتهمين على حياتهم . فطلب المحامي ان تأمر المحكمة بحبس قطط البلد كلها قبل مرور موكب الفئران في الشوارع لتكون مطمئنة على حياتها ، فوافقت المحكمة على هذا الطلب لعدالته ، وأصدرت أمرا بمنع القطط والكلاب من المرور في الشوارع تأمينا للفئران اثناء حضورها الى قاعة المحكمة . ولكن اهل القرية رفضوا تنفيذ ذلك فاضطرت المحكمة الى ان تحكم ببراءة الفئران لأنها حرمت وسائل الدفاع المشروعة !.. وقد نال المحامي بسبب هذه القضية شهرة ذائعة ، ولا ندري ان كان قد اخذ اتعابه من الفئران ام لا ، وربما كانت اتعابه ان تتعهد له الفئران بعدم قرض كتبه وأوراقه ..

ومن اغرب قضايا محاكمة الحيوان في القرون الوسطى محاكمة الديك الذي باض • فقد رفعت دعوى على ديك في مدينة بال بسويسرا عام ١٤٧٤ لأنه باض ، وذلك في عرف الاوروبيين يومئذ جريمة شنيعة ، اذ كان من المعروف عندهم أن السحرة يبحثون عن بيضة الديك ليستخدموها في اغراضهم الشيطانية • وقدم الديك للمحاكمة ، ودافع محاميه عنه بقوله : كيف يكون الديك مسؤولاً عن واقعة لا حيلة له فيها ؟ ولكن المحكمة لم تأخذ بنظرية محامي الدفاع ، بل اصدرت حكمها باعدام الديك ، وعللت حكمها بقولها : ليكون في ذلك عبرة لغيره من الديكة !

وفي عام ١٤٩٥ وقعت قضية اخرى في فرنسا هي من اغرب المحاكمات الحيوانية ايضا • فقد رفع اصحاب مزارع العنب في مقاطعة « سان جوليان » ، دعوى على حشرات السوس بتهمة انها أتلفت كرومهم وقضت على اشجارهم وصناعتهم وتجارتهم • وتولى الدفاع عن هذه الحشرات اثنان من كبار رجال القانون ، واستمرت القضية اربعين عاما انتهت بأن اصحاب الكروم سئموا هذا التأخير ، فاتفقوا على اقطاع السوس قطعة ارض خاصة ليأكل فيها ما يشاء من زروع وأشجار !

وبعد فهذه مقارنات طريفة بين موقف حضارتنا من الحيوان وموقف غيرنا من الامم منه • ومنها يتضح ان حضارتنا امتازت بأمرين لا مثيل لهما عند الامم القديمة وبعض الامم الحديثة اليوم •

**أولهما** — اقامة مؤسسات اجتماعية للعناية بالحيوان وتطبيبه وتأمين معيشته عند العجز والمرض والشيخوخة •

**ثانيهما** — ان حضارتنا خلت من محاكمة الحيوان لأنها نادت برفع

المسؤولية الجنائية عنه قبل ثلاثة عشر قرنا من مناداة الحضارة الحديثة بذلك • كما ان حضارتنا خلت من مظاهر القسوة والتحريش بين الحيوانات ، وهي التي كانت معترفاً بها رسمياً لدى اليونان والرومان ، ولا تزال معترفاً بها في اسبانيا حيث تقام الحفلات الكبرى لمصارعة الثيران ، وهي بلا شك وحشية من بقايا وحشية الغربيين القدماء وفي العصور الوسطى •• قد تنزهت عنها حضارتنا •

– ٨ –

# المؤسّسات الخيريّة



ليس أدل علي رقي الأمة وجدارتها بالحياة واستحقاقها لقيادة العالم، من سمو النزعة الانسانية في أفرادها، سمواً يفيض بالخير والبر والرحمة على طبقات المجتمع كافة ، بل على كل من يعيش على الارض من انسان وحيوان ، وبهذا المقياس تخلد حضارات الامم ، وبآثارها في هـذا السبيل يفاضل بين حضاراتها ومدنياتها .

وأمتنا بلغت في ذلك الذروة التي لم يصل اليها شعب من قبلها على الاطلاق ، ولم تلحقها من بعدها أمة حتى الآن : اما في العصور الماضية ، فلم تعرف الامم والحضارات ميادين للبر الا في نطاق ضيق لا يتعدى المعابد والمدارس ، وأما في العصور الحاضرة ، فان أمم الغرب وان بلغت الذروة في استيفاء الحاجات الاجتماعية عن طريق المؤسسات الاجتماعية وعن طريق المؤسسات العامـة ، لكنها لم تبلـغ ذروة السمو الانساني الخالص لله عز وجل كما بلغته أمتنا في عصور قوتها ومجدها، او عصور ضعفها وانحطاطها . ان لطلب الجاه او الشهرة او انتشار الصيت او خلود الذكر ، الأثر الأكبر في اندفاع الغربيين نحو المبرات الانسانية العامة ، بينما كان الدافع الاول لأمتنا على أعمال الخير ، ابتغاءُ وجه الله جل شأنه ، سواء علم الناس بذلك ام لم يعلموا ، وحسبنا دليلا على هذا أن صلاح الدين الايوبي أنفق امواله كلها على جهات البر ، وملأ البلاد الشامية والمصرية بالمؤسسات الخيرية ، من مساجد ومدارس ورباطات وغيرها ، دون أن يسجل على واحدة منها اسمه ، بل كان يسجل عليها أسماء قواده ووزرائه وأعوانه وأصدقائه ، وهـذا غاية ما يكون من

التجرد عن حظوظ النفس في أعمال الخير .. وشيىء آخر : ان الغربيين في مؤسساتهم الاجتماعية كثيرا ما يقتصر الانتفاع بها على أبناء بلادهم، او مقاطعاتهم ، بينما كانت مؤسساتنا الاجتماعية تفتح ابوابها لكل انسان على الاطلاق ، بقطع النظر عن جنسه او لغته او بلده او مذهبه .. وفارق ثالث : أننا أقمنا مؤسسات اجتماعية لوجوه من الخير والتكافل الاجتماعي لم يعرفها الغربيون حتى اليوم ، وهي وجوه تبعث على العجب والدهشة ، وتدل على ان النزعة الانسانية في أمتنا كانت أشمل وأصفى وأوسع أفقاً من كل نزعة انسانية لدى الامم الاخرى . وقبل أن نفيض في الحديث عن تعدد وجوه البر في المؤسسات الاجتماعية في عصور حضارتنا ، يجب ان نلم بمبادىء حضارتنا في هذا الميدان ، وهي المبادىء التي عملت عملها في نفوس أمتنا فدفعتها الى انشاء هذه المؤسسات دفعاً لا نعرف له مثيلاً في أمم أخرى .

ينادي الاسلام بالدعوة الى الخير نداء تنهزم معه في النفس الانسانية بواعث الشح ووسوسة الشيطان في التخويف من الفقر ، فيقول القرآن بعد الحث على الانفاق : « **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم** (١) » . ويعمم الدعوة الى الخير على كل مقتدر ، بل كل انسان ، فقيراً كان او غنياً ، أما الغني فيفعل الخير بماله وجاهه ، وأما الفقير فيفعل الخير بيده وقلبه ولسانه وعمله ، ولن تجد في الاسلام إنساناً لا يستطيع أن يجود في ميادين البر والخير . ولقد كان مما شكاه الفقراء إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن الاغنياء يسبقونهم في فعل الخير اذ يتصدقون بأموالهم ولا يجد هؤلاء

---

(١) البقرة : ٢٨٦

الفقراء ما يتصدقون به ، فبيّن لهم الرسول عليه السلام أن فعل الخير ليست وسيلته المال فحسب ، بل كل نفع للنـــاس فهو من عمل الخير : « إن لكم بكل تسبيحة صدقة ، وأمر بمعروف صدقة ، ونهى عن المنكر صدقة ، وفي إماطة الأذى عن الطريق صدقة، وأن تصلح بين اثنين صدقة، وأن تعين الرجل على دابته فتحمله عليها صدقة [1] » وهكـــذا يفتح الإسلام أبواب الخير للناس جميعاً حتى ليستطيع أن يفعله العامل والتاجر والفلاح ، والتلميذ والأستـــاذ ، والمرأة ، والعـــاجز والشيخ الكبير ، والاعمى والمقعد ، من غير أن تحول ظروفهم الاقتصادية دون المساهمة في إشاعة البر والخير في المجتمع . ويسمو الاسلام بالنفوس الى أعلى افق من النزعة الإنسانية الكاملة حين يجعل البر لجميع عباد الله مهما كانت أديانهم ولغاتهم وأوطانهم وأجناسهم فيقول : « الخلق كلهم عيال الله ، فأحبهم اليه أنفعهم لعياله [2] » . ثم انظر كيف يخاطب الاسلام النفس الانسانية بعد ذلك بما يحبّب إليها البر والخير عن طريق النفع الذاتي للنفس الخيّرة المعطية ، إنه يخاطب كل انسان بأن فِعل الخير يعود نفعه لمن يفعله قبل كل شيء ، فهو الذي ينتفع بالخير ثواباً وحباً وثناءً وخلوداً عند الله عز وجل« **وما تنفقوا من خير فلأنفسكم** [3] » . « **من عمل صالحا فلنفسه** [4] » .

وما دام الانسان أنانيـاً يحب نفسه قبل كل شيء ، لا جرَم أن كان لهذا الاسلوب أثره في النفس الانسانيـــة ، فيسخو البخيل ، ويعطي الشحيح ، ويفرق المال على الناس من حيث يمنعه ابناءه وأقرباءه ..

---

(١) رواه البخاري ومسلم
(٢) رواه الطبراني وعبد الرزاق
(٣) البقرة : ٢٧٢
(٤) فصلت : ٤٦

لما نزل قول الله تبارك وتعالى : «من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفَه له اضعافاً كثيرةً [1] » • قال صحابي يسمى أبا الدحداح : أوَ يستقرِض الله من عبده يا رسول الله ؟! قال : نعم ، فقال : امدد يا رسول الله يدك ، فأشهده أنه تصدق ببستانه الذي لا يملك غيره ، وكان فيه سبعمائة نخلة مثمرة ، ثم عاد الى زوجه ، وكانت تقيم هي وأولادها في هذا البستان ، فأخبرها بما صنع ، وغادرت هي وأولادها البستان وهي تقول له : ربح بيعك يا أبا الدحداح •• ولما نزل قول الله تبارك وتعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون [2] » • قال ابو طلحة الانصاري : يا رسول الله : إن أحب أموالي إليّ بيرحاء — وهي بئر طيبة الماء — وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله تبارك وتعالى ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : » بخ بخ ، ذاك مال" رابح ، ذاك مال" رابح ، حبّس الاصل وسبّل الثمرة [3] » • وكانت هذه الصدقة أول وقف في الاسلام •• ومن هنا نشأ « الوقف » ، وهو الذي كان يمد كل المؤسسات الاجتماعية بالموارد المالية التي تعينها على اداء رسالتها الانسانية النبيلة • كان الوقف هو الحجر الاساسي الذي قامت عليه كل المؤسسات الخيرية في تاريخ حضارتنا • وقد كان رسول الله أول من ضرب المثل الأعلى لامته في ذلك ، فأوقف سبع بساتين كان أوصى بعض المحاربين حين مات أن يترك أمرها للرسول يتصرف بها كيف يشاء ، فأوقفها رسول الله على الفقراء

---

(١) البقرة : ٢٤٥ (٢) آل عمران : ٩٢

(٣) تفسير ابن كثير

والمساكين والغزاة وذوي الحاجات ، ثم تبعه بعد ذلك عمر بن الخطاب فأوقف أرضه بخيبر ، ثم تبعه الصحابة ، فأوقف ابو بكر ، وعثمان ، وعلي ، والزبير ، ومعاذ ، وغيرهم ، حتى لم يبق صحابي الا أوقف من امواله شيئا . وتجدد هذا العمل الانساني مرة اخرى في خلافة عمر ، حين أوقف أرضاً في سبيل الله وهو في خلافته ، ودعا نفراً من المهاجرين والانصار فأحضرهم وأشهدهم على ذلك، قال جابر بن عبدالله الانصاري: فما أعلم أحداً ذا مقدرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والانصار الا حبس مالاً من ماله صدقةً موقوفة لا تُشترى ولا تورث ولا توهب . ثم تتابع المسلمون بعد ذلك جيلا بعد جيل ، يوقفون الاراضي والبساتين والدور والغلات لاعمال البر ، مما ملأ المجتمع الاسلامي بالمؤسسات التي بلغت حداً من الكثرة يصعب احصاؤه والاحاطة به ...

كانت هذه المؤسسات نوعين : نوعاً تنشئه الدولة وتوقف عليه الأوقاف الواسعة ، ونوعاً ينشئه الافراد من أمراء وقواد وأغنياء ونساء . ولا نستطيع في مثل هذا الحديث أن نعدد أنواع المؤسسات الخيرية كلها ، ولكن حسبنا أن نلمّ بأهمها :

فمن أول المؤسسات الخيرية المساجد ، وكان الناس يتسابقون الى اقامتها ابتغاء وجه الله ، بل كان الملوك يتنافسون في عظمة المساجد التي يؤسسونها ، وحسبنا أن نذكر هنا مبلغ ما انفقه الوليد بن عبد الملك من أموال بالغة على بناء الجامع الأموي ، مما لا يكاد يصدقه الانسان لكثرة ما أنفق من مال وما استخدم في اقامته من رجال .

ومن أهم المؤسسات الخيرية المدارس والمستشفيات ، وسنفرد لها حديثا خاصا ان شاء الله .

ومن المؤسسات الخيرية بناء الخانات والفنادق للمسافرين المنقطعين وغيرهم من ذوي الفقر ، ومنها التكايا والزوايا التي ينقطع فيها من شاء لعبادة الله عز وجل ، ومنها بناء بيوت خاصة للفقراء يسكنها من لا يجد ما يشتري به او يستأجر داراً، ومنها السقايات أي تسبيل الماء في الطرقات العامة للناس جميعا ، ومنها المطاعم الشعبية التي كان يفرق فيها الطعام من خبز ولحم وحساء ( شوربة ) وحلوى ، ولا يزال عهدنا قريباً بهذا النوع في كل من تكية السلطان سليم ، وتكية الشيخ محيي الدين بدمشق ، ومنها بيوت للحجاج في مكة ينزلونها حين يفدون الى بيت الله الحرام ، وقد كثرت هذه البيوت حتى عمت أرض مكة كلها ، وأفتى بعض الفقهاء ببطلان إجارة بيوت مكة في أيام الحج لانها كلها موقوفة على الحجاج ، ومنها حفر الآبار في الفلوات لسقي الماشية والزروع والمسافرين ، فقد كانت كثيرة جداً بين بغداد ومكة ، وبين دمشق والمدينة ، وبين عواصم المدن الاسلامية ومدنها وقراها ، حتى قلَّ أن يتعرض المسافرون ـ في تلك الايام ـ لخطر العطش . ومنها أمكنة المرابطة على الثغور لمواجهة خطر الغزو الاجنبي على البلاد ، فقد كانت هنالك مؤسسات خاصة بالمرابطين في سبيل الله ، يجد فيها المجاهدون كل ما يحتاجون اليه من سلاح وذخيرة وطعام وشراب ، وكان لها أثر كبير في صد غزوات الروم أيام العباسيين ، وصد غزوات الغربيين في الحروب الصليبية عن بلاد الشام ومصر . ويتبع ذلك وقف الخيول والسيوف والنبال وأدوات الجهاد على المقاتلين في سبيل الله عز وجل ، وقد كان لذلك أثر كبير في رواج الصناعة الحربية وقيام مصانع كبيرة لها في بلادنا ، حتى كان الغربيون في الحروب الصليبية ، يفدون الى بلادنا ـ ايام الهدنة ـ ليشتروا منا السلاح ، وكان العلماء يفتون

بتحريم بيعه للاعداء ، فانظر كيف انقلب الامر الآن فأصبحنا عالة على الغربيين في السلاح لا يسمحون لنا به إلا بشروط تقضي على كرامتنا واستقلالنا ..

ويتبع ذلك أوقاف خاصة يعطى ريعها لمن يريد الجهاد وللجيش المحارب حين تعجز الدولة عن الانفاق على كل افراده ، وبذلك كان سبيل الجهاد ميسراً لكل مناضل يودّ أن يبيع حياته في سبيل الله ليشتري بها جنةً عرضها السموات والارض .. فانظر كيف عاد بنا الامر الى أن نقيم أسبوعا للتسلح تجمع فيه التبرعات لتقوية الجيش وتسليحه ، ولو كان عندنا وعي اجتماعي وإيمان صادق لأقمنا من أموالنا كل يوم - لا اسبوعاً واحداً في العام - مصانع لتزويد جيشنا بالسلاح والعتاد ، حتى يكون من أقوى الجيوش وأكثرها استعداداً لصد العدوان وحماية الديار ..

ومن المؤسسات الاجتماعية ماكانت وقفاً لاصلاح الطرقات والقناطر والجسور ، ومنها ما كانت للمقابر يتبرع الرجل بالارض الواسعة لتكون مقبرة عامة .

ومنها ما كان لشراء أكفان الموتى الفقراء وتجهيزهم ودفنهم .

أما المؤسسات الخيرية لاقامة التكافل الاجتماعي ، فقد كانت عجباً من العجب ، فهناك مؤسسات للّقطاء واليتامى ولختانهم ورعايتهم ، ومؤسسات للمقعدين والعميان والعجزة ، يعيشون فيها موفوري الكرامة لهم كل ما يحتاجون من سكن وغذاء ولباس وتعليم ايضا .

وهنـــالك مؤسسات لتحسين أحوال المساجين ورفـع مستواهم وتغذيتهم بالغذاء الواجب لصيانة صحتهم ، ومؤسسات لإمداد العميان والمقعدين بمن يقودهم ويخدمهم .

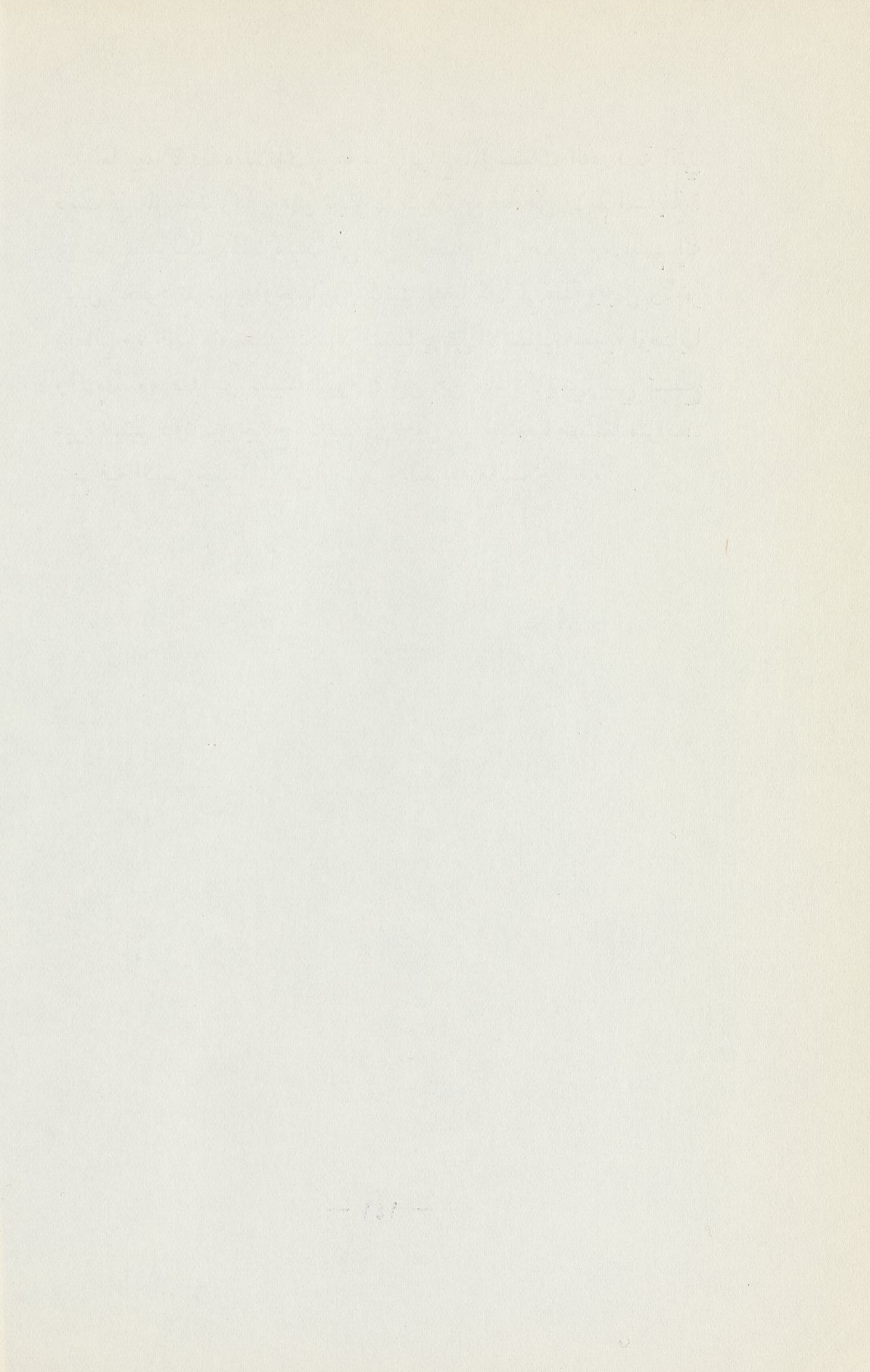
ومؤسسات لتزويج الشباب والفتيات العزّاب ممن تضيق أيديهم أو أيدي أوليائهم عن نفقات الزواج وتقديم المهور .. فما أروع هذه العاطفة وما أحوجنا اليها اليوم !

ومنها مؤسسات لإمداد الأمهات بالحليب والسكر ، وهي أسبق في الوجود من جمعية نقطة الحليب عندنا، مع تمحّضها للخير الخالص لله عز وجل ، وقد كان من مبرات صلاح الدين أنه جعل في أحد أبواب القلعة ـ الباقية حتى الآن في دمشق ـ ميزاباً يسيل منـه الحليب ، وميزابا آخر يسيل منه الماء المذاب فيه السكر ، تأتي اليه الامهات يومين في كل أسبوع ليأخذن لأطفالهن وأولادهن ما يحتاجون اليه من الحليب والسكر ..

ومن أطرف المؤسسات الخيرية وقف الزبادي للأولاد والخدم الذين يكسرون الزبادي وهم في طريقهم الى البيت ، فيأتون الى هذه المؤسسة ليأخذوا زبادي جديـدة بدلا من المكسورة ، ثم يرجعوا الى أهليهم وكأنهم لم يصنعوا شيئا .

وآخر ما نذكره من هذه المؤسسات ، المؤسسات التي أقيمت لعلاج الحيوانات المريضة ، أو لاطعامها ، أو لرعيها حين عجزها ، كما هو شأن المرج الاخضر في دمشق الذي يقام عليه الملعب البلدي الآن ، فقد كان وقفاً للخيول والحيوانات العاجزة المسنة ترعى منه حتى تلاقي حتفها .

أما بعد ، فهذه ثلاثون نوعاً من أنواع المؤسسات الخيريـة التي قامت في ظل حضارتنا ، فهل تجد لها مثيلاً في أمة من الامم السابقة ؟ بل هل تجد لكثير منها مثيلاً في ظل الحضارة الراهنة ؟ .. اللهم إنه سبيل الخلود تفردنا به وحدنا يوم كانت الدنيا كلها فيغفلة وجهل وتأخر وتظالم .. اللهم انه سبيل الخلود كشفنا به عن الانسانية المعذبة اوصابها وآلامها .. فما هو سبيلنا اليوم ؟ أين هي تلك الايدي التي تمسح عبرة اليتيم ، وتأسو جراح الكليم ، وتجعل من مجتمعنا مجتمعا متراصاً، ينعم فيه الناس جميعاً بالامن والخير والكرامة والسلام ؟ ..



— ٩ —

# المدارس والمعاهد العلمية

تحدثنا آنفا عن المؤسسات الخيرية وتنوعها في حضارتنا تنوعا يبعث على العجب والاكبار لما بلغته النزعة الانسانية من أثر كبير في نفوس أمتنا ، ووعدنا بالحديث عن المدارس والمستشفيات حديثا خاصا.
اما المدارس ، وهي التي قامت على الاوقاف الكثيرة التي تبرع بها الاغنياء من قادة وعلماء وتجار وملوك وأمراء ، فقد بلغت من الكثرة حدا بالغا ، وحسبك ان تعلم أنه لم تخل مدينة ولا قرية ، في طول العالم الاسلامي وعرضه ، من مدارس متعددة يعلم فيها عشرات من المعلمين والمدرسين .

كان المسجد هو النواة الاولى للمدرسة في حضارتنا ، فلم يكن مكان عبادة فحسب بل كان مدرسة يتعلم فيها المسلمون القراءة والكتابة والقرآن وعلوم الشريعة واللغة وفروع العلوم المختلفة ، ثم أقيم بجانب المسجد الكتّاب ، وخصص لتعليم القراءة والكتابة والقرآن وشيء من علوم العربية والرياضة ، وكان الكتّاب يشبه المدرسة الابتدائية في عصرنا الحاضر ، وكان من الكثرة بحيث عد ابن حوقل ثلاثمائة كتّاب في مدينة واحدة من مدن صقلية . وكان من الاتساع احيانا بحيث يضم الكتّاب الواحد مئات وآلافا من الطلاب . ومما يذكر في تاريخ ابي القاسم البلخي انه كان له كتّاب يتعلم به ثلاثة آلاف تلميذ ، وكان كتّابه فسيحا جدا بحيث يحتاج الى ان يركب حمارا ليتردد بين طلابه وليشرف على شؤونهم .

ثم قامت المدرسة بجانب الكتّاب والمسجد ، وكانت الدراسة فيها تشبه الدراسة الثانوية والعالية في عصرنا الحاضر . كان التعليم فيها مجانيا ولمختلف الطبقات ، فلم يكن يدفع الطلاب في دراستهم الثانوية والعالية رسما ما من رسوم الدراسة التي يدفعها طلابنا اليوم ، ولم يكن التعليم فيها محصورا بفئة من أبناء الشعب دون فئة ، بل كانت فرصة التعليم متوفرة لجميع ابناء الشعب ، كان يجلس فيها ابن الفقير بجانب ابن الغني ، وابن التاجر بجانب ابن الصانع والمزارع . وكانت الدراسة فيها قسمين : قسما داخليا للغرباء والذين لا تساعدهم احوالهم المادية على ان يعيشوا على نفقات آبائهم ، وقسما خارجيا لمن يريد ان يرجع في المساء الى بيت اهله وذويه . أما القسم الداخلي فكان بالمجان ايضا ، يهيأ للطالب فيه الطعام والنوم والمطالعة والعبادة .. وبذلك كانت كل مدرسة تحتوي على مسجد ، وقاعات للدراسة ، وغرف لنوم الطلاب ، ومكتبة ، ومطبخ وحمام . وكانت بعض المدارس تحتوي فوق ذلك على ملاعب للرياضة البدنية في الهواء الطلق . ولا تزال لدينا حتى الآن نماذج من هذه المدارس التي غمرت العالم الاسلامي كله ، ففي دمشق لا تزال المدرسة النورية التي أنشأها البطل العظيم نور الدين الشهيد ، وهي الواقعة الآن في سوق الخياطين ، لا تزال قائمة تعطينا نموذجا حيا لهندسة المدارس في عصور الحضارة الاسلامية ، لقد زارها الرحالة ابن جبير في اوائل القرن السابع الهجري ، فأعجب بها وكتب عنها : « من أحسن مدارس الدنيا مظهرا مدرسة نور الدين رحمه الله ، وهي قصر من القصور الانيقة ، ينصب فيه الماء في شاذوران وسط نهر عظيم ، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة الى ان يقع في صهريج كبير وسط

الدار فتحار الابصار في حسن ذلك المنظر » . ومع ان عوادي الزمن قد عدت على هذه المدرسة وانتزع منها بعض مساحتها وأجزائها ، فقد بقي فيها حتى الآن الايوان ، وهي قاعة المحاضرات ، والمسجد وغرفة للمدرسين واستراحتهم ، وهي تقوم مقام غرفة الأساتذة في كليات الجامعة ، وبيت خاص يسكنه رئيس المدرسين مع عائلته ، ومساكن للطلاب ولخدم المدرسة . وقد اغتصب منها جيرانها قاعة الطعام والمطبخ ومخزن البقول والمواد المختلفة . هذا نموذج حي للمدرسة في العصر القديم، ونجد مثله فيحلب في مدارس الشعبانية والعثمانية والخسروية، حيث لا يزال فيها للطلاب غرف يسكنونها وقاعات للدراسة ، وقد كانوا من قبل يأكلون فيها ثم عدل عن ذلك الى راتب معلوم في آخر كل شهر يعطى للطلاب المنتسبين اليها .

وأظهر مثال حي لهذه المدارس الجامع الازهر ، فهو مسجد تقام في أبهائه حلقات للدراسة ، تحيط به من جهاته المتعددة غرف لسكن الطلاب تسمى بالأروقة ، يسكنها طلاب كل بلد بجانب واحد ، فرواق للشاميين ، ورواق للمغاربة ، ورواق للاتراك ، ورواق للسودانيين ، وهكذا .. ولا يزال طلاب الازهر حتى اليوم يأخذون راتبا شهريا مع دراستهم المجانية من ريع الاوقاف التي أوقفت على طلاب العلم بالازهر.

وجدير بنا ونحن نتحدث عن المدارس أن نتحدث عن المدرسين وأحوالهم ورواتبهم ، لقد كان رؤساء المدارس من خيرة العلماء وأكثرهم شهرة ، وانا لنجد في تاريخ مشاهير العلماء المدارسَ التي درسوا فيها ، فالامام النووي وابن الصلاح وابو شامة وتقي الدين السبكي وعماد الدين بن كثير وغيرهم ممن كانوا يدرسون في دار الحديث بدمشق ،

والغزالي والشيرازي وامام الحرمين والشاسي والخطيب التبريزي والقزويني والفيروز أبادي وغيرهم ممن كانوا يدرسون في المدرسة النظامية ببغداد ، وهكذا .. ولم يكن المدرسون في صدر الاسلام يأخذون أجرا على تعليمهم حتى اذا امتد الزمن واتسعت الحضارة وبنيت المدارس وأوقف لها الاوقاف جعل للمدرسين فيها رواتب شهرية . ومن الطريف ان نذكر صنيع علماء ما وراء النهر حين بنى نظام الملك مدارسه الشهيرة في الامصار وجعل للمدرسين فيها رواتب معلومة ، فقد اجتمعوا لينكروا هذا الصنيع ، وليقيموا مأتما للعلم ينعون فيه ذهاب العلم وبركته ، وقد قالوا : كان يشتغل بالعلم أرباب الهمم العلية والأنفس الزكية ، الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به ، واذا صار عليه أجرة تدانى اليه الاخساء وأرباب الكسل ، فيكون ذلك سببا لمهانته وضعفه . ولكن هذه النظرة لم تثبت أمام تطور الحياة وضرورات الحضارة ، وأصبح للمدرسين رواتب تختلف بين الكثرة والقلة بحسب الامصار والمدارس والاوقاف ، ولكنها على كل حال كانت كافية ليعيش المدرس عيشة هانئة . هذا عدا عما كان يعطى المدرس من رواتب اخرى لقاء حاجاته المعاشية . فقد كان الشيخ نجم الدين الخبوشاني ممن عيّنه السلطان صلاح الدين ليدرس في مدرسته الصلاحية ، وقد جعل له كل شهر اربعين دينارا عن التدريس ، وعشرة دنانير للاشراف على اوقاف المدرسة ، وستين رطلا مصريا من الخبز كل يوم ، وراويتين من ماء النيل كل يوم . وكان من رواتب شيوخ الازهر الشهرية ، راتب يأخذه لنفقات بغلته ، اذ كان من اوقاف الازهر وقف خاص لبغلة الشيخ ونفقاتها ، وقد بلغ ما يأخذه من ريع هذا الوقف باسم البغلة مائة جنيه شهريا في السنوات المتأخرة ، حتى أضيف الى راتبه الشهري أخيرا .

ولم يكن يجلس للتدريس الا من شهد له الشيوخ بالكفاءة . وقد كان الامر في عصر الاسلام الاول أن يسمح الشيخ للتلميذ بالانفصال عن حلقته وانشاء حلقة خاصة ، او أن يعهد برئاسة الحلقة اليه بعد وفاته، فان فعل غير ذلك كان محل نقد وتعرض للاسئلة الشديدة المحرجة .. في تاريخ ابي يوسف قاضي القضاء في عصر هارون الرشيد ، انه مرض في حياة شيخه ابي حنيفة ، فعاده شيخه وقال له : قد كنت أؤمِّلك بعدي للمسلمين ، ثم برىء ابو يوسف من مرضه وقد أعجب بنفسه حين سمع شهادة شيخه له ، فعقد مجلسا خاصا منفردا عن شيخه ابي حنيفة ، فأرسل اليه أبو حنيفة من يسأله خمس مسائل دقيقة يحتاج الجواب فيها الى تفصيل وايضاح ، فأخطأ ابو يوسف في الاجابة وأدرك خطأه في انفراده عن شيخه ، فعاد الى حلقته ، فقال له ابو حنيفة : تزبَّبْتَ قبل أن تحصرم ، من ظن أنه يستغني عن التعلم فليبك على نفسه !... هكذا كان الامر . فلما انشئت المدارس جُعل للمتخرجين فيها اجازات علمية يعطيها شيخ المدرسة ، وهي تشبه الاجازات العلمية في عصرنا ، ولم يكن يسمح للاطباء بممارسة الطب الا بعد نوال هذه الشهادة من كبير أطباء المدرسة .

وكان للمدرسين شعار خاص يفصلهم عن غيرهم من أرباب المهن . كان شعارهم في عهد ابي يوسف عمامة سوداء وطيلسانا ، وشعارهم في عهد الفاطميين عمامة خضراء وكسوة مذهبة تتكون من ست قطع ، اهمها القلنسوة والطيلسان . أما الجبة واختصاص العلماء والمدرسين بها فقد بدأ ذلك في عهد الامويين . وكانت ملابسهم في الاندلس

تختلف قليلا عن ملابس العلماء والمدرسين في المشرق ، وأهم ما كان يميزهم صغر العمامة ، وفي بعض الاحيان لم يكن العالم يلبس العمامة ، حتى ان أبا علي القالي ، الامام اللغوي الشهير ، حين وصل الاندلس من المشرق واستقبله علماؤها كان محل دهشة العامة ، اذ رأوه يلبس عمامة كبيرة على رأسه ، فكان الصغار والسفهاء يحذفونه بالحصى استهزاء واستنكارا .. وقد أخذ الغربيون عن مدرسي الاندلس زيهم ، فكان هو أصل الزي العلمي المعروف الآن في الجامعات الاوروبية .

وكان للمعلمين نقابة كنقابة الطالبيين ونقابة الاشراف ونقابات بعض الحرف والمهن الصناعية في تلك العصور ، وكان جماعة المدرسين هم الذين يختارون النقيب ، وما كان يتدخل السلطان الا اذا وقع خلاف بين الاعضاء فيصلح بينهم .

روى ابو شامة في الروضتين عن مقلد الدولعي قال : لما مات الحافظ المرادي ، وكنا جماعة الفقهاء قسمين : العرب والاكراد ، فمنا من مال الى المذهب ، وأردنا ان نستدعي الشيخ شرف الدين بن ابي عصرون ، ومنا من مال الى علم النظر والخلاف ، وأراد ان يستدعي القطب النيسابوري ، فوقعت فتنة بين الفقهاء بسبب ذلك ، فسمع نور الدين بها ، فاستدعى جماعة الفقهاء ، وخرج لهم مجد الدين بن الداية نائبا عنه وقال لهم : ما أردنا ببناء المدارس الا نشر العلم ودحض البدع ، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ولا يليق ، وقد قال المولى ( أي نور الدين ) نرضي الطائفتين ونستدعي الشيخين ، فاستدعيا ، وولي شرف الدين المدرسة التي سميت باسمه ، وولي قطب الدين مدرسة النفري .

كانت المدارس على هذا ، وخاصة المعاهد العليا ، تملأ مدن العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه ويذكر التاريخ بكثير من الاكبار والاعجاب نفرا من أمراء المسلمين كانت لهم اليد الطولى في انشاء المدارس في مختلف الامصار ، منهم صلاح الدين الايوبي ، فقد أنشأ المدارس في جميع المدن التي كانت تحت سلطانه في مصر ودمشق والموصل وبيت المقدس ، ومنهم نور الدين الشهيد الذي أنشأ في سورية وحدها أربعة عشر معهدا ، منها ستة في دمشق ، وأربعة في حلب ، واثنان في حماه ، واثنان في حمص ، وواحد في بعلبك ، ومنهم نظام الملك الوزير السلجوقي العظيم الذي ملأ بلاد العراق وخراسان بالمدارس حتى قيل فيه ان له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة ، وكان ينشىء المدارس حتى في الاماكن النائية ، فقد انشأ في جزيرة ابن عمرو مدرسة كبيرة حسنة ، وكلما وجد في بلدة عالما قد تميز وتبحر في العلم بنى له مدرسة ووقف عليها وقفا وجعل فيها دار كتب . وقد كانت نظامية بغداد أولى المدارس النظامية وأهمها ، درس فيها مشاهير علماء المسلمين فيما بين القرن الخامس والتاسع الهجري ، وقد بلغ عدد طلابها ستة آلاف تلميذ ، فيهم ابن أعظم العظماء في المملكة وابن أفقر الصناع فيها ، وكلهم يتعلمون بالمجان ، وللطالب الفقير فوق ذلك شيء معلوم يتقاضاه من الريع المخصص لذلك .

وبجانب هؤلاء العظماء كان الامراء والاغنياء والتجار يتسابقون في بناء المدارس والوقف عليها بما يضمن استمرارها واقبال الطلاب عليها ، وكثيرون جدا هم الذين جعلوا بيوتهم مدارس ، وجعلوا ما فيها من كتب وما يتبعها من عقار وقفا على طلاب العلم الدارسين فيها .

وبذلك كثرت المدارس وخاصة في المشرق كثرة هائلة مدهشة ، حتى ان ابن جبير الرحالة الاندلسي هاله ما رأى في المشرق من كثرة المدارس والغلات الوافرة التي تغله اوقافها ، فدعا المغـاربة ان يرحلوا للمشرق لتلقي العلم ، وكان مما قاله : « وتكثر الاوقاف على طلاب العلم في البلاد المشرقية كلها وبخاصة دمشق ، فمن شاء الفلاح من ابناء مغربنـا فليرحل الى هذه البلاد ، فيجد الامور المعينة على طلب العلم كثيرة ، وأولها فراغ البال من أمر المعيشة » .

وشهادة ابن جبير لها قيمتها ، فإنه رحالة تميز بالصدق والامانة في حديثه ، وقد خص ابن جبير دمشق بكثرة المدارس والاوقاف ، وكانت كذلك حقا أمدا طويلا من تاريخنا .. كانت مدارس دمشق العامرة التي يؤمها الطلاب تزيد على اربعمائة مدرسة ، حتى ان الطالب الغريب اذا قدم دمشق يستطيع ان يقيم سنة فيها لا ينام في كل مدرسة الا ليلة واحدة .

وقد ذكر لنا ابن عساكر في تاريخه قصيدة لسلطان بن علي بن منقذ الكتاني في وصف دمشق والاشادة بفضلها ، ومما جاء فيها عن مدارسها قولـه :

ومدارس لم تأتها في مشكل — الا وجدت فتى يحل المشكلا
ما أمّهـا مرء يكابـد حيرة — وخصاصة الا اهتدى وتمولا
وبهـا وقوف لا يزال مغلهـا — يستنقذ الأسرى ويغني العيّلا
وأئمـة تلقي الدروس وسادة — تشفي النفوس وداؤها قد أعضلا

واليك أمثلة من كثرة الاوقاف التي كانت توقف على المدارس .

فقد كانت الاوقاف التي وقفت على المدرسة النورية الكبرى بدمشق ، كما جاء ذلك مثبتا على باب المدرسة ، هي : جميع الحمام المستجد بسوق القمح ، والحمامين المستجدين بالوارقة خارج باب السلامة ، والدار المجاورة لهما ، والوارقة بعونية الحمى، وجنينة الوزير، والنصف والربع من بستان الجوزة بالارزة ، والأحد عشر حانوتا خارج باب الجابية ، والساحة الملاصقة لهما من الشرق ، والتسعة الحقول بداريا .

وكانت الاوقاف التي وقفت على البيمارستان النوري بحلب هي : قرية معراتا ونصف مزرعة وادي العسل من جبل سمعان ، وخمسة أفدنة من مزرعة كفر تابا ، وثلث مزرعة الخالدي وطاحون من المطخ ، وثمن طاحون ظاهر بباب الجنان ، وثمانية أفدنة من مزرعة ابو مرايا من غراز (هكذا ولعلها : اعزاز) ، وخمسة افدنة من مزرعة الحميرة من المطخ، واثنا عشر فدانا من مزرعة الفرزل من المعرة ، وثلث قرية بيت راعيل من العزبيات ، وعشرة دكاكين بسوق الهواء ، وأحكار ظاهر باب انطاكية وباب الفرج وباب الجنان .

وحسبنا دليلا على كثرة اوقاف المدارس والمساجد في دمشق خاصة أن الامام النووي المتوفى عام ٦٧٦ هـ لم يكن يأكل من فواكه دمشق طيلة حياته لأن أكثر غوطتها وبساتينها أوقاف قد اعتدى عليها الظالمون .

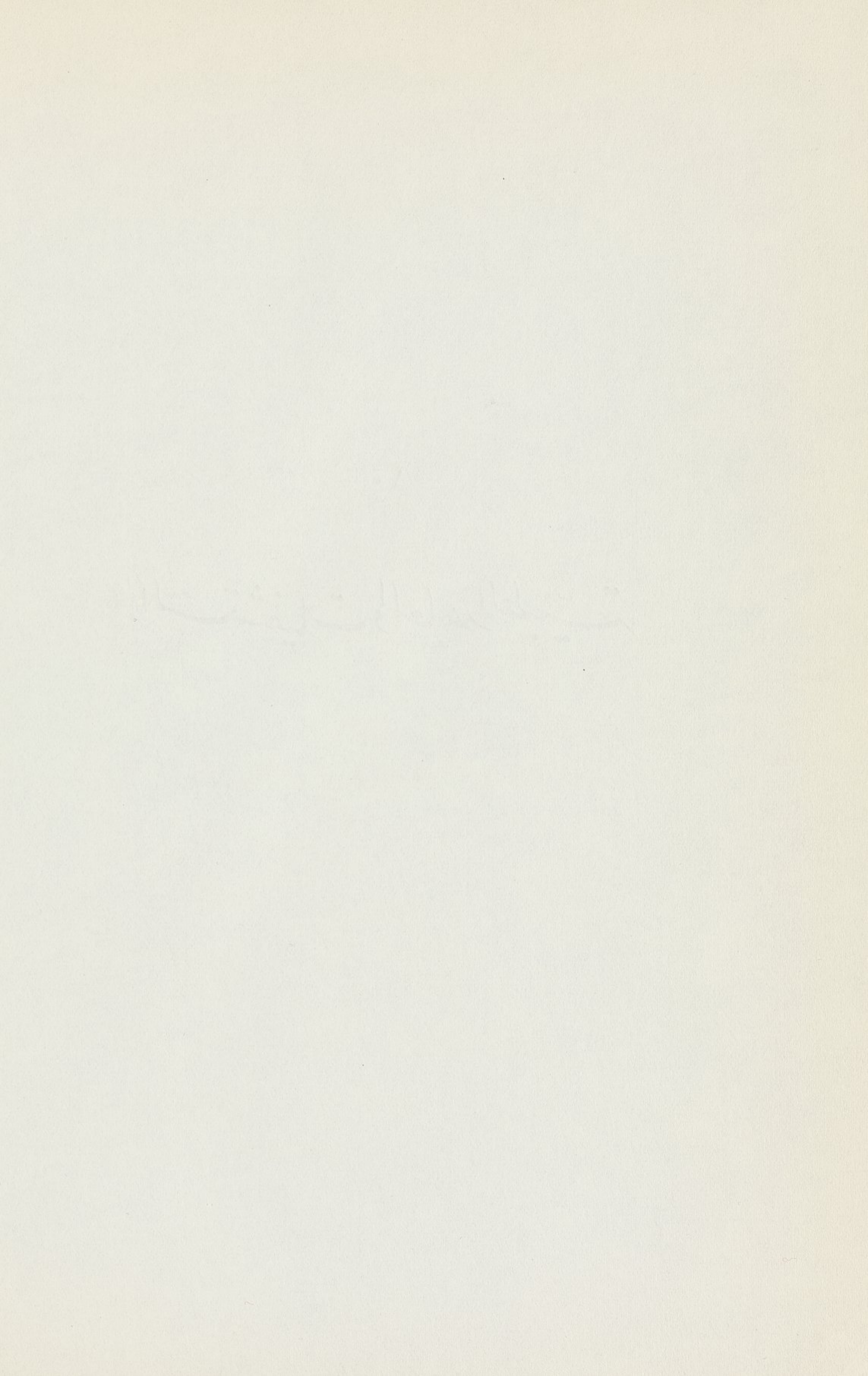
وكانت المدارس متعددة الغايات ، فمنها مدارس لتدريس القرآن الكريم وتفسيره وحفظه وقراآته ، ومنها مدارس للحديث خاصة ، ومنها ـ وهي أكثرها ـ مدارس للفقه ، لكل فقه مدارس خاصة به ، ومنها مدارس للطب ، ومنها مدارس للأيتام ، وها هو النعيمي في كتابه الدارس في تاريخ المدارس ـ وهو من علماء القرن العاشر الهجري ـ

يذكر لنا ثبتاً بأسماء مدارس دمشق وأوقافها ، ومنه نعلم أنه كان في دمشق وحدها للقرآن الكريم سبع مدارس ، وللحديث ست عشرة مدرسة ،وللقرآن والحديث معا ثلاث مدارس ، وللفقه الشافعي ثلاث وستون مدرسة ، وللفقه الحنفي اثنتان وخمسون مدرسة ، وللفقه المالكي أربع مدارس ، وللفقه الحنبلي أحدى عشرة مدرسة ، هذا عدا عن مدارس الطب والرباطات والفنادق والزوايا والجوامع ، وكلها كانت مدارس يتعلم فيها الناس .. واذا ذكرنا مع هذا ما كان عليه الغربيون في تلك العصور نفسها من جهالة مطبقة ومن أميّة متفشية حتى لم يكن للعلم مأوى إلا أديرة الرهبان ، وهي مقصورة على رجال الكهنوت فقط ، أدركنا أية عظمة بلغتها أمتنا في أوج مجدها ، وكم كانت حضارتنا رائعة في تاريخ المؤسسات الاجتماعية والمعاهد العلمية ، وكم كان للاسلام من يد في نشر العلم ، ورفع مستوى الثقافة العامة ، وتيسير سبلها لسائر أبناء الشعب .

قال ابن كثير في البداية والنهاية في حوادث سنة احدى وثلاثين وستمائة : « فيها كمل بناء المدرسة المستنصرية ببغداد ، ولم يُبن مدرسة قبلها مثلها . ووقفت على المذاهب الأربعة ، من كل طائفة اثنان وستون فقيها ، وأربعة معيدين ، ومدرس لكل مذهب ، وشيخ حديث ، وقارئان ، وعشرة مستمعين ، وشيخ طب ، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب ، ومكتب للأيتام ، وقدر للجميع من الخبز واللحم والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد .. » الى أن قال : « ووقفت خزائن كتب لم يسمع بمثلها في كثرتها وحسن نسخها وجودة الكتب الموقوفة بها » .

- ١٠ -

# المستشفيات والمعاهد الطبية



من المبادىء التي قامت عليها حضارتنا ، جمعها بين حاجة الجسم وحاجة الروح ، واعتبارها العناية بالجسم ومطالبه ضرورية لتحقيق سعادة الانسان وإشراق روحه ، ومن الكلمات المأثورات عن واضع أسس هذه الحضارة رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لجسدك عليك حقا [١] » ومن الملاحظ في عبادات الاسلام تحقيقها أهم غرض من أغراض علم الطب وهو حفظ الصحة [٢] ، فالصلاة والصيام والحج وما تتطلبه هذه العبادات من شروط وأركان وأعمال ، كلها تحفظ للجسم صحته ونشاطه وقوته ، واذا أضفنا الى ذلك مقاومة الاسلام للأمراض وانتشارها ، وترغيبه في طلب العلاج المكافح لها ، علمت أية أسس قويمة قام عليها بناء حضارتنا في ميدان الطب ، ومبلغ ما أفاده العالم من حضارتنا في اقامة المشافي والمعاهد الطبية ، وتخريج الأطباء الذين لا تزال الانسانية تفخر بأياديهم على العلم عامة والطب خاصة .

عرف العرب مدرسة جنديسابور الطبية التي أنشأها كسرى في منتصف القرن السادس الميلادي وتخرج فيها بعض اطبائهم ، كالحارث بن كلدة الذي عاش في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وكان يشير على أصحابه بالتداوي عنده حين تنتابهم الأمراض . وفي عهد الوليد بن عبد الملك أنشيء اول مستشفى في الاسلام ، وهو خاص بالمجذومين ، وجعل

---

(١) رواه البخاري ومسلم

(٢) يعرف الطب « علي بن عباس » بأنه علم يبحث في حفظ الصحة على الاصحاء وردها على المرضى .

فيه الأطباء ، وأجرى لهم الأرزاق ، وأمر بحبسهم لئلا يخرجوا ، وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق ، ثم تتابع انشاء المشافي ، وقد كانت تعرف باسم « البيمارستانات » أي دور المرضى .

وكانت المستشفيات نوعين : نوعاً متنقلاً ، ونوعاً ثابتاً ، أما المتنقل، فأول ما عرف في الاسلام في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، في غزوة الخندق ، إذ ضرب خيمة للجرحى فلما أصيب سعد بن معاذ في أكحله ( والاكحل عرق في الذراع يفصد ) قال صلى الله عليه وسلم : اجعلوه في خيمة رفيدة ، حتى اعوده من قريب ، وهو أول مستشفى حربي متنقل في الاسلام ، ثم توسع فيه الخلفاء والملوك من بعد ، حتى أصبح المستشفى المتنقل مجهزاً بجميع ما يحتاجه المرضى ، من علاج وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء وصيادلة ، وكان ينقل من قرية الى قرية في الاماكن التي لم يكن فيها مستشفيات ثابتة . كتب الوزير عيسى بن علي الجراح الى سنان بن ثابت ، وكان يتولى النظر على مستشفيات بغداد وغيرها : « فكرت فيمن بالسواد ــ أي القرى ــ من أهله ، وأنه لا يخلو من أن يكون فيه مرضى لا يشرف متطبب عليهم لخلو السواد من الأطباء ، فتقدم بايفاد متطببين ( أي أطباء ) وخزانة من الادوية والاشربة يطوفون السواد ، ويقيمون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة الى مقامهم ، ويعالجون من فيه ، ثم ينتقلون الى غيره » . وقد بلغ بعض المستشفيات المتنقلة في أيام السلطان محمود السلجوقي حداً من الضخامة بحيث كان يحمل على أربعين جملا .

وأما المستشفيات الثابتة ، فقد كانت كثيرة تفيض بها المدن والعواصم، ولم تخل بلدة صغيرة في العالم الاسلامي يومئذ من مستشفى فأكثر ، حتى أن قرطبة وحدها كان فيها خمسون مستشفى .

وتنوعت المستشفيات ، فهناك مستشفيات للجيش يقوم عليها أطباء مخصوصون ، عدا عن أطباء الخليفة والقواد والأمراء ، وهناك مستشفيات للمساجين ، يطوف عليهم الأطباء في كل يوم فيعالجون مرضاهم بالادوية اللازمة ، ومما كتب به الوزير علي بن عيسى بن الجراح الى سنان بن ثابت رئيس أطباء بغداد : « فكرت في أمر من في الحبوس ، وأنه لا يخلو مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراض ، فينبغي أن تفرد لهم أطباء يدخلون اليهم في كل يوم ، وتحمل اليهم الأدوية والأشربة ، ويطوفون في سائر الحبوس ، ويعالجون فيها المرضى » .

وهناك محطات للاسعاف كانت تقام بالقرب من الجوامع والاماكن العامة التي يزدحم فيها الجمهور ، ويحدثنا المقريزي أن ابن طولون حين بنى جامعه الشهير في مصر عمل في مؤخره ميضأة وخزانة شراب ( أي صيدلية أدوية ) وفيها جميع الشرابات والأدوية ، وعليها خدم ، وفيها طبيب جالس يوم الجمعة ، لمعالجة من يصابون بالأمراض من المصلين .

وهناك المستشفيات العامة ، التي كانت تفتح أبوابها لمعالجة الجمهور ، وكانت تقسم الى قسمين منفصلين بعضهما عن بعض : قسم للذكور ، وقسم للاناث ، وكل قسم فيه قاعات متعددة ، كل واحدة منها لنوع من الأمراض ، فمنها للأمراض الداخلية ، ومنها للعيون ، ومنها للجراحة ، ومنها للكسور والتجبير ، ومنها للأمراض العقلية ، وقسم الأمراض الداخلية كان مقسما الى غرف ايضا ، فغرف منها للحمّيات ، وغرف للاسهال ، وغير ذلك ، ولكل قسم أطباء عليهم رئيس ، فرئيس للأمراض الباطنية ، ورئيس للجراحين والمجبرين ، ورئيس للكحالين ( أي أطباء

العيون ) ، ولكل الاقسام رئيس عام يسمى ( ساعور ) وهو لقب لرئيس الأطباء في المستشفى • وكان الأطباء يشتغلون بالنوبة ، ولكل طبيب وقت معين يلازم فيه قاعاته التي يعالج فيها المرضى • وفي كل مستشفى عدد من الفراشين من الرجال والنساء والممرضين والمساعدين ، ولهم رواتب معلومة وافرة • وفي كل مستشفى صيدلية كانت تسمى «خزانة الشراب » فيها أنواع الأشربة والمعاجين النفيسة ، والمربيات الفاخرة ، وأصناف الأدوية ، والعطورات الفائقة التي لا توجد الا فيها ، وفيها من الآلات الجراحية والأواني الزجاجية والزبادي وغير ذلك، ما لا يوجد الا في خزائن الملوك •

وكانت المستشفيات معاهد طبية أيضا ، ففي كل مستشفى ايوان كبير ( قاعة كبيرة ) للمحاضرات ، يجلس فيه كبير الأطباء ومعه الأطباء والطلاب ، وبجانبهم الآلات والكتب ، فيقعد التلاميذ بين يدي معلمهم ، بعد ان يتفقدوا المرضى وينتهوا من علاجهم ، ثم تجري المباحث الطبية والمناقشات بين الأستاذ وتلاميذه ، والقراءة في الكتب الطبية ، وكثيراً ما كان الأستاذ يصطحب معه تلاميذه الى داخل المستشفى ليقوم باجراء الدروس العملية لطلابه على المرضى بحضورهم ، كما يقع اليوم في المستشفيات الملحقة بكليات الطب ، قال ابن ابي أصيبعة ، وهو ممن درس الطب في البيمارستان النوري بدمشق : « كنت بعدما يفرغ الحكيم مهذب الدين والحكيم عمران من معالجة المرضى المقيمين بالبيمارستان وأنا معهم ، أجلس مع الشيخ رضي الدين الرحبي فأعاين كيفية استدلاله على الأمراض وجملة ما يصفه للمرضى وما يكتب لهم ، وأبحث معه في كثير من الامراض ومداواتها » •

وكان لا يسمح للطبيب بالانفراد بالمعالجة حتى يؤدي امتحانا أمام كبير اطباء الدولة ، يتقدم اليه برسالة في الفن الذي يريد الحصول على الاجازة في معاناته ، وهي من تأليفه او تأليف أحد كبار علماء الطب ، له عليها دراسات وشروح ، فيمتحنه فيها ويسأله عن كل ما يتعلق بما فيها من الفن، فاذا أحسن الاجابة أجازه كبيرالاطباء بما يسمحله بمزاولة مهنة الطب ، وقد اتفق في عام ٣١٩ هـ ٩٣١ م في أيام الخليفة المقتدر أن بعض الاطباء أخطأ في علاج رجل فمات ، فأمر الخليفة ان يمتحن جميع أطباء بغداد من جديد ، فامتحنهم سنان بن ثابت كبير أطباء بغداد ، فبلغ عددهم في بغداد وحدها ثمانمائة طبيب ونيفاً وستين طبيباً ، هذا عدا عمن لم يمتحنوا من مشاهير الاطباء ، وعدا عن أطباء الخليفة والوزراء والأمراء .

ولا يفوتنا أن نذكر أنه كان يلحق بكل مستشفى مكتبة عامرة بكتب الطب وغيرها مما يحتاجه الاطباء وتلاميذهم ، حتى قالوا : انه كان في مستشفى ابن طولون بالقاهرة خزانة كتب تحتوي على ما يزيد على مائة الف مجلد في سائر العلوم .

أما نظام الدخول الى المستشفيات ، فقد كان مجانا للجميع ، لا فرق بين غني وفقير وبعيد وقريب ، ونابه وخامل ، يُفحص المرضى أولاً بالقاعة الخارجية ، فمن كان به مرض خفيف يكتب له العلاج ، ويصرف من صيدلية المستشفى ، ومن كانت حالته المرضية تستوجب دخوله المستشفى كان يقيد اسمه ، ويدخل الى الحمام ، وتخلع عنه ثيابه فتوضع في مخزن خاص ، ثم يعطى ثيابا خاصة للمستشفى ، ويدخل

الى القاعة المخصصة لأمثالـه من المرضى ، ويخصص له سرير مفروش بأثاث جيد ، ثم يعطى الدواء الذي يعيّنه الطبيب ، والغـذاء الموافق لصحته ، بالمقدار المفروض له ، وكان غذاء المرضى يحتوي على لحوم الاغنام والابقار والطيور والدجاج ، وعلامة الشفاء أن يأكل المريض رغيفا كاملا ودجاجة كاملة في الوقعة الواحـدة ، فاذا أصبح في دور النقاهة أُدخل القاعة المخصصة للناقهين ، حتى اذا تم شفاؤه أُعطي بدلة من الثياب جديدة ، ومبلغا من المال يكفيـه الى أن يصبح قادرا على العمل . وكانت غرف المستشفى نظيفة تجري فيها المياه، وقاعاته مفروشة بأحسن الأثاث ، ولكل مستشفى مفتشون على النظافـة ، ومراقبون للقيود المالية ، وكثيرا ما كان الخليفـة أو الأمير يتفقد بنفسه المرضى ويشرف على حسن معاملتهم .

هذا هو النظام السائد في جميع المستشفيات التي كانت قائمـة في العالم الاسلامي ، سواء في المغرب ام في المشرق .. في مستشفيات بغداد ودمشق والقاهرة والقدس ومكة والمدينة والمغرب والاندلس .. وسنقتصر في حديثنا على أربع مستشفيات في أربع مدن من عواصم الاسلام في تلك العصور .

**الاول ـ المستشفى العضدي ببغداد .** بناه عضد الدولة بن بويـه عام ٣٧١ هـ بعد ان اختار الرازي الطبيب المشهور مكانه بأن وضع أربع قطع لحم في اربعة انحاء بغداد ليلا ، فلما اصبح وجد أحسنها رائحة في المكان الذي اقيم عليه المستشفى فيما بعد ، فأقيم المستشفى وأنفق عليه مالا عظيما ، وجمع له من الأطباء أربعة وعشرين طبيبا ، وألحق به كل ما يحتاج اليه من مكتبة علمية وصيدلية ومطابخ ومخازن . وفي

عام ٤٤٩ جدد الخليفة القائم بأمر الله هذا المستشفى ، وجمع فيه من الاشربة والادوية والعقاقير التي يعز وجودها كثيرا ، وأقام الفرش واللحف للمرضى ، والعطورات الطيبة والأَسرة والثلج والمستخدمين والاطباء والفراشين ، وله بوابون وحراس ، وفيه حمام ، وبجانبه بستان قد حوى كل أنواع الثمار والبقول ، والسفن على مائه تنقل الضعفاء والفقراء ، والاطباء يتناوبونهم بكرة وعشية ، ويبيتون عندهم بالنوبة •

**الثاني – المستشفى النوري الكبير بدمشق •** أنشأه السلطان الملك العادل نور الدين الشهيد سنة ٥٤٩ هـ ١١٥٤ م من مال أخذه فدية من أحد ملوك الفرنج ، وكان حين بنائه من أحسن ما بني من المستشفيات في البلاد كلها ، شرط فيه انه على الفقراء والمساكين ، واذا اضطر الاغنياء الى الادوية التي فيه يسمح لهم بها ، وكان الشراب فيه والدواء صباحا لكل مريض يقصده • وقد دخله ابن جبير الرحالة عام ٥٨٠ ، فوصف عناية الاطباء بالمرضى وتفقدهم لشؤونهم ، واعداد ما يصلحهم من الادوية والاغذية ، وكان فيه قسم خاص بالامراض العقلية ، يوثق فيه المجانين بالسلاسل مع العناية بعلاجهم وغذائهم ، ويذكر بعض المؤرخين انه زار دمشق عام ٨٣١ هـ رجل أعجمي من أهل الفضل والذوق واللطافة ، فلما دخل المستشفى النوري ، ونظر الى كثرة اطبائه ، وحسن العناية بمرضاه ، وما يحتويه من المآكل والتحف واللطائف التي لا تحصى ، اراد ان يختبر معرفة اطبائه ، فتمارض وأقام به ثلاثة ايام ورئيس الاطباء يتردد اليه ليختبر ضعفه ، فلما جسّ نبضه علم أنه غير مريض ، وأنه انما اراد اختبار اطبائه ، فوصف له الاطعمة الحسنة والدجاج المسمنة

والحلوى والاشربة والفواكه المتنوعة ، ثم بعد ثلاثة أيام كتب له ورقة يقول فيها : ان الضيافة عندنا ثلاثة أيام .. فعرف الاعجمي أنهم فطنوا لقصده ، وأنهم استضافوه في المستشفى هذه المدة كلها .

وقد استمر هذا المستشفى يقوم بعمله العظيم حتى سنة ١٣١٧ هـ ، حيث انشىء مستشفى الغرباء ، وهو المستشفى الذي تشرف عليه الآن كلية الطب في الجامعة السورية ، فأقفل المستشفى النوري ثم استعمل مدرسة اهلية .

**الثـالث ـ المستشفى المنصورى الكبير .** المعروف بمارستان قلاوون، كان دارا لبعض الامراء ، فحولها الملك المنصور سيف الدين قلاوون الى مستشفى عام ٦٨٣ هـ ١٢٨٤ م ، وأوقف عليه ما يغل عليه الف درهم في كل سنة ، وألحق به مسجدا ومدرسة ومكتبا للايتام . قالوا : وكان سبب بنائه أن الملك المنصور قلاوون ، لما توجـه وهو أمير الى غزو الروم ، في أيام الظاهر بيبرس عام ١٦٧٥ أصابه بدمشق مرض ، فعالجه الاطباء بأدوية أخذت له من المستشفى النوري الكبير ، فبرأ ، وركب حتى شاهد المستشفى بنفسه ، فأعجب به ونذر لله ان آتاه الله الملك ان يبني مثله ، فلما صار سلطانا اختار هذه الدار فاشتراها وحولهـا الى مستشفى . وكان آية من آيات الدنيـا في التنظيم والترتيب ، جعل الدخول اليه والانتفاع منه صباحا لجميع الناس من ذكر وأنثى وحر وعبد وملك ورعية ، وجعل لمن يخرج منه من المرضى عند برئه كسوة ، ومن مات ُجهز وكُفّن ودُفن . وعين فيه الاطبـاء من مختلف فروع الطب ، كما وظف له الفراشين والخدمة لخدمة المرضى وإصلاح اماكنهم وتنظيفها وغسل ثيابهم وخدمتهم في الحمام ، بحيث كان لكل مريض

شخصان يقومان بخدمته ، وجعل لكل مريض سريرا وفرشا كاملا ، وأفرد لكل طائفة من المرضى اماكن تختص بهم ، ورتب فيه مكانا يجلس فيه رئيس الاطباء لالقاء دروس الطب على الطلبة . ومن أروع ما فيه ان الاستفادة منه ليست مقصورة على من يقيم فيه من المرضى ، بل رتب لمن يطلب وهو في منزله ما يحتاج اليه من الاشربة والاغذية والادوية.. وادى هذا المستشفى عمله الانساني الجليل حتى أخبر بعض اطباء العيون الذين عملوا فيه أنه كان يعالج فيه كل يوم من المرضى الداخلين اليه والناقهين الخارجين أربعة آلاف نفس ، ولا يخرج منه كل من يبرأ من مرض حتى يعطى كسوة للباسه ودراهم لنفقاته حتى لا يضطر للالتجاء الى العمل الشاق فور خروجه .

ومن أروع ما فيه أيضاً ، النص في وقفيته على ان يقدم طعام كل مريض بزبدية خاصة به من غير ان يستعملها مريض آخر ، ووجوب تغطيتها وايصالها الى المريض بهذا الشكل .

ومن أروع ما فيه ايضا ، أن المؤرَّقين فيه من المرضى كانوا يعزلون في قاعة منفردة يشنفون فيها آذانهم بسماع الحان الموسيقى الشجية ، أو يتسلون باستماع القصص يلقيها عليهم القصاص ، وكان الناقهون منهم تمثل أمامهم الروايات المضحكة ، ومشاهد من الرقص البلدي ( الذي يتعارفه أهل القرى ) ، وكان المؤذنون في المسجد الملاصق له يؤذنون في السحر قبل ميعاد الفجر بساعتين ، وينشدون الاناشيد بأصوات ندية تخفيفا لآلام المرضى الذين يضجرهم السهر وطول الوقت . وقد استمرت هذه العادة حتى دخول الحملة الفرنسية الى مصر عام ١٧٩٨ فشاهدها العلماء الفرنسيون بأعينهم وكتبوا عنها .

وهذا لعمر الله سمو انساني عجيب ، وفطنة طبية لم يتنبه اليها العالم الحديث الا في العصر الحاضر .

ويذكرني هذا بما كنت سمعته في مدينة طرابلس عن وقف غريب مخصص ريعه لتوظيف اثنين يمران بالمستشفيات يوميا ، فيتحدثان بجانب المرضى حديثاً خافتاً ليسمعه المريض بما يوحي له بتحسن حالته واحمرار وجهه وبريق عينيه .

ونرى من الفائدة أن نذكر نص الوقفية لهذا المستشفى العظيم ، كما ذكرها مؤلف تاريخ البيمارستانات في الاسلام :

« فان أحق ما انتهزت فرص أجره العزائم ، وأحرزت مواهب بره الغنائم ، وأجدر ما تنبه لاغتنام ثوابه كل نائم ، وأولى ما توجه اليه كل متوجه وقام اليه كل قائم ، ما عادت بالخيرات عوائده ، وزادت في المسرات زوائده ، واستمرت على الآباء فوائده ، واستقرت على التقوى بتطاول الآمال قواعده ، وهي الاوقاف العميم برها ، المقيم أجرها ، الجسيم وفرها ، الكريم ذخرها ، فهي الحسنات التي هي الجنان ، والقربات التي فيها رضوان الرحمن ، والصدقات التي هي مهور الحور الحسان ، والنفقات التي هي بحور الاجور لا اللؤلؤ والمرجان ... ولا يخفى ما فيها من ادخال السرور على المريض الفقير ، وايصال الحبور الى قلبه الكسير ، واغنائه بايوائه ومداواته ، الذي لا يعبر عن وفور أجرها بتعبير ، فطوبى لمن عامل مولاه العزيز الغفار ، وراقبه مراقبة العالم بسره ونجواه في الايراد والاصدار ، وأقرضه أحسن القروض . على حسب الامكان والاقتدار . وانتهز الفرصة بالاستباق ، وأحرز باغتنام اجرها قصب السباق ، فساعد الفقير المسلم على ازالة ألمه ،

ومداواة سقمه ، مساعدة تنجيه غدا من عذاب ربه الخلاق ، ورجاء أن تكون له بها عند الله الرتبة العظمى ، والقربة التي لا يخاف بأجرها ظلما ولا هضما ، والحسنة التي لا تبقي لذنبه هما . ولما علم بذلك مولانا السيد الاجل ، السلطان الملك المنصور العالم العادل ... فتقدم أمره الشريف بوقف البيمارستان المنصوري ... (وهنا تذكر الوقفية وصفه ومكانه وأوقافه ) لمداواة مرضى المسلمين الرجال والنساء من الاغنياء المثرين والفقراء المحتاجين ، بالقاهرة ومصر وضواحيها ، من المقيمين بها والواردين اليها من البلاد والاعمال على اختلاف أجناسهم وأوصافهم ، وتباين أمراضهم وأوصابهم ، من أمراض الاجسام قلت أو كثرت ، اتفقت أو اختلفت ، وأمراض الحواس خفيت أو ظهرت ، واختلال العقول التي حفظها اعظم المقاصد والاغراض ، وأول ما يجب الاقبال عليه دون الانحراف عنه والاعراض ، وغير ذلك مما تدعو حاجة الانسان الى صلاحه واصلاحه ، بالأدوية والعقاقير المتعارفة عند أهل صناعة الطب ، والانشغال فيه بعلم الطب والاشتغال به ، يدخلونه جموعا ووحدانا ، وشيوخا وشبانا ، وبلغاء وصبيانا ، وحرما وولدانا ، يقيم به المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمداواتهم الى حين برئهم وشفائهم ، ويصرف ما هو معد فيه للمداواة ، ويفرق للبعيد والقريب ، والاهلي والغريب ، والقوي والضعيف ، والدني والشريف ، والعلي والحقير ، والغني والفقير ، والمأمور والأمير ، والأعمى والبصير ، والمفضول والفاضل ، والمشهور والخامل ، والرفيع والوضيع ، والمترف والصعلوك ، والمليك والمملوك ، من غير اشتراط لعوض من الاعواض ، ولا تعريض بانكار على ذلك ولا اعتراض ، بل لمحض فضل الله وطَوْله الجسيم ، وأجره

الكريم ، وبره العميم ، وأمره باجراء النفقات على من يقوم بمصالح المرضى به من الاطباء والكحالين ، والجرائحيين وطباخي الشراب والمزاور والطعوم ، وصانعي المعاجين والاكحال والادويـة والمسهـلات المفردة والمركبة ، وعلى القوَمة والفراشين والخزان والامناء والمباشرين وغيرهم ممن جرت عادة أمثالهم بذلك ، وعلى ما يقوم بمداواة المرضى من الاطعمة والاشربة والاكحال والشيافات[1] ، والمعاجين والمراهم والادهان والشربات ، والادوية المركبة والمفردة ، والفرش والقدور والآلات المعدة للانتفاع بها في مثله . ويصرف الناظر من رَيع هذا الوقف ما تدعو حاجة المرضى اليه من مشموم في كل يوم ، وزبادي فخار برسم اغذيتهم ، وأقداح زجاج وغرار برسم اشربتهم ، وكيزان وأباريق فخار ، وقصاري فخار ، وزيت للوقود عليهم ، وبماء من بحر النيل المبارك برسم شربهم وأغذيتهم ، و... لأجل تغطية اغذيتهم عند صرفها عليهم ، وفي ثمن مراوح خوص لأجل استعمالهم اياها في الحر ، ويصرف الناظر ثمن ذلك من ريع هذا الوقف ، في غير اسراف ولا اجحاف ، ولا زيادة على ما يحتاج اليه ، كل ذلك بحسب ما تدعو الحاجة لزيادة الاجر والثواب . ويصرف الناظر في هذا الوقف لرجلين مسلمين موصوفين بالديانة والامـانة ، يكون احدهما خازناً لمخزن حاصل التفرقة ، يتولى تفرقة الاشربة والاكحال والاعشاب والمعاجين والادهان والشيافات ، المأذون له في صرف ذلك من المباشرين ، ويكون الآخر أميناً يتسلم صبيحة كل يوم وعشيته اقداح الشراب المختصة بالمرضى والمختلين من الرجال والنساء المقيمين بهـذا المارستان ، ويفرّق ذلك عليهم ويباشر شرب كل منهم لما وصف له من ذلك ، ويباشر المطبخ بهذا المارستان وما يطبخ به للمرضى من مزاور

---

(1) الشيافة : الفتيلة .

ودجاج وفراريج ولحم وغير ذلك ، ويجعل لكل مريض ما طبخ له في كل يوم في زبدية منفردة له من غير مشاركة مع مريض آخر ، ويغطيها ويوصلها الى المريض الى ان يتكامل اطعامهم ويستوفي كل منهم غذاءه وما وصف له بكرة وعشية . ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف لمن ينصبه بهذا المارستان من الاطباء المسلمين الطبائعيين والكحالين والجرائحيين بحسب ما يقتضيه الزمان وحاجة المرضى ، وهو مخيّر في العدة وتقرير الجامكيات ما لم يكن في ذلك حيف ولا شطط ، يباشرون المرضى والمختلين الرجال والنساء بهذا المارستان ، مجتمعين ومتناوبين باتفاقهم على التناوب ، أو باذن الناظر في التناوب ، ويسألون عن احوالهم وما يتجدد لكل منهم ، من زيادة مرض أو نقص ، ويكتبون بما يصلح لكل مريض من شراب وغذاء وغيره في دستور ورق ليصرف على حكمه ، ويلتزمون المبيت في كل ليلة بالمارستان ، مجتمعين أو متناوبين ، ويجلس الاطباء الكحالون لمداواة أعين الرمداء بهذا المارستان ، ولمداواة من يرد اليهم به من المسلمين بحيث لا يرد أحد من المسلمين الرمداء من مداواة عينيه بكرة كل يوم، ويباشرون المداواة ويتلطفون فيها، ويرفقون بالرمداء في ملاطفتهم ، وان كان بينهم من به قروح أو أمراض في عينه تقتضي مراجعة الكحال للطبيب الطبائعي ، راجعه وأحضره معه ، وباشر معه من غير انفراد عنه ، ويراجعه في أحوال برئه وشفائه ، ويصرف الناظر في هذا الوقف لمن ينصبه شيخاً للاشتغال عليه بعلم الطب على اختلافه يجلس بالمسطبة الكبرى المعينة له في كتاب الوقف المشار اليه ،للاشتغال بعلم الطب على اختلاف اوضاعه ، في الأوقات التي يعينها له الناظر مايرى صرفه اليه ، وليكن جملة أطباء البيمارستان المبارك من غير زيادة عن

العدد ، ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف للقَوَمة والفرّاشين الرجال والنساء بهذا البيمارستان ، ما يرى صرفه الى كل بحسب عمله ، على أن كلاً منهم يقوم بخدمة المرضى والمختلين الرجال والنساء بهذا البيمارستان وبغسل ثيابهم وتنظيف اماكنهم ، واصلاح شؤونهم ، والقيام بمصالحم، على ما يراه من العدة والتقدير ، بحيث لا يزيد في العدة ولا في المقادير على الحاجة اليه في ذلك بحسب الزمان والمكان • ويصرف الناظر ماتدعو الحاجة اليه في تكفين من يموت بهذا البيمارستان من المرضى والمختلين الرجال والنساء ، فيصرف ما يحتاج اليـه برسم غسله وثمن كفنـه وحنوطه ، وأجرة غاسله وحافر قبره ومواراته في قبره على السنة النبوية والحالة المرضية ، ومن كان مريضا في بيته وهو فقير كان للنـاظر أن يصرف اليه ما يحتاج اليه من حاصل هذا المارستان، من الاشربة والادوية والمعاجين وغيرها ، مع عدم التضييق في الصرف على من هو مقيم به ، فان مات بين أهله صرف اليه الناظر في موته بتجهيزه وتغسيله وتكفينه وحمله الى مدفنه ومواراته في قبره ما يليق بين اهله • ومن حصل له الشفاء والعافية ممن هو مقيم بهذا البيمارستان المبارك صرف النـاظر اليه من ريع هذا الوقف المذكور كسوة مثله على العادة ، بحسب الحال من غير زيادة تقتضي التضييق على المرضى والقيام بمصالحهم ، كل ذلك على ما يراه الناظر ويؤدي اليه اجتهاده بحسب ما تدعو اليه الحاجة • وعلى الناظر في هذا الوقف أن يراعي تقوى الله سبحانـه وتعالى سراً وجهرا ، ولا يقدم صاحب جاه على ضعيف ، ولا قويا على ما هو أضعف منه ، ولا متأهلا على غريب ، بل يقدم في الصرف اليه زيادة الاجور والثواب والتقرب الى رب الارباب •

**الرابـع ـ مستشفى مراكش** . وهو الـذي أنشأه أمير المـؤمنين المنصور ابو يوسف من ملوك الموحدين بالمغرب . تخيّر ساحة فسيحة في مراكش بأعدل موضع فيها ، وأمر البنائين باتقانه على أحسن الوجوه، وأمر أن يغرس فيه من جميع الاشجار والمشمومات والمأكولات ، وأجرى فيه مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على اربع برك في وسط احداها رخام ابيض ، ثم أمر له من الفرش النفيسة من انواع الصوف والكتان والحرير والاديم وغيره ما لا يوصف ، وأقام فيـه الصيادلة لعمل الاشربة والادهان والاكحال ، وأعد فيه للمريض ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء ، فاذا نقه المريض ، فان كان فقيرا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يشتغل ، وإن كان غنيا دفع اليه ماله. ولم يقصره على الفقراء دون الاغنياء ، بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل اليه وعولج حتى يشفى او يموت . وكان في كل جمعـة يزوره ويعود المرضى ويسأل عن احوالهم وعن معاملة الاطباء والممرضين لهم .

وبعد ، فهذه نماذج أربعة من مئات المستشفيات التي كانت منتشرة في شرق العالم الاسلامي وغربه ، يوم كانت اوروبة تتيه في ظلام الجهل ولا تعرف شيئا من هذه المستشفيات ودقتها ونظافتها وسمو العاطفـة الانسانية فيها ، واليك ما قاله المستشرق الالماني ماكس مايرهوف عن حالة المستشفيات في اوروبا في العصر الذي كانت فيه المستشفيات في حضارتنا كما وصفناهـا .. قال الدكتور ماكس : « ان المستشفيـات العربية ونظم الصحة في البلاد الاسلامية الغابرة لتلقي علينا الآن درسا قاسيا مر٣ لانقدره حق قدره الا بعد القيام بمقارنة بسيطة معمستشفيات

أوروبا في ذلك الزمن نفسه » . مر ّ أكثر من ثلاثة قرون على اوروبا ، اعتبارا من زمننا هـذا ، قبل ان تعرف للمستشفيات العامـة معنى ، ولا نبالغ اذا قلنا بأنه حتى القرن الثامن عشر ( ١٧١٠ ) والمرضى يعالجون في بيوتهم أو في دور خاصة كانت المستشفيات الاوروبية قبلها عبارة عن دور عطف واحسان ، ومأوى لمن لا مأوى لديه ، مرضى كانوا ام عاجزين ، وأصدق مثال لذلك هو مستشفى ( اوتيل ديو ) بباريس ، أكبر مستشفيات اوروبا في ذلك العصر ، وصفه كل من ماكس توردو وتينون بما يلي :

« يحتوي المستشفى على ١٢٠٠ سرير ، منها ٤٨٦ خصصت لنفر واحد ، اما الباقي ـ ولم تكن سعة الواحد منها تتجاوز خمسة اقدام ـ فتجد فيها عادة ما يتراوح بين ثلاثة مرضى وستة ، وكانت الردهات الكبرى عفنة كثيرة الرطوبة ، لا منافذ تهوية فيها ، مظلمة دوما ، ترى فيها في كل حين حوالي ثمانمائة مريض يفترشون الارض وهم مكدسون بعضهم فوق بعض ، على القاع او على كوم من القش ، في حالة يرثى لها .. انك لتجد في السرير ذي الحجم المتوسط أربعة أو خمسة أو ستة مرضى متلاصقين ، قدم أحدهم على رأس الثاني ، تجد اطفالا بجانب شيوخ ، ونساء بجانب رجال ، ( قد لا تصدق لكنها الحقيقة ) تجـد امرأة في المخاض مع طفل في حالة تشنج مصاب بالتيفوس يحترق في بحران الحمى ، وكلاهما الى جنب مريض بداء جلدي يحك جلـده المهتريء بأظفاره الدامية فيجري قيح البثور على الاغطية . وطعام المرضى من أخس ما يتصوره العقل ، يوزع عليهم بكميات قليلة للغاية ، وفي فترات متباعدة لا نظام فيها . واعتادت الراهبات ان يحابين المرضى الطائعين

المنافقين على حساب الآخرين ، فيسقينهم الخمور ، ويصلنهم بالحلوى والمآكل الدسمة مما يتفضل به المحسنون في الوقت الذي هم فيه احوج الى الحمية ، فيموت الكثير منهم بالتخمة ويفطس غيرهم جوعا • وكانت أبواب المستشفى مفتوحة في كل وقت وحين لكل رائح وغاد ، وبهذا تنتشر العدوى بانتقالها ، وبالفضلات وبالهواء النتن الملوث • وان لم يتفضل المحسنون على المرضى ماتوا جوعا ، كما يموتون احيانا بالتخمة او من فرط السكر ، والفرش حافلة بالحشرات الدنيئة وهواء الحجرات لا يطاق لفساده ، حتى ان الخدم والممرضين لم يكونوا يجرؤون على الدخول الا بعد وضع اسفنجة مبللة بالخل على انوفهم • وتترك جثث الموتى ٢٤ ساعة على الاقل قبل رفعها من السرير المشاع ، وكثيراً ما تنفسخ الجثة وتتعفن وهي ملقاة بجانب مريض يكاد يطير صوابه » •

هذه مقارنة بسيطة بين حالة المستشفيات عندنا في عهود حضارتنا ، وحالتها عند الغربيين في تلك العصور ، وهي تدل على مبلغ الانحطاط العلمي الذي كان عليه القوم ، والجهل الفاضح بأصول المستشفيات ، بل بقواعد الصحة العامة البديهية • وإنا لنرى فيما يرويه العربي اسامة ابن منقذ في كتاب الاعتبار ، مبلغ جهل الغربيين الصليبيين بالطب ، ومبلغ علم اطبائهم بشكل مضحك ، من الحادثتين التاليتين :

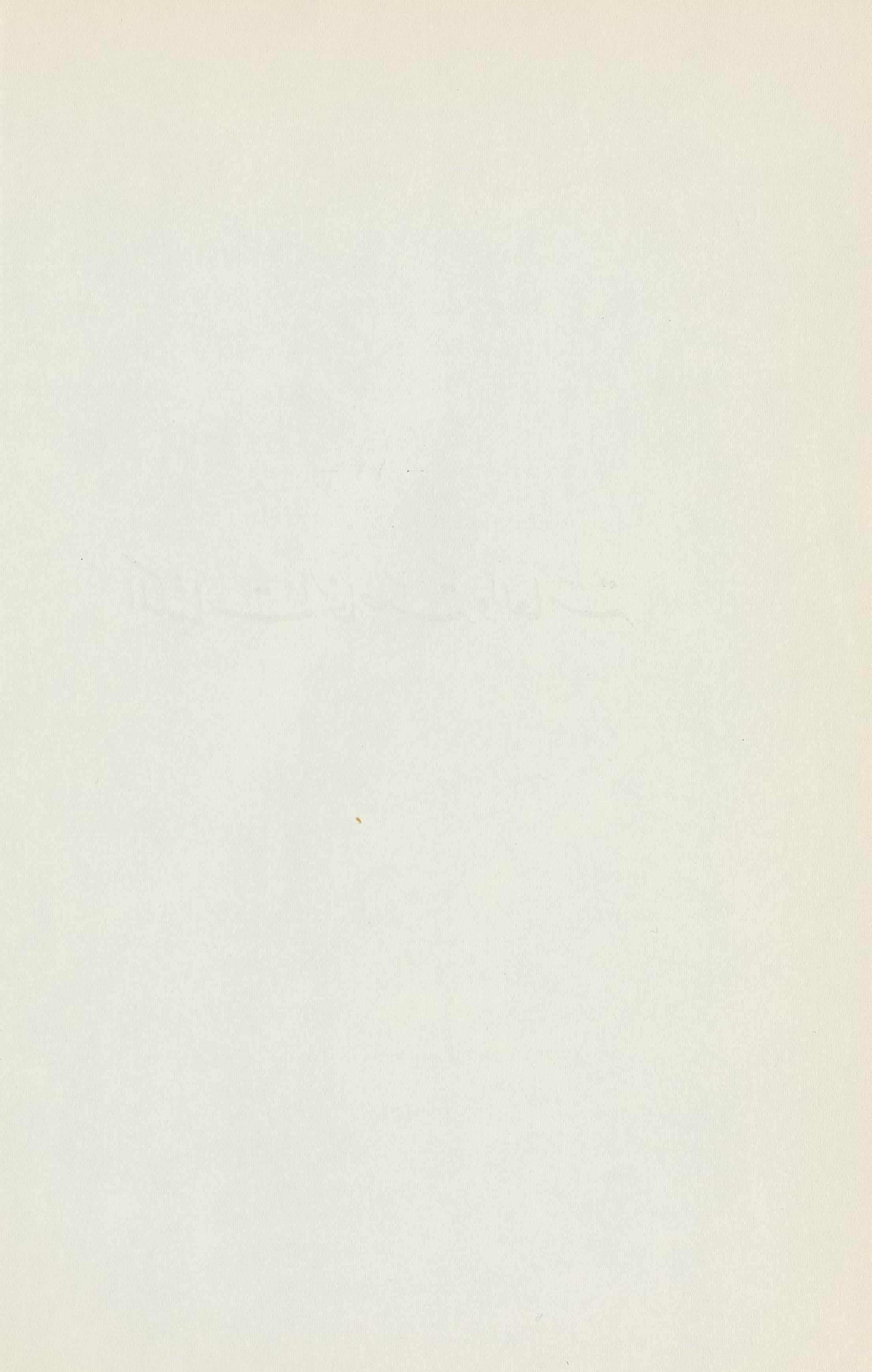
« ومن عجيب طبهم ( الفرنج ) ان صاحب المنيطرة كتب الى عمي يطلب منه انفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه • فأرسل اليه طبيبا نصرانيا يقال له ثابت ، فما غاب عشرة ايام حتى عاد ، فقلنا له : ما أسرع ما داويت المرضى • قال : احضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف ، فعملت للفارس لبخة ففتحت الدملة

وصلحت ، وحميت المرأة ورطبت مزاجها . فجاءهم طبيب افرنجي ، فقال لهم : ( هذا ما يعرف شيء يداويهم ) وقال للفارس : ايما أحب اليك ، تعيش برجل واحدة او تموت برجلين ؟ قال اعيش برجل واحدة . قال أحضروا لي فارسا قويا وفأسا قاطعا ، فحضر الفارس والفأس ، وأنا حاضر ، فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة واقطعها. فضربه وأنا اراه ضربةواحدة ماانقطعت.. ضربه ضربة ثانية .. سال مخ الساق ومات من ساعته » .. ثم ينطلق ليروي كيف ان هذا الطبيب الصليبي أمر بتغطيس المرأة بماء مغلي فماتت لساعتها .

ونختم هذا الحديث بالنتائج التي نحب ان نلفت الانظار اليها بعد هذه المقارنات : أننا في حضارتنا كنا اسبق من الغربيين الى تنظيم المستشفيات بتسعة قرون على الاقل .. وأن مستشفياتنا قامت على عاطفة انسانية نبيلة لا مثيل لها في التاريخ ولا يعرفها الغربيون حتى اليوم ...وأننا كنا أسبق الامم الى معرفة ما للموسيقى والادب المضحك والايحاء الذاتي من أثر بالغ في شفاء المرضى .. وأننا بلغنا في تحقيق التكافل الاجتماعي حدا لم تبلغه الحضارة الغربية حتى اليوم حين نجعل الطب والعلاج والغذاء للمرضى بالمجان ، بل حين كنا نعطي الفقير الناقه من المال ما ينفق على نفسه حتى يصبح قادرا على العمل ... ان هذه نزعة انسانية بلغنا فيها الذروة يوم كنا نحمل لواء الحضارة ، فأين نحن منها اليوم ، وأين منها هؤلاء الغربيون ؟ ..

- ١١ -

# المكتبات الخاصّة والعامّة



مما يتصل بالحديث عن المؤسسات الخيرية والعلمية في حضارتنا ، الحديث عن المكتبات • فقد كانت مدارس للتعليم ، ومؤسسات ينفق عليها الأمراء والأثرياء والعلماء ، لينتشر العلم بين الناس ، وخصوصاً في ذلك الزمن الذي لم تكن فيه الطباعـة موجودة ، وكانت الكتب تنسخ على أيدي نساخ متخصصين لهذا العمل • فكان يبلغ بذلك ثمن الكتاب حداً قد يتعذر على طالب العلم أو العالم الفقير شراؤه ، فكيف اذا أراد أن تكون له مجموعة من الكتب في الفن أو العلم الذي يتخصص فيه ؟ من هنا كان قيام المكتبات في مجتمعنا الماضي منبعثاً عن عاطفة انسانية وعن نزعة علمية في وقت واحد •

لعل الأدب العربي هو أغنى الآداب العالمية القديمة بالتغني بالكتاب والولع به والرغبة فيه والتحدث عنه ، حتى لكأنه حبيب نأى مزاره وشطّت داره، فالقلوب اليه منصرفة وبه مولعة، قال أحمد بن اسماعيل: الكتاب هو المسامر الذي لايبتدئك في حال شغلك ، ولا يدعوك في وقت نشاطك ، ولا يحوجك الى التجمل له ، والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك ، والصديق الـذي لا يغريك ، والرفيق الذي لا يملّك ، والناصح الذي لا يستزلّك » • ولقد كانوا يفضلون مطالعة الكتب على غشيان الناس في مجالسهم ، ويرون الأنس بها أقرب الى القلب من الأنس بالخليفة أو ذي سلطان •• اعتزل محمد بن عبد الملك الزيات الوزير الأديب فترة من الزمن في بيته ، وأراد الجاحظ زيارته ،فرأى خير هدية اليه يستصحبها معه أن يهديه كتاب سيبويه إمام العربية ،

وتسلم الوزير الهدية فرحاً مسرورا ، وقال للجاحظ : والله ما أهديت لي شيئا أحب الي" منه • وطلب أحد الخلفاء بعض العلماء ليسامره ، فلما جاءه الخادم وجده جالساً وحواليه كتب يقرأ فيها ، فقال له : إن أمير المؤمنين يستدعيك ، فأجابه : قل له : عندي قوم من الحكماء أحادثهم ، فاذا فرغت منهم حضرت ، فلما عاد الخادم الى الخليفة وأخبره بذلك قال له ويحك من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عنده ؟ قال الخادم : والله يا أمير المؤمنين ما كان عنده أحد ، قال فأحضره الساعة كيف كان ، فلما أحضر العالم قال له الخليفة : من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندك ؟ قال يا أمير المؤمنين :

| | |
|---|---|
| همُ جلساء" مـا تمل حديثهم | أمينون مأمونون غيباً ومشهدا |
| إذا ما خلونا كان خير حديثهم | معيناً علي نفي الهموم مؤيدا |
| يفيدوننا من علمهم علم ما مضى | وعقلاً" وتأديباً ورأياً وسؤددا |
| فلا ريبة تخشى ولا سوء عشرة | ولا تتقي منهم لساناً ولا يدا |
| فان قلت أموات فلست بكاذب | وإن قلت أحياء فلست مفندا |

فعلم الخليفة أنه إنما يعني بالحكماء الذين كان يجتمع معهم كتبَ العلماء والحكماء ، فلم ينكر عليه تأخره •

وفضّل الصاحب بن عباد أن يبقى بجانب مكتبته على أن يتولى أعظم المناصب في بلاط نوح بن منصور الساماني ، ذلك أنه مولع بمكتبته ، فلا هو يستطيع الذهاب بدونها ، ولا هو يستطيع حملها معه ، فآثر ان يبقى بجانبها •

بهذه الروح العلمية شغف علماؤنا واغنياؤنا وأمراؤنا بالكتب

وجمعها ، حتى أنهم كانوا يرون نكبتهم في أموالهم وبيوتهم أيسر عليهم من نكبتهم في كتبهم •

هجم الجنود مرة على دار ابن العميد بعد ان انتصروا على غلمانه وحراسه، ففر ابن العميد الى دار الامارة، فوجد ان خزائنه جميعها قد نهبت، حتى انه لم يجد ما يجلس عليه ، ولا وجد كوزا يشرب فيه الماء ، واشتغل قلبه بدفاتره وكتبه ، ولم يكن شيء أعز عليه منها ، وكانت كثيرة تشمل جميع العلوم ، وكل نوع من انواع الحكم والادب ، تحمل على مائة بعير فأكثر ، فلما رأى ابن العميد خازن مكتبته سأله عنها فأجابه : هي بحالها لم تمسها يد ، فسرّي عن ابن العميد ، وقال لخازنه : أشهد أنك ميمون النقيبة ، أما سائر الخزائن فيوجد عنها عوض ، وهذه الخزانة ـ أي مكتبته ـ هي التي لا عوض لها •

وبهذه الروح العلمية كانوا يتنافسون في شراء المؤلفات العلمية من مؤلفيها غب الانتهاء من تأليفها • سمع الحكم أمير الاندلس بكتاب الاغاني المشهور الآن في عالم الادب ، فأرسل الى مؤلفه ابي الفرج الاصفهاني ألف دينار من الذهب ثمن نسخة منه ، فأرسل اليه أبو الفرج بنسخة من كتابه ، فقرىء كتابه في الاندلس قبل ان يقرأ في العراق موطن المؤلف •

وقد نشأ عن هذه الروح العلمية انتشار المكتبات في شتى انحاء العالم الاسلامي ، فقلّما كانت مدرسة ليس بجانبها مكتبة ، وقلّ أن تجد قرية صغيرة ليس فيها مكتبة ، أما العواصم والمدن فقد كانت تغص بدور الكتب بشكل لا مثيل له في تاريخ العصور الوسطى •

كانت المكتبات نوعين رئيسيين : عامة وخاصة •

أما العامة فقد كان ينشئها الخلفاء والامراء والعلمـاء والاغنياء ، كانت تشيّد لها أبنية خاصة ، وأحيانا كانت تلحق بالمساجد والمدارس الكبرى .

أما الابنية الخاصة ، فقد كانت تشتمل على حجرات متعددة تربط بينها أروقة فسيحة ، وكانت الكتب توضع على رفوف مثبتة بالجدران تخصص كل غرفة لفرع من فروع العلم ، فلكتب الفقه غرفة ، ولكتب الطب غرفة ، ولكتب الادب غرفة ، وهكذا . وكان فيها أروقة خاصة للمطالعين ، وغرف خاصة للنساخ الذين ينسخون الكتب ، وفي بعضها غرف للموسيقى ، يلجأ اليها المطالعون للترفيه وتجديد النشاط ــ وهذا مما تفردت به حضارتنا ــ وفيها غرف لحلقات الدراسة والنقاش العلمي بين رواد تلك المكتبات . وكانت جميعها تؤثث تأثيثا فخما ومريحا ، وكان في بعضها غرف لطعام روادها ، ومنامة للغرباء منهم ، كالذي قيل في مكتبة علي بن يحيى بن المنجم ، فقد كان له قصر عظيم في قرية قريبة من بغداد ( هي كركر من نواحي القفص ) وفيه مكتبة عظيمة كان يسميها خزانة الحكمة ، يقصدها الناس من كل بلـد فيقيمون فيهـا ويتعلمون منها صنوف العلم ، والكتب مبذولة في ذلك لهم ، والارزاق مغدقة عليهم ، وكل ذلك من مال علي بن يحي نفسه . بل هنالك ما هو أطرف من ذلك مما لا نعلم له مثيلا اليوم في أرقى عواصم الحضارة الغربية ، فقد كان في الموصل دار أنشأها ابو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي ، وسماها دار العلم ، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفاً على كل طالب علم لا يمنـع أحد من دخولها ، واذا جاءها غريب يطلب الادب وكان معسرا أعطاه ورَقاً ووَرِقاً ، ( أي كتبا

ونقودا ) ، وكانت تفتح في كل يوم ... فهل سمعتم حتى الآن بمكتبة في لندن او واشنطن او عاصمة ما من عواصم العالم الكبرى اليوم تمنح الادب والاموال لطلبة العلم ؟ ..

وكان للمكتبات العامة موظفون يرأسهم خازن المكتبة ، وهو دائماً من أشهر علماء عصره ، ومناولون يناولون الكتب للمطالعين، ومترجمون ينقلون الكتب من غير العربية الى العربية ، ونساخ يكتبون الكتب بخطوطهم الجميلة ، ومجلدون يجلدون الكتب لتحفظ من التمزق والضياع ، هذا عدا عن الخدم وغيرهم ممن تقتضيهم حاجة المكتبات .

وكان لكل مكتبة صغيرة او كبيرة فهارس يُرجع اليها لسهولة استعمال الكتب ، وهي مبوبة بحسب أبواب العلم ، وبجانب هذا كانت توضع قائمة على كل دولاب تحتوي اسماء الكتب الموجودة في الدولاب . وكان من المعروف في نظام المكتبات أن الاستعارة الخارجية مسموحة في أغلبها لقاء ضمان عن الكتاب من عامة الناس ، أما العلماء وذوو الفضل فلم يؤخذ منهم ضمان .

أما الموارد المالية التي كانت تقوم بنفقات المكتبات ، فمنها ما كان من الاوقاف التي تنشأ من أجلها خاصة ، وهذه حال اكثر المكتبات العامة ومنها ما كان من عطايا الامراء والاغنياء والعلماء الذين يؤسسون تلك المكتبات ، فقد قالوا إنه كان عطاء محمد بن عبد الملك الزيات للنقلة والنساخ في مكتبته ألفي دينار كل شهر . وكان المأمون يعطي حنين بن اسحق من الذهب زنة ما ينقله من الكتب الى العربية مثلا بمثل .

والآن لنذكر بعض الامثلة عن المكتبات العامة والخاصة التي كان لها ذكر في التاريخ •

من أشهر المكتبات : مكتبة الخلفاء الفاطميين في القاهرة • كانت مكتبة عجيبة بما حوت من نفائس المصاحف والكتب ، بلغ مجموع كتبها كما يروي كثير من المؤرخين مليوني كتاب ، وان كان المقريزي يميل الى انها مليون وستمائة ألف كتاب •

ومنها مكتبة دار الحكمة بالقاهرة ، أنشأها الحاكم بأمر الله ، وافتتحت في ١٠ من جمادى الآخرة ٣٩٥ هـ ، بعد ان فرشت وزخرفت ، وعلقت على جميع ابوابها وممراتها الستور ، وأقيم بها القوامون والمناولون والفرّاشون ، وقد جمع فيها من الكتب ما لم يجتمع لأحد قط من الملوك ، حتى كانت تضم أربعين خزانة ، احتوت احدى خزائنها على ١٨٠٠٠ كتاب من العلوم القديمة • وكان الدخول اليها مباحا لجميع الناس ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلم ، وكان فيها كل ما يحتاج اليه الناس من الحبر والاقلام والورق والمحابر •

ومنها بيت الحكمة في بغداد ، أنشأها هارون الرشيد ، وبلغت ذروة مجدها في عصر المأمون • كانت أشبه بجامعة فيها كتب يجتمع فيها رجال يتفاوضون ويطالعون وينسخون، وكانفيها نساخ ومترجمون يترجمون ما كان يحصل عليه الرشيد والمأمون في فتوحاتهم بأنقرة وعمورية وقبرص • ويحدثنا ابن النديم أن المأمون كانت بينه وبين ملك الروم مراسلات ، وقد انتصر عليه المأمون في بعض المعارك ، فجعل من شروط الصلح أن يسمح ملك الروم بترجمة ما في خزائنه من كتب

بواسطة العلماء الذين يرسلهم المأمون ، ففعل ، وهذا اعظم ما يروى في التاريخ عن حاكم منتصر لا يرى ثمنـا للنصر أغلى من كتب العلم ينقلها الى ابناء أمته وبلاده .

ومنها مكتبة الحكم بالاندلس . كانت غاية في العظمة والاتساع ، حتى قيل انها بلغت أربعمائة ألف مجلد ، وكانت لها فهارس غاية في الدقة والنظام ، حتى ان الفهرست الخاص بدواوين الشعر الموجودة في تلك المكتبة بلغت أربعة وأربعين جزء ، وكان فيها الحذاق في صناعة النسخ ، والمهرة في الضبط والاجادة في التجليد ، فأوعى من ذلك كله ، واجتمعت بالاندلس في عهده خزائن من الكتب لم تكن لأحد قبلـه ولا بعده .

ومنها مكتبة بني عمار في طرابلس . كانت آيـة من الآيات في العظمة والضخامة . كان فيها مائة وثمانون ناسخاً ينسخون فيها الكتب، ويتبادلون العمل ليلا ونهارا بحيث لا ينقطع النسخ . وكان بنو عمار يحرصون على أن يزودوها بكل نادر وكل جديد من الكتب ، ووظفوا أخصائيين وتجارا ليجوبوا البلاد ويحرزوا لهم الكتب المفيدة من البلدان النائية والاقطار الأجنبية . استفاد منها المعري وذكرها في بعض كتبه ، واختلف في مقدار ما كان فيها ، وأعدل الاقوال أنها كانت تحوي مليون كتاب .

ومن المكتبات الخاصة ما يتحدث التاريخ عنهـا باعجاب ، وقـد كانت في كل بلد في شرق العالم الاسلامي وغربه ، وقلّ ان تجد عالما الا وله مكتبة كانت تحوي آلافا من الكتب . فمنها مكتبة الفتح بن خاقان ( المقتول في عام ٢٤٧ ) وكانت مكتبته واسعة عهد بجمعها الى

رجل من خيرة رجال عصره علما وأدبا ، وهو علي بن يحي المنجم ، حتى جمع له فيها من كتب الحكمة مالم يجتمع في خزانة حكمة قط .

ومنها مكتبة ابن الخشاب ( المتوفى عـام ٥٦٧ ) ، كان من أعلم الناس بالنحو، وكانت له معرفة في التفسير والحديث والمنطق والفلسفة. كان مولعا بالكتب الى حد الشره ، وقد حمله ولعه هذا على أن يسلك طرقا غير محمودة لجمع الكتب ، فكان اذا حضر سوق الكتب وأراد شراء كتاب غافل الناس وقطع منه ورقة وقال : انه مقطوع ، ليأخذه بثمن بخس ، واذا استعار من أحد كتابا وطالبه به قال : دخل بيني وبين الكتب فلا أقدر عليه .

ومنها مكتبة جمال الدين القفطي ( المتوفى عام ٦٤٦ ) ، جمع من الكتب ما لا يوصف ، وقصد بها من الآفاق طمعا في سخائه وكرمه ، وكان لا يحب من الدنيا سوى الكتب ، فأوقف عليها نفسه ، ورفض ان يتزوج حتى لا يشغله الاهل والاولاد عنها ، وأوصى بمكتبته للناصر، وكانت تساوي خمسين ألف دينار .

ومنها مكتبة بني جرادة العلمـاء في حلب ، كتب أحدهم ـ أبو الحسن بن أبي جرادة ( ٥٤٨ ) بخطه ثلاث خزائن من الكتب النفيسة ، وخزانة لولده أبي البركات ، وخزانة لابنه عبد الله .

ومنها مكتبة الموفق بن المطران الدمشقي ( ٥٨٧ ) ، كانت له همة عالية في تحصيل الكتب ، حتى أنه لما مات كان في خزانته من الكتب الطبية وغيرها عشرة آلاف مجلد ، وكان في خدمته ثلاثة نساخ يكتبون له أبدا ، ويعطيهم رواتبهم وأرزاقهم .

وبعد ، فلئن كانت النشوة تملأ نفوسنا حين تتحدث عن انتشـار المكتبات في العالم الاسلامي في عصور حضارته الزاهرة ، فان الاسى ليملأ قلوبنا حين نتذكر مصائر هذه المكتبات ، وما تعرضت له من بوار وحرائق لا يمكن ان تقدر خسارة العلم فيها أبدا .

لقد أصيبت مكتباتنا بما قضى على ملايين الكتب منها بحيث فقدها العالم الى الابد ، وهي من أثمن ما خلفه الفكر الانساني في التاريخ ..

فنكبة التتار حين افتتحوا بغداد ، أصابت هذه المكتبات قبل ان تصيب أي شيء غيرها ، وكلنا يعلم ان التتار الهمج قذفوا بما وجدوا في دور الكتب العامة في نهر دجلة حتى فاض النهر بالكتب الملقاة فيه ، فكان يعبر الفارس عليها من ضفة الى ضفة ، وظل ماء النهر أسود داكنا أشهرا طويلة من تغيره بمداد الكتب التي أغرقت فيه ..

ونكبة الغزو الصليبي أفقدتنا أعز المكتبات التي كانت في طرابلس والمعرة والقدس وغزة وعسقلان وغيرها من المدن التي خربها الصليبيون، وحسبنا ان نعلم ان بعض المؤرخين قدّر ما أتلفه الصليبيون في طرابلس وحدها بثلاثة ملايين مجلد .

ونكبة استيلاء الاسبان على الاندلس أفقدتنا تلك المكتبات العظيمة التي يتحدث عنها التاريخ بذهول ، فقد احترقت كلها بفعل المتدينين المتعصبين ، حتى أنه قد أحرق في يوم واحد في ميدان غرناطة ما قدّره بعض المؤرخين بمليون كتاب .

ودعوا نكباتنا العامة الى نكباتنا في الفتن الداخلية ، فقد كانت نهاية مكتبة الخلفاء الفاطميين أن اعتدى عليها الغوغاء من المماليك

الاتراك ، فأشعلوا فيها النار ، واقتسم العبيد جلود كتبها فاتخذوها نعالا يلبسونها ، وأُلقي منها عدد كبير في النيل ، وحمل بعضها الى سائر الاقطار ، وبقي منها ما سفت عليه الرياح ، فصار تلالا يعرف بتلال الكتب .

وقد كان في حلب مكتبة تسمى « خزانة الصوفية » ، وكانت مكتبة عظيمة فنهبت ولم يبق فيها الا القليل في فتنة قامت بين السنة والشيعة في ايام عاشوراء .

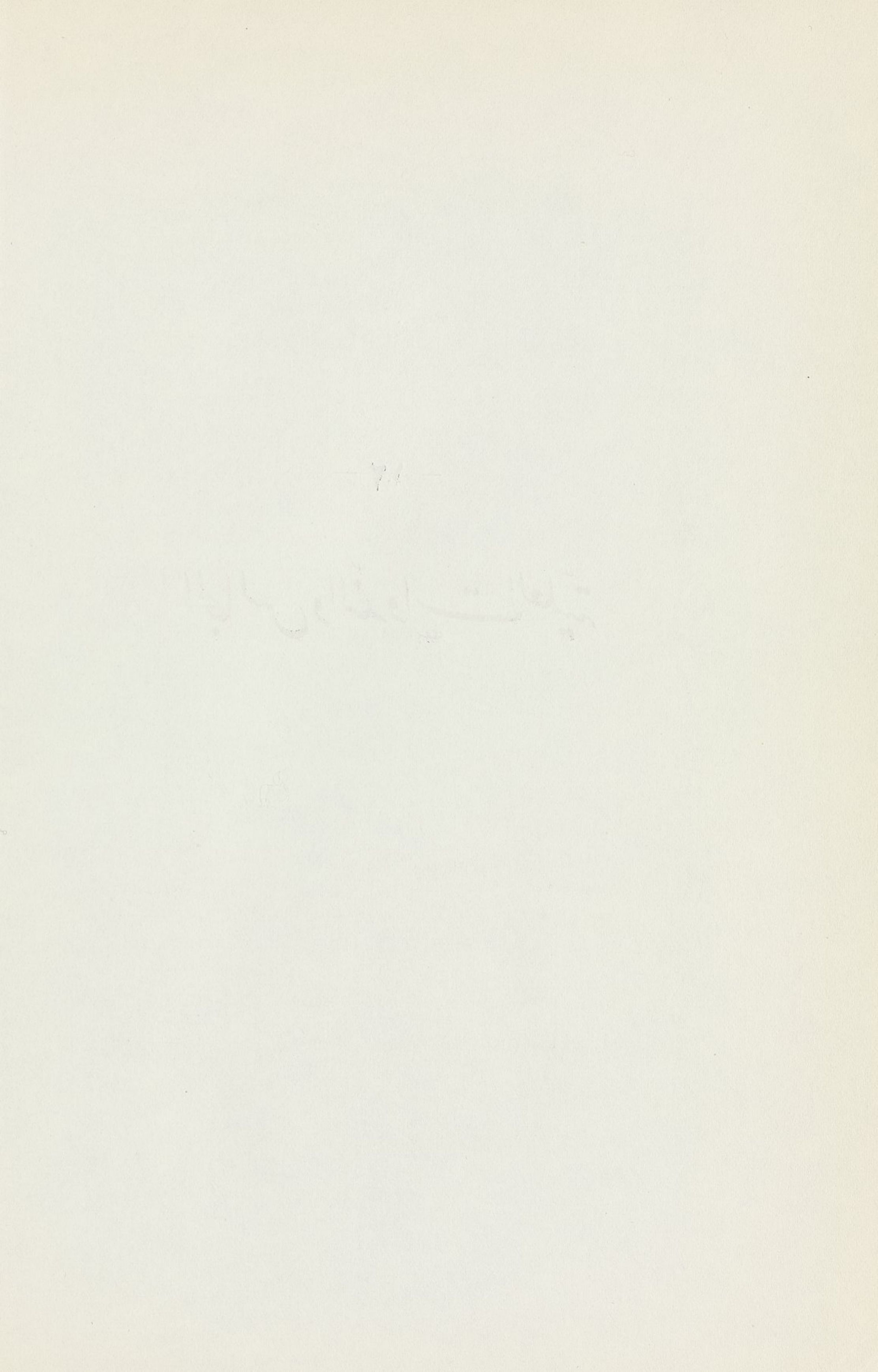
ومكتبة الحاكم المستنصر في الاندلس ، قد ذهبت بها أيدي الفتن الداخلية حين دخل البربر قرطبة ، فبيع كثير منها ، ونهب الباقي .

وأغرب النكبات مما يثير الضحك ما تفعله الحماقة بالعلم وكتبه .. فقد كان للامير بن فاتك ــ من أمراء مصر في القرن الخامس الهجري ــ مكتبة ضخمة ، كان يجلس فيها أكثر أوقاته ولا يفارقها ، وكانت له زوجة كبيرة القدر من أرباب الدولة ، ولكن داخلتها الغيرة من الكتب ، فلما توفي نهضت هي وجواريها الى خزائن كتبه وفي قلبها لوعة من الكتب ، لأنه كان يشتغل بها عنها ، فجعلت تبكيه وتندبه ، وفي أثناء ذلك ترمي الكتب في بركة ماء كبيرة في وسط الدار هي وجواريها .. هكذا فعلت زوجة أحنقها ولع زوجها بالكتب ، فانتقمت من الكتب بعد وفاته ، ولا يزال في زوجاتنا من يغرن من الكتب كما غارت تلك الزوجة الفاضلة ، وقديما كانت زوجة الامام الزهري تقول له حين تراه غارقا في الكتب : « والله لَهذه الكتب أشدّ علي من ثلاث ضرائر ! » .

هذا حديث مكتباتنا في عصور حضارتنا ، وهذا نهاية ما انتهت اليه ، ولئن كان الاعتراف للاعداء بالجميل صعبا على النفس ، فان من الواجب ان نعترف ان دور الكتب في اوروبا حفظت لنا كثيراً من البقية الباقية من هذا التراث ، وأن فيها من ذخائر المؤلفات العربية ما لا يوجد مثله في العالم الاسلامي كله الآن .

- ١٢ -

# المجالس والنّدوات العلميّة



وهذا لون طريف من الوان حضارتنا الزاهية ، كان له أثر كبير في نشر الثقافة وذيوع العلم ، ورفع المستوى الاجتماعي والذوق العلمي في الاوساط الثقافية ، هو تلك المجالس والندوات العلمية التي تعددت في عواصمنا ومدننا الكبرى مع ما كان للمدارس والمعاهد والمكتبات من عظم وكثرة . هذه المجالس في تعددها وتنوع أبحاثها كانت مظهراً رائعاً من مظاهر اليقظة الفكرية في أمتنا إبَّان مجدها وقوتها ، وانك لا تشك حين ترى مختلف طبقات الشعب من خلفاء وأمراء وعلماء وأدباء وشعراء يجعلون من أبحاثهم في مجالسهم الخاصة والعامة مباريات علمية وأدبية وفلسفية ، ان هذه الامة بلغت من الشغف بالعلم والظمأ لارتياد مناهله ، حداً يشعرك بعظمتها ورقيها .

كانت هذه المجالس متعددة متنوعة ..

فمجالس في رحاب الخلفاء يتصدرها الخليفة بنفسه ، وينتظم في عقدها أشهر العلماء والادباء والفقهاء في عاصمته ، ولقد كانت مجالس الخلفاء تتطور بتطور الحضارة الاسلامية ونمو ثقافتها . فهي في عهد الخلفاء الراشدين تتحدث عن شؤون الدولة وأعمال الولاة ، بمثابة مجلس نيابي يتحدث فيه عظماء القوم عما يهم الدولة من شؤون وقضايا متنوعة .. احتاج عمر بن الخطاب يوماً الى وال كفء يوليه عملا هاماً من أعمال الدولة ، فقال لجلسائه : دلوني على رجل أستعمله على أمر قد أهمني ، فقالوا : فلان ، قال : لا حاجة لنا فيه ، قالوا : فمن تريد ؟

قال : أريد رجلا اذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ، واذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم ، قالوا : ما نعرف هذه الصفة الا في الربيع بن زياد الحارثي ، قال صدقتم ، فولاه . ثم أصبحت مجالس الخلفاء في عهد الامويين مجالس للادب والحكمة والشعر .. حضر عبد الله بن هاشم مجلس معاوية ذات يوم ، فقال معاوية : من يخبرني عن الجود والنجدة والمروءة ؟ فقال عبد الله : يا أمير المؤمنين ! أما الجود فابتذال المال والعطية قبل السؤال ، وأما النجدة فالجراءة على الاقدام والصبر عند ازورار الاقدام ، وأما المروءة فالصلاح في الدين والاصلاح للحال والمحاماة عن الجار . وقال عبد الملك يوماً في بعض مجالسه : أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه مرتبة وله علي ما يتمناه ؟ فقال سويد ابن غفلة : أنا لها يا أمير المؤمنين ، فقال : هات ، فقال سويد : أنف ، بطن، ترقوة ، ثغر ،جمجمة ، حلق ، خد ، دماغ ، .. فقال آخر في المجلس : يا أمير المؤمنين : أنا أقولها في جسد الانسان مرتين ، فقال سويد أنا أقولها ثلاثاً : أنف ، اسنان ، أذن ، واستمر .. فأعجب عبد الملك من بديهته وأجازه . وحضر اعرابي مجلس عبد الملك ، وكان فيه جرير الشاعر ، فقال عبد الملك للاعرابي : هل لك علم بالشعر ؟ فقال الاعرابي: سلني عما بدا لك يا أمير المؤمنين ، قال : أي بيت قالته العرب أمدح ؟ فأجاب الاعرابي : هو قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح ؟

فرفع جرير رأسه وتطاول ، ثم قال عبد الملك : فأي بيت قالته العرب أفخر ؟ فقال الاعرابي : هو قول جرير :

اذا غضبت عليك بنو تميم   حسبت الناس كلهم غضابا

فتحرك جرير واهتز طرباً . ثم قال عبد الملك : فأي بيت أهجى ؟
قال : قول جرير :

فغض الطرف انك من نُمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

فاستشرق جرير لذلك . ثم قال عبد الملك : فأي بيت أغزل ؟ قال الاعرابي : هو قول جرير :

ان العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

فاهتز جرير وطرب . ثم قال عبد الملك : فأي بيت أحسن تشبيهاً ؟
قال الاعرابي : هو قول جرير :

سرى نحوهم ليل كأن نجومه قناديل فيهن الذبال المفتّل

فقال جرير وقد بلغ به الزهو والطرب مبلغه : جائزتي هي لهذا الاعرابي يا أمير المؤمنين ، فقال عبد الملك : وله مثلها ، ولك يا جرير جائزتك لا تنتقص منها شيئاً ، فخرج الاعرابي وفي يده اليمنى ثمانية آلاف درهم ، وفي اليسرى رزمة ثياب .

وتطورت بعد ذلك مجالس الخلفاء في العصر العباسي ، فكانت من أروع المجالس في حسن أثاثها ، وسعة رحابها ، وكثرة علمائها وأدبائها ، وتنوع أبحاثها وفنونها ، هذا عدا عن مجالس الطرب التي كانت الصبغة الادبية غالبة عليها بما يثار فيها من حديث الشعر والشعراء وتفسير الكلمات التي يتغنى بها المغنون . ومن أشهر خلفاء بني العباس في فخامة مجالسهم وروعتها الرشيد والمأمون ، أما الرشيد فقد كان يحتشد في مجالسه أعلام العلماء من كل فن وعلم ، وحسبك أن كان من رواد مجالسه من الشعراء : ابو نواس ، وأبو العتاهية ، ودعبل ، ومسلم بن الوليد ،

والعباس بن الاحنف ، ومن الفقهاء : أبو يوسف والشافعي ومحمد بن الحسن ، ومن اللغويين : أبو عبيـدة والاصمعي والكسائي ، ومن المؤرخين : الواقدي المؤرخ الشهير . ومن المغنين : ابراهيم الموصلي وابنه اسحق .

ولنذكر لك مثلا للمناظرات الادبية التي كانت تجري في مجالسه ، اجتمع عنده يوما سيبويه والكسائي وكبار أئمة اللغة والادب ، فزعم الكسائي ان العرب تقول : كنت أظن الزنبور أشد لسعا من النحلة فاذا هو اياهـا ( أي مثلها ) فقال سيبويـه : بل الصحيح : فاذا هو هي ، فتشاجرا طويلا واتفقا على مراجعة عربي خالص لا يشوب كلامه شيء من كلام أهل الحضر ، وكان الرشيد شديد الحب والعناية بالكسائي اذ كان يعلمه قبل ان يلي الخلافة ، فاستدعى عربيا وسأله ، فنطق بالجملة كما نطق سيبويه ، فقال له : نريد ان تنطقهـا كما نطق بها الكسائي ، فأجابه : ان لساني لا يطاوعني على ذلك ، وأخيرا رضي معهم أنهم اذا سألوه عن المسألة فالصواب مع من فيهما ، فيقول الصواب مع الكسائي، وتم ذلك في محضر حافل ، فعلم سيبويه أنهم تعصبوا عليه للكسائي ، وخرج من بغداد حزينا ، قالوا : ولم تطل به الحياة بعد ذلك كثيرا حتى مات كمدا .

ومن المناظرات الفقهية التي وقعت في مجلسه ، أن محمد بن الحسن صاحب ابي حنيفة وصف الكسائي بأنه لا يحسن الفقه ، وانما يحسن شيئا من كلام العرب ، فقال الكسائي : من تبحر في علم واحد اهتدى به الى سائر العلوم ، فقال له محمد يختبره : ما تقول فيمن سها في سجود السهو ، هل يسجد مرة أخرى ؟ قال الكسائي : لا ، قال محمد : لماذا ؟ فأجاب الكسائي : لأن النحاة تقول : المصغّر لا يصغّر .

وأما المأمون فكانت مجالسه من أروع المجالس العلمية في تاريخ الحضارة الاسلامية ، اذ كان هو نفسه من أساطين العلماء ، وكان بلاطه يموج بجمهرة عظيمة من رجال العلم والادب والشعراء والاطباء والفلاسفة الذين استدعاهم المأمون من جهات متعددة من انحاء مملكته وشملهم جميعا بعنايته مهما اختلفت مشاربهم او جنسياتهم ، وكثيرا ما كان يبدأ المناقشات ويثير العلماء للبحث ، وكان ينهى الفلاسفة والعلماء ان كانوا في مجلسه ان يستدل كل واحد منهم بآيات من كتابه المقدس ، ويقول لهم : لا تستشهدوا بالقرآن ولا بالانجيل ولا بالتوراة ولكن احتكموا الى الحجة والمنطق ، وانما يقصد من ذلك عدم إثارة الجدل الديني في مجالسه، اذ كان العلماء الذين يحضرونها من مختلف المذاهب والديانات. وقد تولى بنفسه مناقشة الفقهاء والمحدثين في القضية المشهورة بخلق القرآن ، فدل بذلك على تعمق في الشريعة واحاطة بنصوصها . وكانت توضع للمناظرة في المجالس قواعد عامة يلزم كل عالم بالتقيد بها في مناظرته مع غيره ، ومن القواعد في ذلك : أن لا يغضب ولا يعجب ولا يشغب ، ولا يقبل على غير خصمه وهو يكلمه ، ولا يبغي الا الحق ولا يسلك الا الصدق .

واذا انتقلنا من مجالس الخلفاء العباسيين الى مجالس الخلفاء الفاطميين في القاهرة ، وجدنا لها ذات الروعة والعظمة ، اذ كانت دار الحكمة ــ وكثيرا ما كان يتصدر الخليفة مجالسها العلمية ــ تمتلىء بالعلماء ، ويرتفع في مجالسها أصواتهم بالجدل والنقاش .

وهناك مجالس للوزراء والأمراء .. كانت تجمع العلماء من كل فن ، فمجالس البرامكة لا تزال تملأ كتب الأدب والتاريخ بما جرى

فيها من أحاديث ومناظرات ، ومجالس سيف الدولة الحمداني ، التي كان فيها ما يزيد على اربعين شاعرا مثل ابي فراس الحمداني ، يتوجهم أبو الطيب المتنبي ، كانت تحكي في العظمة والروعة مجالس الوزراء في العصر العباسي الزاهر .. وقل مثل ذلك في مجالس الوزير ابن الفرات ، وهذا ابو حيان التوحيدي يحكي في الامتاع والمؤانسة طرفا من هـذه المجالس التي كانت تعقد برئاسته ، وكان يحضرهـا أمثال السيرافي والخالدي وقدامة بن جعفر وعلي بن عيسى الجراح وأمثالهم من مشاهير الفلاسفة والمناطقة في عصره ، كما يحكي لنـا ابو حيان امسياته العلمية مع أبي عبدالله الحسين بن سعدان وزير صمصام الدولة.

واذا انتقلنا من ذلك الى مجالس العلماء والكتاب ، رأينا فيها ما يدل على حياة علمية رائعة . واليك مثلا من هذه المجالس العلمية الممتعة : اجتمع يوما عبد الله بن المقفع الاديب الشهير مع نفر من مشاهير ادباء عصره وكتابه وعلمائه . فقال لهم ابن المقفع وهو فارسي الاصل : أي الامم أعقل ؟ فأرادوا مجاملته فقالوا له : فارس أعقل الامم . فقال ابن المقفع : كلا ليس ذلك لها ولا فيها ، وهم قوم علّموا فتعلموا ، وبدئوا بأمر فصاروا الى اتباعه ، ليس لهم استنباط ولا استخراج ، فقالوا له : الروم ، فقال ابن المقفع : ليس ذلك عندها ، بل لهم أبدان وثيقة ، وهم أصحاب بناء وهندسة لا يعرفون سواهما ، قالوا : فالصين ، قال ابن المقفع : انهم أصحاب أثاث وصنعة لا فكر لهم ولا روية ، قالوا : فالترك، قال ابن المقفع : هم سباع للهراش ، يقصد أنهم لا يحسنون غير الحرب، قالوا : فالهند ، قال : هم أصحاب وهم وشعبذة وحيلة ، وأخيرا قالوا له فمن أعقل الامم ؟ فأجاب : هم العرب .. فهمس بعض الحاضرين الى

بعض ، اذ لم يكونوا ينتظرون منه وهو فارسي ان يفضل العرب على كل الامم • فغاظه ذلك وقال : كأنكم تظنون فيَّ مقاربتكم ( أي مجاملتكم ) • والله لوددت ان الامر ليس لكم ولا فيكم ، ولكن كرهت ان فاتني ان أكون من العرب أن يفوتني الاعتراف بالحق والصواب •

ثم بين لهم وجه تفضيله العرب على غيرهم بأنهم حين كانوا في بادئهم لم يكن لهم كتاب ولا علم ، ومع ذلك فقد اهتدوا بفطرتهم الى معرفة نبات الارض وما يصلح الشاة منه والبعير ، ونظروا الى الزمان واختلافه، فجعلوه ربيعيا وصيفيا وقيظيا وشتويا ، ثم علموا أن شربهم من السماء ، فعرفوا الانواء وتغير الزمان ، واهتدوا بنجوم السماء على مسارب الارض والبلاد ، وجعلوا بينهم شيئا ينتهون به عن المنكر ، ويرغبهم في الجميل ، ويتجنبون به الدناءة ، ويحضهم على مكارم الاخلاق ، حتى ان الرجل منهم وهو في فج من الارض وخشونة في العيش ، يصف المكارم فلا يبقي من نعتها شيئا ، ويسرف في ذم المساوىء فلا يقصر ، ليس لهم كلام الا وهم يحضون به على اصطناع المعروف ثم حفظ الجار ، وبذل المال ، وابتناء المحامد ، كل واحد منهم يصيب ذلك بعقله، ويستخرجه بفطنته وفطرته ، من غير تعلم ولا تأدب ، بل لنحائز (طبائع) مؤدبة ، وعقول عارفة ، ثم قال ابن المقفع : فلذلك قلت لكم انهم أعقل الامم ، لصحة الفطرة ، واعتدال البنية ، وصواب الفكر ، وذكاء الفهم •

هذا ولا يفوتنا ان نذكر دور الوراقين ، أي دكاكين بيع الكتب ، فقد كانت ايضا مجالس للعلماء يتساقطون فيها أطيب الحديث عن العلم، كل في العلم الذي تخصص فيه ، وكان بائعو الكتب في الكثير الغالب ادباء ذوي ثقافة ، يستفيدون من حرفتهم اشباع نهمهم العلمي ، وحسبك

ان تعلم أن ابن النديم صاحب « الفهرست » وياقوت صاحب « معجم الادباء » و « معجم البلدان » كانا وراقين ـ أي بائعي كتب ـ وكثيرا ما كان ابو الفرج الاصفهاني صاحب الاغـاني ، وأبو نصر الزجاج الاديب اللغوي المشهور يلتقيـان في دكاكين الوراقين ، يتحدثون عن الشعر والادب مع الشعراء الذين كانوا يفدون الى تلك الدكاكين ، وفي احدى جلساتهما كان ابو الحسن علي بن يوسف الشاعر جالسا عند أبي الفتح بن الحزاز الوراق ، وهو ينشد أبيات ابراهيم بن العباس الصولي التي يقول فيها :

رأى خلتي من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينيه حتى تجلت

فلما بلغ اليه استحسنه وكرره ، حدّث ابو نصر الزجاج قال : قال لي ابو الفرج : قم اليه فقل له : قد اسرفت في استحسان هذا البيت ، وهو كذاك ، فأين موضع الصنعة فيه ؟ فقمت فقلت له ذلك فقال : قوله « وكانت قذى عينيه » فعدت الى الاصفهاني وعرفته ذلك فقال : عد اليه فقل له أخطأت ، الصنعة في قوله « من حيث يخفى مكانها » . وفيها يقول بعض الادباء :

مجـالسة السوق مذمومـة ومنه مجالس قـد تحتسب
فلا تقربنْ غير سوق الجيـاد وسوق السلاح وسوق الكتب
فهـاتيك آلـة أهـل الوغى وهـاتيك آلـة أهـل الادب

وحقا ما قال . فان الحاجة الى معرفـة السلاح والحرب ، ثم الى معرفة العلم والادب ، هي حاجة كل انسان كريم يريد ان يعيش عزيزا كريما .

وبعد ، فالامة التي تستحق الحياة تجد غذاءها في العلم قبل كل شيء . وأمتنا يوم كانت تبعث الحياة في الامم والشعوب كانت تسلك كل سبيل للتزود من العلم ونشره واذاعته ، بل كان مختلف ابنائها من الخليفة الى العالم والتاجر يتبارون في الاستكثار من ادوات العلم وكتبه وبناء مدارسه ، وكانت كما رأيت لا يتحدث فيها الا بما يزيد في العلم ويفتح الذهن ويصقل العقل . وهم حتى في مجالس سمرهم ولهوهم كانوا علماء ادباء ، لا يفوتهم تحقيق مسألـة ، او كشف غـامض ، او تصحيح خطأ ، كما نلمس ذلك في الحادثة التاريخية التالية :

في احدى مجالس الخليفة الواثق غنت جارية بين يديه :

أظلوم إن مصابكـم رجـلاً    أهدى السلام تحيـةً ظلم

فردّ عليها بعض الحاضرين نصبَها « رجلاً » ظانا أنه خبر « إنّ »، فصوابه الرفع على زعمـه ، وما درى أن « رجـلا » مفعول المصدر و « مصابكم » في معنى « اصابتكم » وخبر « ان » هو « ظلم » ، فأنكرت الجارية ما زعمه هذا الرجل وقالت : لا أقبل هذا ولا أغيِّره ، وقد قرأته هكذا على أعلم الناس بالبصرة ابي عثمان المـازني ، فأمر الواثق باحضاره من البصره الى بغداد ، قال المازني : لـما دخلت على الواثق قال : باسمك ؟ يريد : ما اسمك ؟ قال المازني : وكأنه أراد ان يعلمني معرفته بابدال الباء مكان المميم في هذه اللغة ، فقلت له : بكر بن محمد المازني . قال مازن شيبان ام مازن تميم ؟ قلت : مازن شيبان ، فقال حدثنـا ، فقلت يا أمير المؤمنين : هيبتك تمنعني من ذلك ، وقد قال الراجز :

لا تقلواهـــا وادلواها دلوا　　ان مع اليوم أخـــاه غـــدوا

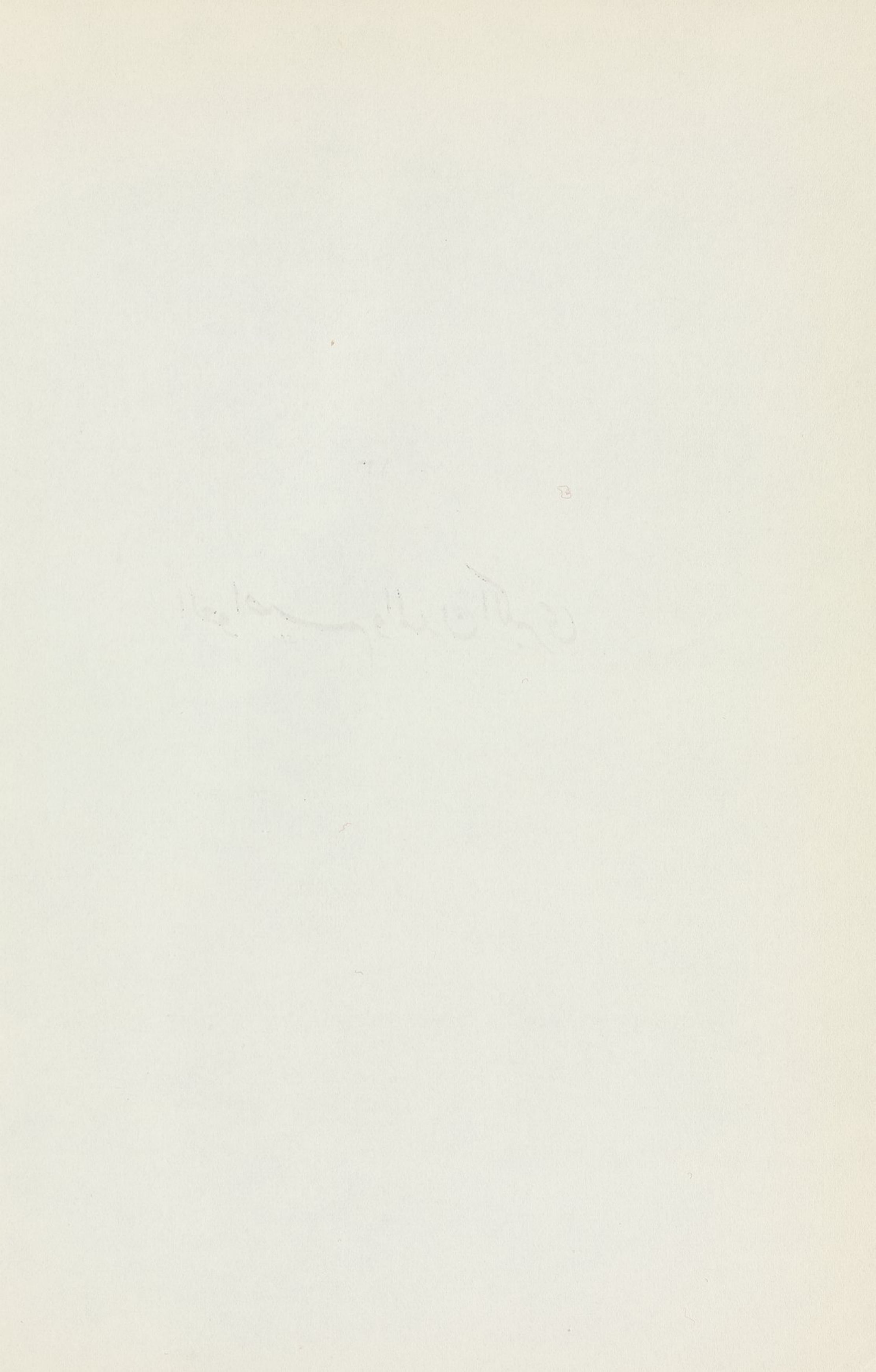
قال : فسّره لنا ، قلت : لا تقلواها : لا تعنفاها في السير : يقال : قلوته ، اذا سرت سيرا عنيفا ، ودلوت : اذا سرت سيرا رفيقا .

قال : ثم احضر « التوزي » وهو الذي خطّأ الجارية في غنائها ــ وكان في دار الواثق ــ وكان التوزي يقول : « ان مصابَكم رجل" » ، يظن أن « مصابكم » اسم مفعول ، و « رجل » ، خبر ، فقال له المازني : كيف تقول : « إنّ َضرْبَكَ زيداً ظلم" » ؟ فقال التوزي : حسبي ، وفهم .

ولم نتحدث هنا عن مجالس الفقهاء والمحدثين والوعاظ ، فـذلك مما شاع وذاع في كل بلدة وقرية ، وقصارى القول ان حضارتنا في عصور ازدهارها ملأت العـالم الاسلامي بنور العلم يغشى بيوتهـا ومساجدها ومدارسها وأنديتها ومجالسها ودكاكينها ، حتى حق لعالم كبير كغوستاف لوبون أن يقول : ان حب العرب للعلم كان عظيما ، وانهم بلغوا درجة رفيعة من الثقافة بعد ان أتموا فتوحهم بزمن قصير ، حتى استطاعوا أن يبدعوا حضارة أينعت فيها الآداب والعلوم والفنون وبلغت الذروة !! .

— ١٣ —

# العواصم والمدن الكبرى



نحن الآن في القرن الرابع الهجري ، او القرن العاشر الميلادي ، وسنلقي نظرة سريعة على مدن العالم الاسلامي ومدن العالم الغربي ، وسيروعنا الفرق العظيم بين العالمين ، سيدهشنا ان نرى عالما زاخرا بالحياة والقوة والحضارة — وهو العالم الاسلامي — وعالما بدائيا لا أثر فيه لحياة او علم او حضارة — وهو العالم الغربي — ولنحاول المقارنة بين مدن هذين العالمين ، ولنبدأ بالعالم الغربي لنرى كيف كانت معيشة سكانه واتساع مدنه ومستوى أهله .

جاء في التاريخ العام للافيس ورامبو ما يلي : كانت انجلترا الانجلوسكسونية في القرن السابع الميلادي الى ما بعد العاشر فقيرة في أرضها منقطعة الصلات بغير بلادها ، سمجة وحشية ، تبني البيوت بحجر غير منحوت ، وتشيدها من تراب مدقوق ، وتجعلها في وَطاء من الارض ، مساكن ضيقة المنافذ ، غير محكمة الاغلاق ، واصطبلات وحظائر لا نوافذ لها ، تقرض الامراض والاوبئة المتكررة المواشي والسائمة وهي المورد الوحيد في البلاد ، ولم يكن الناس احسن مسكنا وأمنا من الحيوانات ، يعيش رئيس القبيل في كوخه مع اسرته وخدمه ومن اتصل به ، يجتمعون في قاعة كبرى في وسطها كانون ينبعث دخانه من ثقب فتح في السقف فتحا غليظا ، ويأكلون كلهم على خوان واحد ، يجلس السيد وقرينته في احد اطراف المائدة ، ولم تكن الشوكات معروفة ، وللاقداح حروف من اسفلها ، فكان على كل مدعو ان يمسك بيده قدحه ، او يفرغه في فيه دفعة واحدة وينتقل السيد الى غرفته في

المساء بعد ان يتناولوا الطعام ويعربدوا على الشراب ، ثم ترفع المنضدة والصقالات ، وينام جميع المجتمعين في تلك القاعة على الارض او على دكك ، واضعا كل فرد سلاحه فوق رأسه ، لان اللصوص كانوا من الجرأة بحيث يقتضي على الناس ان يقفوا لهم بالمرصاد كل حين لئلا يؤخذوا على غرة .

وكانت اوروبا في ذلك العهد غاصة بالغابات الكثيفة ، متأخرة في زراعتها ، وتنبعث من المستنقعات الكثيرة في ارباض المدن روائح قتالة، تجتاح الناس وتحصدهم . وكانت البيوت في باريس ولندن تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب ( كبيوت القرى عندنا منذ نصف قرن ) ولم يكن فيها منافذ ولا غرف مدفأة ، وكانت البسط مجهولة عندهم ، لا بساط لهم غير القش ينشرونه على الارض ، ولم يكونوا يعرفون النظافة ، ويلقون باحشاء الحيوانات واقذار المطابخ امام بيوتهم ، فتتصاعد منها روائح مزعجة ، وكانت الاسرة الواحدة تنام في حجرة واحدة تضم الرجال والنساء والاطفال ، وكثيرا ما كانوا يؤون معهم الحيوانات الداجنة ، وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش فوقه كيس من الصوف ، يُجعل مخدة أو وسادة ، ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح ، ولم تكن اكبر مدينة في اوروبا تضم اكثر من خمسة وعشرين الفاً .

هكذا كان الغرب في القرون الوسطى حتى القرن الحادي عشر فما بعده ، باعتراف مؤرخيهم انفسهم ، فلننتقل سريعا ــ قبل ان ننسى هذه الصورة ــ الى الشرق ، الى حيث المدن والعواصم كبغداد ودمشق وقرطبة وغرناطة واشبيلية .. لنرى كيف كانت هذه المدن وكيف كانت حضارتها .

لنزر مدن الاندلس ، فهي مجاورة لاوروبا التي نتحدث عنهـا ، ولنبدأ بقرطبة ، ولنحاول ان نلم بملامحها الظاهرة ، لا بكل شيء فيها ، فكيف نجدها ؟

كانت قرطبة في عهد عبد الرحمن الثالث الاموي عاصمة الاندلس المسلمة ، تنار بالمصابيح ليلا ويستضيء الماشي بسرُجهـا عشرة اميال لا ينقطع عنـه الضوء ( أي ستة عشر كيلو مترا ) ، ازقتها مبلطـة ، وقُماماتها مرفوعة من الشوارع ، محاطة بالحـدائق الغناء حتى كان القادم اليها يتنزه ساعات في الرياض والبساتين قبل ان يصل اليها ، كان سكانها اكثر من مليون نسمة ( في ذلك العصر الذي لم تكن فيه اكبر مدينة في اوروبا تزيد عن خمسة وعشرين الفا ) وكانت حماماتها تسعمائة حمام وبيوتها ٢٨٣,٠٠٠ بيت وقصورها ثمانون الف قصر ومساجدها ستمائة مسجد، وكانت استدارتها ثمانية فراسخ (أي ثلاثين الف ذراع)٠ كان كل من فيها متعلماً ، وكان في ربضها الشرقي مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي، هذا في ناحية واحدة من نواحيها، وكان فيها ٨٠ مدرسة يتعلم فيها الفقراء مجاناً وخمسون مستشفى ٠ وأما مسجدها فكان ولا تزال آثاره حتى اليوم آية خالـدة في الفن والابداع ٠ كان ارتفاع مئذنته اربعين ذراعا تقوم قبته الهيفاء على روافد من الخشب المحفور ، وتستند الى ١٠٩٣ من الاعمدة المصنوعـة من مختلف الرخام على شكل رقعة الشطرنج فيتألف منها تسعة عشر صحناً طولاً وثمانية وثلاثون صحناً عرضاً ، وكان يضاء في الليل بأربعة آلاف وسبعمائة مصباح تستنفد في كل سنة ٢٤ الف رطل من الزيت ، وترى في وجهه الجنوبي تسعة عشر باباً مصفحاً بصفائح برونزية عجيبة الصنع

خلا الباب الوسط الذي كان مصفحا بالواح من الذهب ، وترى في كل من وجهه الشرقي والغربي تسعةابواب مشابهة لتلك الأبواب، أما محرابه فحسبك ان يقول فيه مؤرخو الفرنج « انه اجمل ما تقع عليه عين بشر وانه لا يرى أحسن من زخرفه وسنائه في أي أثر قديم أو حديث » •

وقد الحق بقرطبة بناء الزهراء الخالد في التاريخ بفنه وروعته حتى قال فيه المؤرخ التركي ضيا باشا : « انه كان أعجوبة الدهر التي لم يخطر مثل خيالها في ذهن بنّاء منذ برأ الله الكون ولا تمثل رسم كرسمها في عقل مهندس منذ وُجدت العقول » كانت قبابه تقوم على ٤٣١٦ عمود من أنواع الرخام المنقوش نقشا متساويا ، وكانت أرضه مبلطة بقطع من الرخام ذي الألوان المختلفة على شكل جميل ، وكانت جدره مصفحة بالواح لازوردية ذهبية وفي ردهاته عيون ماء عذب ينصب ويغيب في أحواض من الرخام الابيض مختلفة الاشكال الى أن ينتهي الى بركة في ردهة الخليفة ، وكانت ترى في وسط البركة إوزّة من ذهب معلقة في رأسها لؤلؤة وفي مياهها من صنوف الاسماك والحيتان الالوف الكثيرة حتى كان عدد ما يرمى لها من الخبز كل يوم اثني عشر الف رغيف •

وفي الزهراء المجلس المسمى ( قصر الخلافة ) وكان سقفه وحيطانه من الذهب والرخام الغليظ الصافي لونه المتلون اجناسه ، وفي وسطه حوض عظيم مملوء بالزئبق ، وفي كل جانب من جوانب المجلس ثمانية أبواب على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب واصناف الجوهر قامت على سواري من الرخام الملون والبلور الصافي ، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه ،

فيصير من ذلك نور يأخذ بالابصار ، وكان الناصر اذا اراد ان يفزع احدا من أهل مجلسه اومأ الى احد مواليه فيحرك ذلك الزئبق ، فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور ، ويأخذ بمجامع القلوب ، حتى يخيل لكل من في المجلس ان المحل قد طار بهم مادام الزئبق يتحرك ، وكانت تحيط بالقصر حدائق غناء وميادين واسعة الارجاء ، ومن وراء ذلك سور عظيم يحيط بهذا البناء العجيب فيه ثلاثمائة برج حربي وكانت الزهراء تحتوي على دور الخليفة والامراء والحريم ، وقاعات كبرى لجلوس الملك في مكان خاص اطلق عليه السطح الممرد كانت له قبة قراميدها من ذهب وفضة ولكن القاضي منذر بن سعيد انكر على الخليفة فعله هذا في حشد هائل بجامع قرطبة فنقضها واعاد بناءها من لبن ، وكان فيها دور الصناعة والآلات : كدار صناعة آلات السلاح للحرب ( لنذكر هذا ونحن في اسبوع التسلح ولنذكر كيف كنا نصنع السلاح في ديارنا لا نستجديه من احد ) ودار صناعة الحلي للزينة ، ودار صناعة النحت والزخارف والتماثيل وغير ذلك من المهن والصناعات، استغرق بناء الزهراء اربع سنوات ، كان معدل ما ينحت فيها كل يوم من الصخر ٦٠٠٠ صخرة عدا عن الصخر المنصرف في التبليط ، وعدد العمال الذين يشتغلون فيها كل يوم عشرة آلاف رجل ، ويخدم فيها كل يوم ١٤٠٠ بغل ، ويردها في كل ثلاثة ايام ١١٠٠ حمل من الجير والجص . اما جامع الزهراء فقد كان يعمل فيه كل يوم من حذاق الصناع الف رجل منهم ٣٠٠ بناء و٢٠٠ نجار و٥٠٠ من الاجراء وسائر الصناع وقد استتم بناؤه في ثمانية واربعين يوما فقط وهي سرعة لا يكاد يكون لها نظير .

وفي هذا القصر العظيم استقبل الخليفة المستنصر عام ٣٥١ ملك اسبانيا المسيحية اردون بن اذفونش ، وقد اصابه الذهول حينما دخل الزهراء ورأى ابهتها وعظمتها وخدمها وجندها وسلاحها ، ثم زاد ذهوله حين وصل الى مجلس الخليفة المستنصر وفي جانبه عظماء المملكة واشرافها وفحول العلماء والخطباء واكابر القواد ، فلما قارب ملك الاسبان الدنو من الخليفة المستنصر كشف رأسه وخلع برنسه وبقي حاسرا حتى اذن له الخليفة بالاقتراب منه فلما قابل الخليفة خر ساجدا سويعة ثم استوى قائما ثم تقدم خطوات وعاد الى السجود .. فعل ذلك مرارا الى أن قدم بين يدي الخليفة فأهوى الى يده ليقبلها فناوله اياها وعاد راجعا مقهقرا على عقبه دون ان يولي الخليفة ظهره . ثم جلس على سرير اعد له ، فقال الخليفة مرحبا به « ليسرّك اقبالك ، ويُغبطك تأميلك فلدينا لك من حسن رأينا ورحب قبولنا فوق ما قد طلبته » فلما ترجم له كلام الخليفة انبسط وجهه وانحط على رتبته وقبّل البساط ثم قال : « انا عبد اميرالمؤمنين مولاي ، المتورك على فضله ، القاصد الى مجده ، المحكم في نفسه ورجاله ، فحيث وضعني من فضله ، وعوضني من خدمته رجوت ان اتقدم فيه بنية صادقة ونصيحة خالصة » فقال له الخليفة : « انت عندنا بمحل من يستحق حسن رأينا ، وسينالك من من تقديمنا لك ، وتفضيلنا اياك على اهل ملتك ما يُغبطك وتتعرف به فضل جنوحك الينا ، واستظلالك بظل سلطاننا » . أسمعتم كلمات القوة والعظمة كيف تنطلق من فم الخليفة المستنصر فيسمعها ملك الاسبان فلا يكاد يفهمها حتى يخر ساجدا مرة اخرى ثم يبتهل بالدعاء لما شمله الخليفة من عطفه وحمايته ؟

واذا انتقلنا من ذلك الى غرناطة تجلت لنا عظمة البناء والعمارة في قصر الحمراء وقد كان آية عجبا يدهش له الناظرون ، ولا يزال رغم عوادي الزمن محط انظار السائحين من بلاد العالم كلها ، اقيم هـذا القصر على منحدر جبل يشرف على مدينة غرناطة وحقول البقعة الواسعة الخصيبة المحيطة بها ، فبدا من أجمل امكنة العالم . وكانت فيه قاعات متعددة منها قاعة الاسود ، وغرفـة الاختين ، وقاعة العدل ، وقاعـة السفراء ، ولا يمكننا في هذا الحديث القصير ان نلم بوصف الحمراء وحسبنا ان يتغنى فيها الشاعر الفرنسي ( فيكتور هوجو ) بقوله :

أيتها الحمراء ! أيتها الحمراء ! أيها القصر الذي زينتك الملائكـة كما شاء الخيال وجعلتك آيـة الانسجام ، ايتها القلعـة ذات الشرف المزخرفـة بنقوش كالزهور والاغصان المائلـة الى الانهـدام ! حينما تنعكس اشعة القمر الفضية على جدرك من خلال قناطرك العربية يسمع لك في الليل صوت يسحر الالباب .

وأما الحديث عن المدن الاندلسية الاخرى وما كانت عليه من رقي وعظمة فذلك حديث يطول ، وحسبنا ان نذكر هنا ان اشبيلية كان فيها ستة آلاف نول للحرير وحده وكانت محاطة من كل اطرافها باشجار الزيتون ومن ثم كان فيها مائة الف معصرة للزيت .

وعلى العموم فقد كانت مدن اسبانيا عامرة ، وكانت كل مدينـة مشهورة بانواع من الصناعة تقبل عليها اوروبا بشغف لا مثيل له . حتى انها كانت مشهورة بمصانع الدروع والخوذ وسقي الفولاذ ، فيقبل الاوربيون على شرائها من كل مكان ، ( وهذا ما يجب ان نذكره ايضا في اسبوع التسلح ) . ويقول رينو في كتابه الغارة على فرنسا : ان

العرب لما اغاروا من الاندلس على جنوبي فرنسا وافتتحوا بقيادة السمح الخولاني وعنبسة الكلبي والحر الثقفي مدائن اربونـه وفرتشونـه وافنيون وليون كانوا مجهزين باسلحة لم يكن للافرنج مثلها .

ولنتحول بعد ذلك الى العالم الاسلامي الشرقي لنرى نموذجا من مدنه الكبرى وحضارته الرائعة . وساقتصر هنا على بغداد وكيف كانت حين بنيت من عجائب الدنيا التي لا مثيل لها في القديم .

كانت بغداد قبل أن يبنيها المنصور الخليفة العباسي الشهير ضيعة صغيرة يجتمع فيها على رأس كل سنة التجار من الاماكن القريبة منها ، فلما عزم المنصور على بنائها أحضر المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الأرضين ثم وضع بيده أول آجرة في بنائها وقال : بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله والارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . ثم قال ابنوا على بركة الله ، بلغ مجموع ما انفق على بنائها اربعة ملايين وثمانمائة الف درهم وبلغ عدد العمال المشتغلين فيها مئة الف ، وكان لها ثلاثة اسوار يلي الواحد منها الآخر . بلغ عدد سكانها مليوني نسمة ، وبلغت عدد دروبها وسككها ستة آلاف بالجانب الشرقي وأربعة آلاف بالجانب الغربي ، وكان فيها عدا دجلة والفرات أحد عشر نهراً فرعياً تدخل مياهها الى جميع بيوت بغداد وقصورها وكان في نهر دجلة وحده من المعديات ( المعبرانيات ) ثلاثين ألفاً ، أما حماماتها فقد بلغت ستين الف حمام ، وفي أواخر عهد العباسيين بها تناقص هذا العدد الى بضعة عشر الف حمام ، وأما مساجدها فقد بلغت ثلاثمائة الف مسجد ، أما سكانها وكثرة العلماء والادباء والفلاسفة فيها فذلك مالا يحيط به حصر ، ولننقل هنا ما قاله ابو بكر الخطيب

في وصفها : « هذا الى تركنا ذكر أشياء كثيرة من مناقبها التي افردها الله بها دون سائر الدنيا شرقاً وغرباً ، وبين ذلك من الاخلاق الكريمة والسجايا المرضية ، والمياه العذبة الغدقة ، والفواكه الكثيرة الدمثة ، والاحوال الجميلة ، والحذق في كل صنعة والجمع لكل حاجة ، والامن من ظهور البدع ، والاغتباط بكثرة العلماء والمتعلمين ، والفقهاء والمتفقهين ، ورؤساء المتكلمين ، وسادة الحساب والنحوية ، ومجيدي الشعراء ، ورواة الاخبار والانساب وفنون الآداب وحضور كل طرفة ، واجتماع ثمار الازمنة في زمن واحد ، لا يوجد ذلك في بلد من مدن الدنيا الا بها ، سيما زمن الخريف . ثم ان ضاق مسكن بساكن وجد خيراً منه ، وان لاح له مكان أحب اليه من مكانه لم يتعذر عليه النقلة اليه من أي جانب من جانبيه اراده ومن أي طرف من اطرافه خف عليه ، ومتى هرب أحد من خصمه وجد من يستره في قرب أو بعد ، وأن آثر أن يستبدل داراً بدار أو سكة بسكة أو شارعاً بشارع أو زقاقاً بزقاق أو غير ذلك من التبديل أتسع له الامكان في ذلك حسب الحالة والوقت ، ثم عيون التجار المجهزين ، والسلاطين المعظمين، وأهل البيوتات المبجلين، في ناحية ناحية ، تنبعث الخيرات بهم الى الذين هم في الحال دونهم غير منقطع ذلك ولا مفقود ، فهي من خزائن الله العظام التي لا يقف على حقيقتها الا هو وحده » . وقال : لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها ، وفخامة أمرها ، وكثرة علمائها واعلامها وتميز خواصها وعوامها ، وعظم أقطارها وسعة اطرارها [1] وكثرة دورها ومنازلها، ودروبها وشعوبها ومحالها وأسواقها ، وسككها وأزقتها ، ومساجدها وحماماتها ، وطرزها

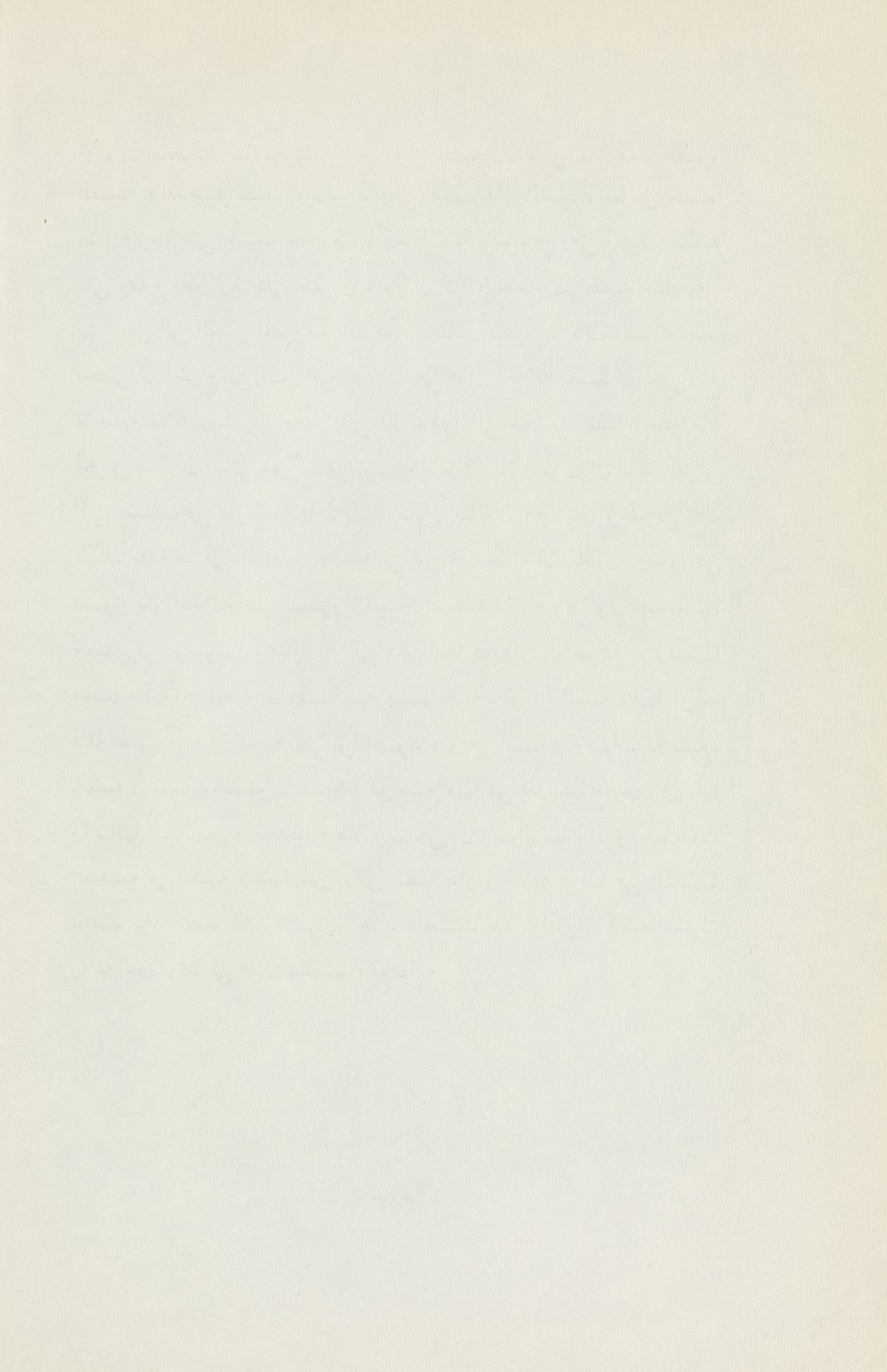
---

(١) جمع طر بالضم : شفير النهر والوادي وطرف كل شيء وحرفه .

وخاناتها ، وطيب هوائها ، وعذوبة مائها ، وبرد ظلالها ، وافيائها ، واعتدال صيفها وشتائها ، وصحة ربيعها وخريفها ، وزيادة ما حصر من عدة سكانها . وأكثر ما كانت عمارة وأهلاً في أيام الرشيد ، اذ الدنيا قارّة المضاجع دارة المراضع ، خصيبة المراتع ، موروودة المشارع . ثم حدثت بها الفتن ، وتتابعت على أهلها المحن ، فخرب عمرانها ، وانتقل قطانها ، الا انها كانت قبل وقتنا والسابق لعصرنا على ما بها من الاختلال والتناقص في جميع الاحوال ، مباينة لجميع الامصار ، ومخالفة لسائر الديار .

ونختم حديثنا هذا بوصف عظمتها في عهد المقتدر بالله ومبلغ ما وصلت اليه أبهة الخلافة في عصره حين زارها رسول ملك الروم . كانت دار الخلافة في اتساعها تفوق مدينة كبيرة من مدن سوريا اليوم . كان فيها من الخدم الخصي أحد عشر الف خادم ومن غيرهم آلاف لا تحصى وكان عدد كل نوبة من نوب الفراشين أربعة آلاف فرّاش . فلما وردها رسول ملك الروم أنزل في دار الضيافة ثم صف العسكر من دار الضيافة الى دار الخليفة ، فبلغ عددهم مائة وستين الف فارس وراجل فسار بينهم الى ان بلغ الدار ثم سلم على الخليفة وأمر أن يطاف به دار الخلافة وقد أفرغت ولم يبق فيها الا سبعة آلاف خادم وسبعمائة حاجب وأربعة آلاف غلام اسود ، وفتحت الخزائن وآلات السلاح والحرب فيها مرتبة كما ترتب اجهزة العرائس ، ولما دخل رسول ملك الروم دار الشجرة ذهل اذ رآها ، وكانت شجرة من الفضة وزنها خمسمائة الف درهم ، لها ثمانية عشر غصناً لكل غصن منها أغصان صغيرة وقفت عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة وأكثر قضبان الشجرة فضة وبعضها مذهب وهي تتمايل في أوقات ولها ورق مختلف

الألوان يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجر ، وكل من هذه الطيور الفضية والذهبية يصفر ويهدر ، وفي جانب دار الشجرة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً قد ألبسوا الديباج وفي أيديهم مطارد على رماح يدورون على خط واحد كأن كل واحد منهم يقصد صاحبه ، ثم أدخل الى القصر المعروف بالفردوس فكان فيه من آلات السلاح مالا يحصى ثم أخرج من قصر الى قصر — في دار الخلافة نفسها — حتى بلغ ما طافه ثلاثة وعشرين قصراً الى أن عادوا الى مجلس المقتدر بالله مرة أخرى بعد أن استراحوا سبع مرات . ويذكر المؤرخون ان عدد الفرش التي بسطت في دار الخلافة لزيارة رسول ملك الروم اثنين وعشرين الف بساط عدا ما في المقاصير والمجالس من البسط والانماط . وعلق في قصور دار الخلافة من الستور الديباج المذهبة ثمانية وثلاثون الف ستر، ومما زاره رسول ملك الروم في دار الخلافة دار الوحوش ، وفيها مختلف أنواع الحيوان المستأنسة والمتوحشة ، ودار الفيلة وفيها أربعة فيلة على كل فيل ثمانية نفر من الهنود ، ودار السباع وفيها مائة سبع، خمسون يميناً وخمسون يساراً ، كل سبع منها في يد سبَّاع وفي رؤوسها وأعناقها السلاسل والحديد . ولا ريب في أن رسول ملك الروم قد بلغت الدهشة في نفسه مبلغها حين رأى عظمة دار الخلافة ، فما في الدنيا يومئذ دار كهذه الدار التي رآها ، وحسبنا هذا الذي ذكرناه لندرك روعة حضارتنا في ابان عظمتها وقوتها .

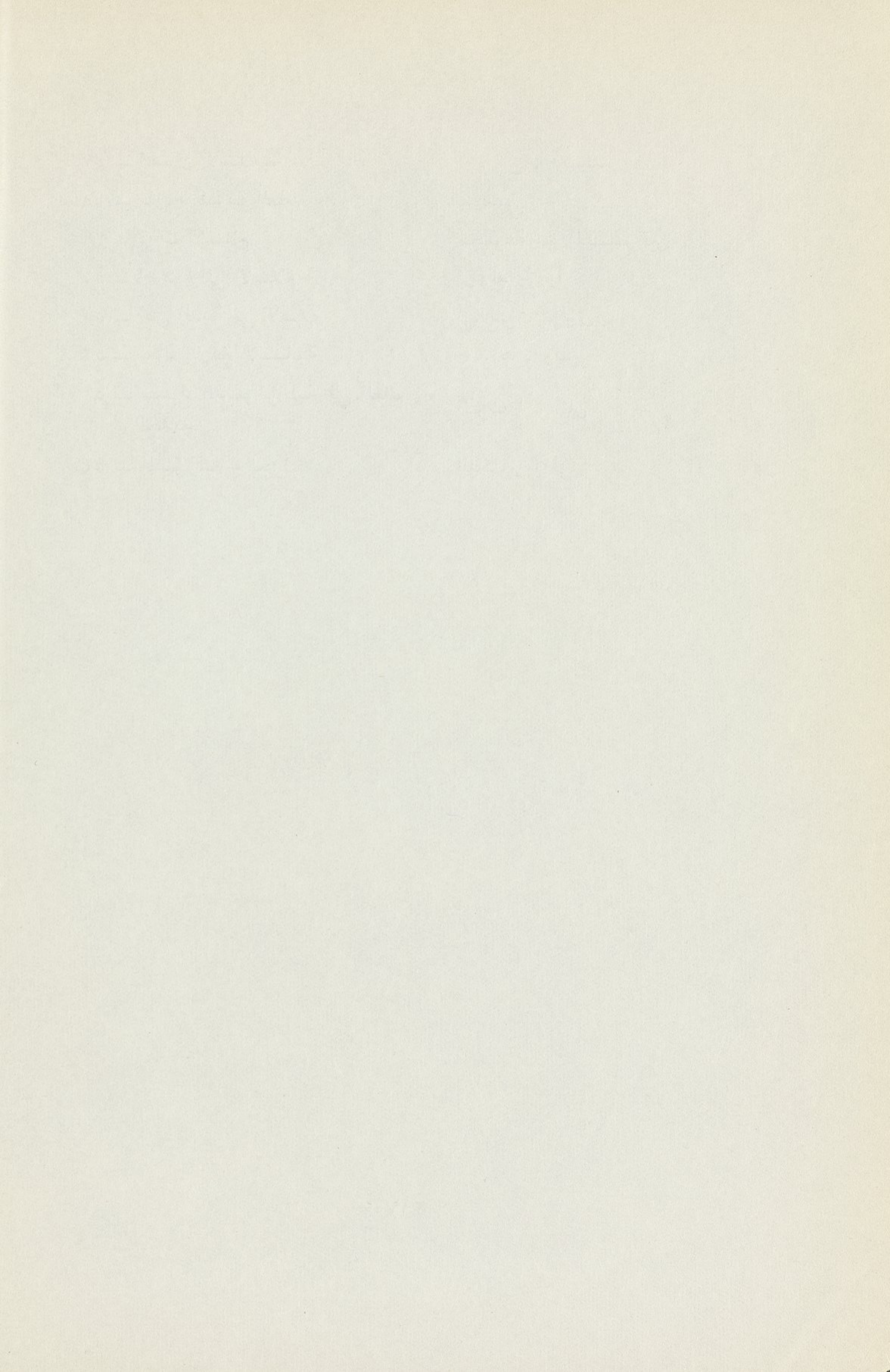


# المراجع


| | |
|---|---|
| ١ ـ تاريخ الامم والملوك | الطبري |
| ٢ ـ الخطط المقريزية | المقريزي |
| ٣ ـ تاريخ بغداد | الخطيب البغدادي |
| ٤ ـ النجوم الزاهرة | ابن تغري بردي الاتابكي |
| ٥ ـ الاوقاف | الجصاص |
| ٦ ـ تاريخ البيمارستانات في الاسلام | الدكتور احمد عيسى |
| ٧ ـ تاريخ التربية الاسلامية | الدكتور شلبي |
| ٨ ـ مروج الذهب | المسعودي |
| ٩ ـ فتح البلدان | البلاذري |
| ١٠ ـ عصر المأمون | الدكتور احمد فريد رفاعي |
| ١١ ـ الطبقات الكبرى | ابن سعد |
| ١٢ ـ السيرة | ابن هشام |
| ١٣ ـ تاريخ دمشق | ابن عساكر |
| ١٤ ـ الرياض النضرة في مناقب العشرة | المحب الطبري |
| ١٥ ـ سيرة عمر بن عبد العزيز | ابن عبد الحكم |
| ١٦ ـ الدارس في اخبار المدارس | النعيمي |
| ١٧ ـ رحلة بن جبير | ابن جبير |
| ١٨ ـ طبقات الشافعية الكبرى | السبكي |
| ١٩ ـ النهاية | ابن كثير |
| ٢٠ ـ تاريخ ابن خلدون | ابن خلدون |
| ٢١ ـ الاصابة في معرفة الصحابة | ابن حجر |

| | |
|---|---|
| ٢٢ ـ الاغاني | ابي الفرج الاصفهاني |
| ٢٣ ـ وفيات الاعيان | ابن خلكان |
| ٢٤ ـ إنباه الرواه | جمال الدين القفطي |
| ٢٥ ـ طبقات الاطباء | ابن ابي اصيبعه |
| ٢٦ ـ تاريخ الحكماء | ابن القفطي |
| ٢٧ ـ صبح الاعشى | القلقشندي |
| ٢٨ ـ الاعتبار | اسامة بن منقذ |
| ٢٩ ـ الفهرست | ابن النديم |
| ٣٠ ـ معجم الادباء | ياقوت |
| ٣١ ـ سرح العيون | ابن نباته |
| ٣٢ ـ الامتاع والمؤانسة | ابن حيان التوحيدي |
| ٣٣ ـ الروضتين | ابي شامة |
| ٣٤ ـ احياء علوم الدين | الغزالي |
| ٣٥ ـ نهاية الرتبة في طلب الحسبة | الشيرازي |
| ٣٦ ـ السلطان محمد الفاتح | محمد مصطفى صفوت |
| ٣٧ ـ الاسلام والنصرانية | الامام محمد عبده |
| ٣٨ ـ الرسالة الخالدة | عبد الرحمن عزام |
| ٣٩ ـ الطب العربي | الدكتور امين اسعد خير الله |
| ٤٠ ـ الزهراء | محب الدين الخطيب |
| ٤١ ـ ديوان التحقيق | محمد عبد الله عنان |
| ٤٢ ـ خطط الشام | محمد كرد علي |
| ٤٣ ـ الاسلام والحضارة العربية | محمد كرد علي |
| ٤٤ ـ ماو ماو ثورة الاحرار | الدكتور راشد البراوي |
| ٤٥ ـ اثر العرب في الحضارة الاوربية | عباس محمود العقاد |
| ٤٦ ـ حضارة العرب | غوستاف لوبون |

| الكتاب | المؤلف |
| --- | --- |
| ٤٧ ـ الفنون الاسلامية | م . س . ديماند |
| ٤٨ ـ تاريخ العرب العام | سيديو |
| ٤٩ ـ تراث الاسلام | مجموعة من المستشرقين |
| ٥٠ ـ الدعوة الى الاسلام | ارنولد |
| ٥١ ـ أهل الذمة في الاسلام | ا . س . ترتون |
| ٥٢ ـ معالم تاريخ الانسانية | ج . ه . ويلز |
| ٥٣ ـ مصرع الديموقراطية في العالم الجديد | البرت ا . كان |
| ٥٤ ـ المسؤولية والجزاء | الدكتور وافي |



# الفهـرس


| | الصفحة |
|---|---|
| **مقدمة الكتاب** | **٣ ـ ٢٣** |
| خصائص حضارتنا | ٢٥ |
| آثار حضارتنا في التاريخ | ٣٥ |
| النزعة الانسانية | ٤٩ |
| المساواة العنصرية | ٦٣ |
| التسامح الديني | ٧٧ |
| أخلاقنا الحربية | ٩٥ |
| الرفق بالحيوان | ١١٨ |
| المؤسسات الخيرية | ١٣١ |
| المدارس والمعاهد العلمية | ١٤٣ |
| المستشفيات والمعاهد الطبية | ١٥٥ |
| المكتبات الخاصة والعامة | ١٧٥ |
| المجالس والندوات العلمية | ١٨٩ |
| العواصم والمدن الكبرى | ٢٠١ |
| المراجع | ٢١٥ |
| الفهرس | ٢١٩ |

من منشورات

دار السلام

للتأليف والترجمة والنشر

| اسم الكتاب | المؤلف |
|---|---|
| قصص من التاريخ | علي الطنطاوي |
| رجال من التاريخ | علي الطنطاوي |
| صور وخواطر | علي الطنطاوي |

**كتب تحت الطبع**

| | |
|---|---|
| الأمة العربية في معركة تحقيق الذات | محمد المبارك |
| رجال الفكر والدعوة في الاسلام | ابو الحسن علي الحسني الندوي |
| صور من الشرق | علي الطنطاوي |

طبع هذا الكتاب في المطبعة الهاشمية بدمشق



**كتب للمؤلف**

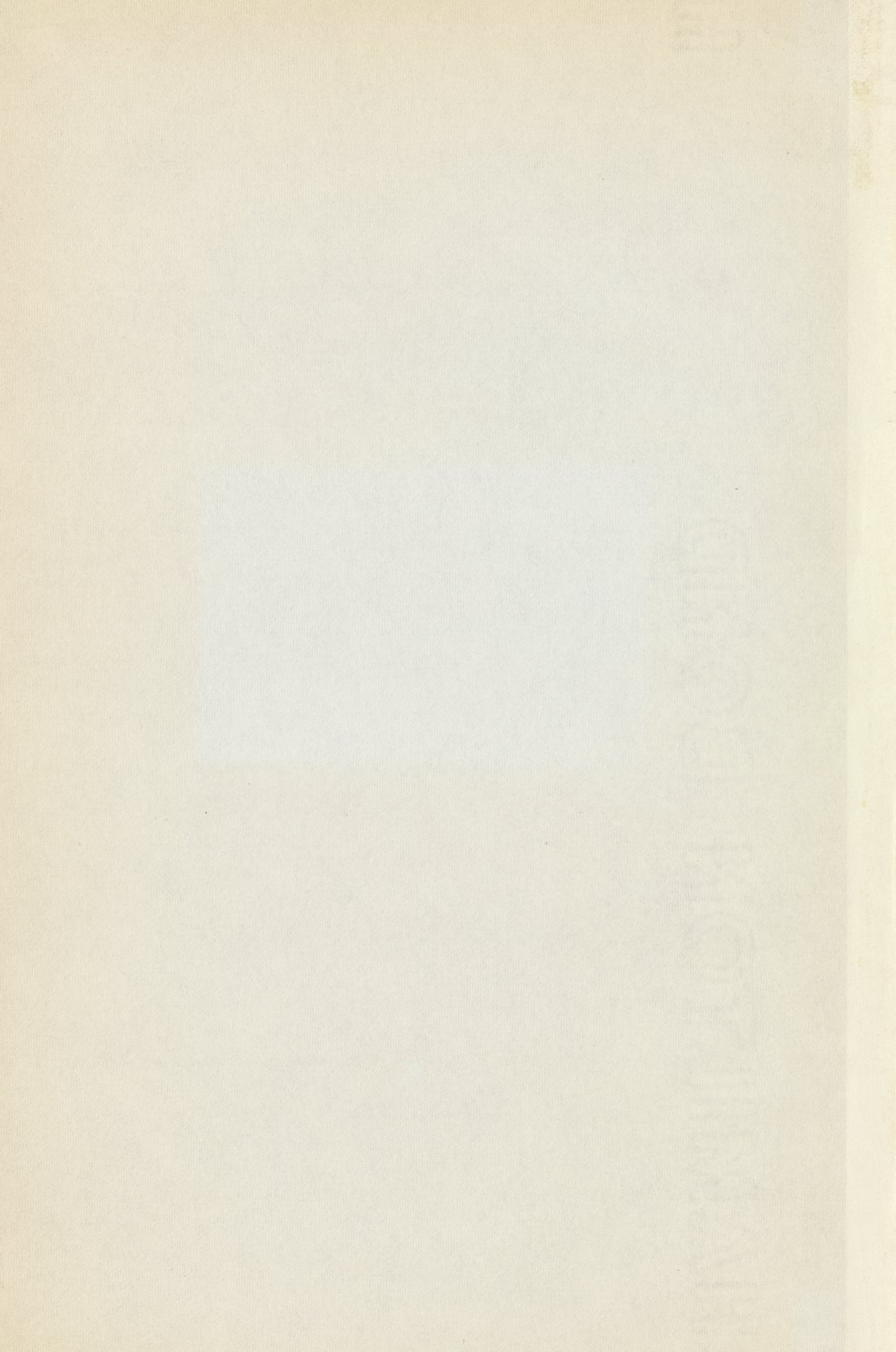
- شرح قانون الاحوال الشخصية في ( جزأين )
- الوصايا والفرائض
- اخلاقنا الاجتماعية
- اشتراكية الاسلام
- احكام الصيام وفلسفته
- الدين والدولة في الاسلام
- نظام السلم والحرب في الاسلام
- مشروعية الارث وأحكامه في الاسلام
- المرونة والتطور في التشريع الاسلامي

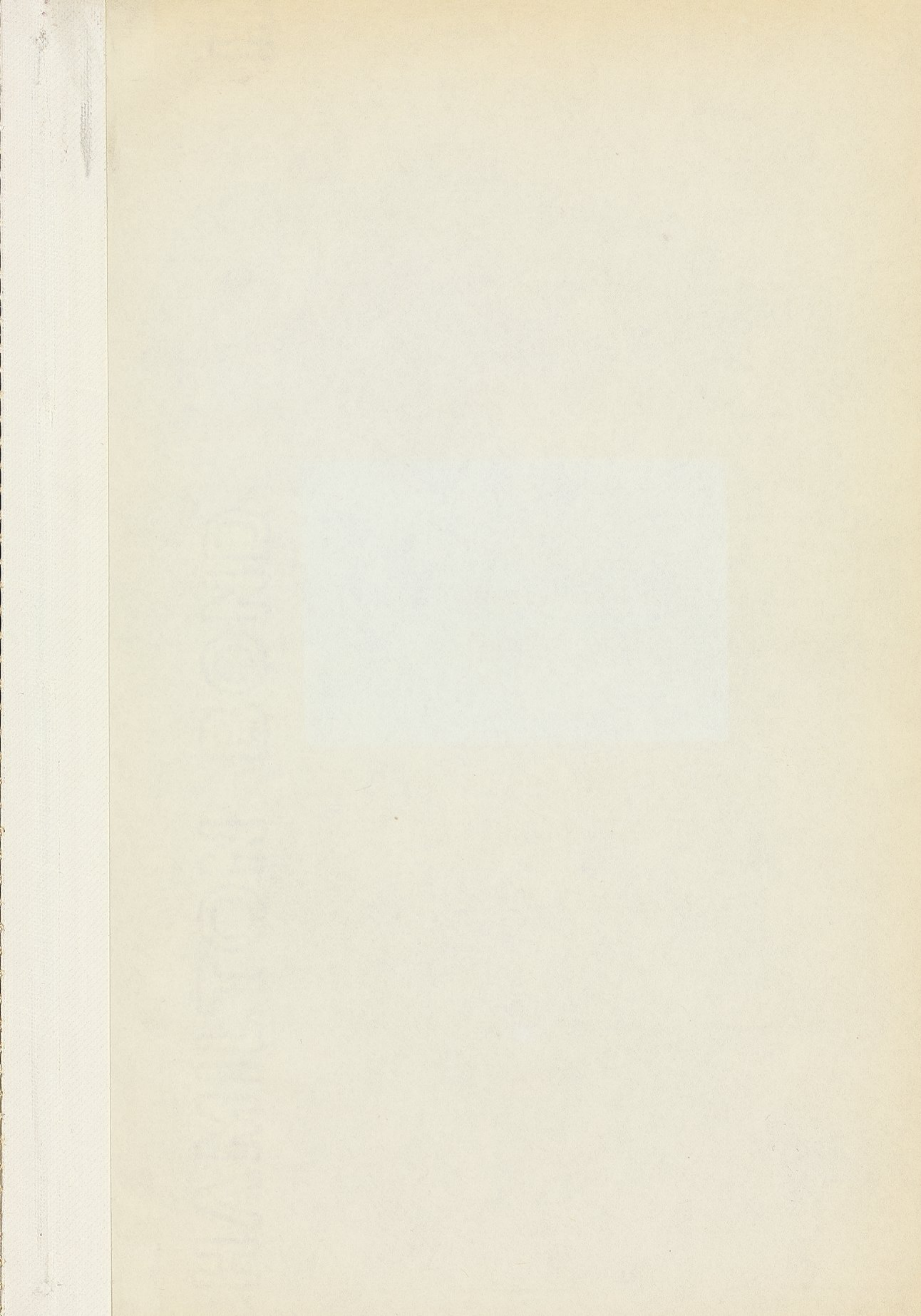
**تحت الطبع :**

- السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي

٣٠٠ ق . س

٤٠ ق . م






Princeton University Library
32101 072235706